من تاريخ السودان

الجَّعَلِيُّون

أحْدَاثٌ ومَنَاقِب



د. عثمان السِّيد إبراهيم فرح

من تاريخ السودان

الجَّعَلِيُّون (أحداث ومناقب)

يحوي هذا الكتاب سردا وتحليلا لوقائع وأحداث مهمة في تاريخ قبائل الجعليين، أكبر قبائل السودان وأكثرها انتشارا، وذلك خلال فترتي الحكم التركي وحكم المهدية (١٨٢١-١٨٩٩م). وفيه لمحات عن فترة الحكم الثنائي (١٨٩٩-١٩٥٦م).

ويهدف الكتاب، بجانب ذلك، إلى تصحيح كثير من الأخطاء في المعلومات التاريخية عن تلك الأحداث. كما يحوي ذكرى لبعض أفذاذ الجعليين، الذين ساهموا في نهضة السودان الحديث.

وتشمل بعض الفصول مقتطفات وطرف أدبية وذكر مواقف مهمة في تاريخ الامة الإسلامية، وبعض ذكريات أتت في سياق الحديث.



خريطة السودان علي عهد المهدي

This book gives a brief record of significant incidents in the history of Aljaaliyoon, the largest community in central Sudan, during the nineteenth century (1821 – 1899), together with a brief record of the outstanding achievements of prominent members of that community in the making of modern Sudan. The book also gives a brief history and review of the colonial period of the Sudan up to its independence in 1st January 1956.


ISBN 9781986603232
90000 >
9 781986 603232

من تاريخِ السودان

الجَّعَلِيُّون

أحْداثٌ ومَنَاقِبٌ

د. عثمان السِّيد إبراهيم فرح

✵

الطبعة الثانية

الخرطوم – سبتمبر ٢٠٢١م

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر – السودان
٩٢٩,١٠٩٦٢٤ عثمان السيد إبراهيم فرح. ١٩٣٥
ع. س. ج
الجعلِيُّون – أحداث ومناقب / عثمان السيد إبراهيم فرح.
الخرطوم: ع. س. إبراهيم فرح. ٢٠١٨.
٢٢٥ : أبيض: ٢٤ سم.
ردمك ١-٢٢٣-١-٢-٩٩٩٤٢-٩٧٨ ISBN

١. الجعلِيُّون (قبيلة) – السودان.
٢. السودان – تراجم.
٣. السودان - تاريخ – العصر الحديث.

أ. العنوان

رقم الإيداع: ٢٠١٨/٢٢٩

Aljaaliyoon – Historic Incidents & Achievements

This book gives a brief record of significant incidents in the history of the largest community in central Sudan during the nineteenth century (1820–1897), together with abrief record of some outstanding achievements of prominent members of that community in the making of modern Sudan. The book also gives a brief history and review of the colonial period of the Sudan up to its independence in 1st January, 1956.

Second Edition (2021)
Published by the Author
تصميم الغلاف: أمجد عثمان السيد إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

صورة الغلاف



٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١

١. السفير عثمان عبد الله حامد موسي
٢. الدكتور عبد الله الطيب عبد الله
٣. السيد علي أحمد البرير
٤. ناظرعموم الجعليين إبراهيم بيه محمد فرح
٥. الناظر حاج محمد إبراهيم بيه محمد فرح
٦. الرئيس الدرديري محمد عثمان حاج خالد
٧. اللواء محي الدين أحمد عبد الله سعد

تصدير

يستعرض هذا الكتاب وقائع وأحداث مهمة في تاريخ قبائل الجعليين خلال القرن التاسع عشر (١٨٢١-١٨٩٩م) ومناقب لكثير منهم. وقد نشأت فكرة كتابته بهدف تصحيح كثير من المعلومات التاريخية الخاطئة عن أحداث مهمة في تاريخ الجعليين في تلك الحقبة، وبهدف تدوين معلومات لم يذكرها المؤرخون.

يبدأ الكتاب بتقديم نبذة عن نشأة قبائل الجعليين في السودان ضمن خضم هجرة القبائل العربية الى أواسط إفريقيا، بعد انتشار الإسلام في منطقة الشام الكبري وفي شمال إفريقيا والأندلس.

يحوي الفصل قبل الأخير من الكتاب موجزاً عن تاريخ السودان خلال فترة "الحكم الثنائي" لكي تكتمل الصورة لدى القراء، خاصة من الأجيال المعاصرة، الذين يتوقون إلى الإلمام بتاريخ تلك الحقبة حتى تاريخ الإستقلال في أول يناير ١٩٥٦م. ويحوى الفصل الأخير نبذاً عن عدد من أفذاذ الجعليين وجوانب من مساهماتهم التي مهدت لنهضة الدولة الحديثة لجمهورية السودان الديمقرطية.

وقد أدرج المؤلف في معظم الفصول وفي الهوامش قدراً كبيراً مما تيسر الحصول عليه من توثيق لتلك الوقائع وما اكتنفها من أحداث، بما في ذلك بعض الروايات الشفوية التى أخذت من مصادرها الأولية ممن حضروا أو شاركوا في بعضٍ من تلكم الأحداث. وتضمنت بعض الفصول مقتطفات مهمة من التاريخ الإسلامي وطرف أدبية وبعض ذكريات أتت في سياق الحديث.

الإهداء

إلى كل من يدعو إلى السلام،

ويجل القيم، ويدعو إلى مكارم الأخلاق،

ويعمل على الإصلاح بين الناس.

الفهرس

شكر وتقدير

أتقدم بوافر الشكر والتقدير إلى السيد محمد الحبيب بابكر محمد أحمد فرح (العمدة)، حفيد الأمير عبد الله ود سعد، علي ما قدمه لي من مادة تاريخية غزيرة، خاصة عن واقعة المتمة، وما سبقها من وقائع وأحداث خلال فترة المهدية، وعن أنساب من شاركوا فيها، ومن الروايات الشفوية الموثقة لديه.

وأزجي عظيم الشكر لأولئك الذين مدوا لي يد العون، بما قدموه من مقترحات جيدة ومهمة حول تبويب الفصول وترتيبها، وترتيب المصادر، والتوجيه بإدراج التوثيق الشفوي كما جاء من مصادره الأولية، وتصحيح عدد من الأخطاء النحوية والإملائية، وهم كل من الأستاذ الدكتور يوسف فضل حسن، عميد المؤرخين السُّودانيين، والدكتور حيدر وقيع الله الذي أضاف، بجانب ذلك، أضاءة لهذا الكتاب بتقديمه الوافي، والدكتور الأديب عبد الرحمن التوم زياد، الرئيس الأسبق للمجلس الطبي السوداني، والدكتور معتصم محمود متوكل، والأستاذ السيد عوض الكريم الدوش، أستاذ اللغة العربية بجامعة إفريقيا العالمية، والأستاذ الصادق إبراهيم الرزيقي، نقيب الصحفيين السودانيين، ورئيس تحرير صحيفة "الإنتباهة"، والأستاذ حمد النيل عبد القادر، النائب السابق لوكيل وزارة الطاقة والتعدين، والأستاذ محمد إبراهيم عمر خلف الله. وأزجى الشكر للسيد بكري شيخ إدريس عبد القادر، الذى أمدنى بكثير من المعلومات عن سلالة جده الأكبر، المك نمر. وأتقدم بالشكر للأستاذ مهدي عمر الحسن لعونه المقدر في طباعة هذا الكتاب. والشكر الجزيل موصول للكاتب القدير الأستاذ عصام الحاج عثمان لإشادته بهذا الكتاب وتعريف أعداد كبيرة من القراء عليه.

وأخيرا أتقدم بالشكر، لأسرتى، ولأسرة جدي الناظر إبراهيم بيه محمد فرح، على تشجيعهم المتواصل لإكمال هذا الكتاب وبخاصة أبنائي أحمد وأمجد وإبن أخي، عمر محمد السيد.

د. عثمان السِّيد إبراهيم فرح

إضاءة

يحوي هذا الكتاب ملامح مهمة من تاريخ السودان، كما يضئ لملامح من حياة قبيلة الجعليين بصفة أكثر خصوصا، وأهميتة لا تقتصر على ما أثاره من موضوعات فحسب، بل ولمؤلفه أيضا. فهو الدكتور عثمان السيد إبراهيم فرح، الذي ينحدر من إحدى الأسر العريقة التى أسهمت في الأحداث وأثرت فيها وتأثرت بها بشكل كبير ومباشر.

تغطي فصول الكتاب حقبة زمنية ممتدة ابتداء من الممالك المسيحية، ومرورا بالسلطنة الزرقاء، ثم العهد التركي المصري، ثم فترة الاستعمار البريطاني التى أعقبتها فترات الحكم الوطني للبلاد، حيث عكف المؤلف على عدد من المراجع التاريخية متابعاً ومنقحاً ومستقصياً عن تفاعلات ومساهمات الجعليين وتأثرهم وتأثيرهم في تلك الأحداث.

كما أبدى المؤلف اهتماماً كبيراً بأهم الأحداث التى ألقت بأثارها العميقة في حياة الجعليين، وبالأخص حملات الدفتردار الغاشمة، ثم "كتلة" المتمة حيث دارت رحى المعركتين ما بين أوائل القرن التاسع عشر وأواخره. وهما في الواقع أكبر حدثين زلزلا المنطقة وخاصة في جوانب الحياة الاجتماعية. ولهذا نجد أن المؤلف قد حرص حرصاً كبيراً على التتبع الدقيق لهذين الحدثين، والتوثيق لما أحاط بهما من تفاصيل أغفلتها الروايات التاريخية.

وقد أنفق المؤلف، د. عثمان السيد، في تقصي وتوثيق الاحداث زمناً طويلاً، حيث انخرط دونما استعجال في التمحيص ودراسة روايات الأحداث التى تجمعت له من مصادر شتى، خاصة وأن المؤلف قد عايش عدداً من الأجيال، ودخل في حوارات معمقة مع من كانوا يروون تلك الأحداث، سواء ممن حضرها أو شارك فيها. وقد

أتيحت له الفرصة ليقارن بين الروايات الشفوية التى استمع إليها، فأخذ ما أطمان إليه قلبه منها، ثم عرضه على عدد من العارفين والمهتمين، واستمع إلى وجهات النظر التى قد تتفق أو لا تتفق مع ما تحقق له من رؤى.

نشأ المهندس د. عثمان السيد إبراهيم في أسرةٍ ساهم أقطابها عبر التاريخ في الأحداث، ولهذا فقد ظلت المرويات تشكل جزءً من ذاكرته منذ فترة الطفولة، ثم رافقه هذا الاهتمام حتى دخوله جامعة الخرطوم، عام ١٩٥٥م، قبيل نيل البلاد استقلالها من نير الاستعمار البريطاني، وحتى تخرجه من جامعة لندن، التى ابتعث اليها لتكملة تعليمه الجامعى في دراسة الهندسة. ولذلك تسنى له أن يحيط بكثير من المرويات وان يجمع في حله وترحاله الكثير من المعلومات والروايات النادرة التى لم تجد حظها من التوثيق. ولهذا سيطالع القارئ لهذا الكتاب معلومات تاريخية تنشر لأول مرة.

خاصة وأن المؤلف يعتبر أن جهده في طبع ونشر هذا الكتاب بمثابة شهادة وإبراء للذمة، لا يتيسر إلا بنشر ما توافر له معرفته من روايات توثق لأحداث، في تاريخ لمنطقة، تعرضت للإهمال والتجاهل، فانطوت أحداث مهمة وغاب أثرها، بالرغم من أنه لم يمض على وقوع آخرها سوى ما يزيد عن مئة عام بقليل. بل وإن عدداً من الذين يعيشون اليوم قد سمعوا كثيراً عن تفاصيل تلك الأحداث من أسلافهم الذين شارك بعضهم فيها، وشاهدها آخرون منهم، عاصروها وشهدوا عليها.

ولم يقتصر الكتاب على السرد والتوثيق الشفهي لأحداث التاريخ ووقائعه فحسب، بل يجد فيه القارئ نماذج حية وإضاءات مهمة لِسِيَرِ بعض من أفذاذ قبائل الجعليين الذين تركوا أثرهم باقتدار على المستوى القومي، ليس في الحدث السياسي فحسب ولكن في المجالات الأخرى، كالتعليم والفن والاقتصاد والأدب وعلوم الطب وغيرها.

وفي هذا السياق فلا بد أن نضم صوتنا إلى صوت البروفيسور والعلامة الدكتور يوسف فضل حسن، الذي ظل يدعو ويشجع أبناء هذا الجيل على التوثيق والكتابة عن مختلف

مناحي الحياة في بقاع السودان المختلفة، وخاصة من عاشوا أو يعيشون في البقاع التى شهدت الاحداث الكبرى، حيث يرى أن مثل هذه الجهود تصب في إطار التوثيق القومي، وترفد الجهود القادمة لإعادة كتابة التاريخ وتصحيح كثير من الأخطاء في كتب التاريخ التى بين أيدينا، وهذه هي الرغبة التى تدغدغ أحلام الكثيرين.

ولهذا فإن هذا الكتاب يكتسب نكهته ببمازجته الماتعة ما بين الوقائع التاريخية والأدبية والسياسية. فهو إضافة تستحق أن تطرح، وأن تجد مكانها بين القراءة، كما يمكن ان تجد حظها من الدراسة والنقد والإثراء من قبل المهتمين، وخاصة أن إهداء الكتاب قد جاء، من مؤلفه، كدعوة صادقة للمحبة والسلام. وهو يريد أن يقول أن التاريخ مهما طوى في صفحاته فلا بد أن يكون رسالة للمحبة والسلام، كما لا بد أن يكون عبرة للأجيال ودرساً يتخذون منه التدابير، ليقوموا بتطوير كل ما هو إيجابي، وتنميته لأبعد الحدود، وعمل اللازم لتفادي الأخطاء والحماقات التى عندما تقع يستغرق البرء منها زمناً ليس بالقصير.

وبهذا فنرجو أن تكون جهود المؤلف، الدكتور عثمان السيد إبراهيم، محفزاً للقراءة والكتابة لآخرين، فالتهنئة الحارة على صدور هذا السفر الذي ينتظره كثيرون.

د. حيدر وقيع الله

فبراير ٢٠١٨م

مقدمة

(أصدق التاريخ ما كتب
فى زمانه، وصدق فيه كاتبه
وصدقه معاصروه ــ فيما روى) - بابكر بدري

يحوي هذا الكتاب سرداً وتحليلاً لوقائع وأحداث مهمة في تاريخ قبائل الجعليين خلال فترة الحكم التركي للسودان وفترة المهدية (١٨٢١–١٨٩٨م). ويهدف بجانب ذلك إلى تصحيح كثير من المعلومات التاريخية الخاطئة عن تلك الأحداث المهمة والتى ورد ذكرها في عدد من الكتب التاريخية وفي عدد من المقالات. وقد جاء في كثير من تلك الكتابات افتراءات عن القبائل العربية المسلمة في السودان وبخاصة قبائل الجعليين، وهي قبيلة تمثل شريحة كبيرة من شرائح المجتمع السوداني إن لم تكن أكبرها.

وتتضمن بعض فصول الكتاب كثيراً من أسماء الأفراد، بغرض التوثيق. ويحوي بعضها ذكراً لأنساب عدد من القبائل العربية بالسودان، وسرداً لمعلومات تاريخية عامة قد تكون مفيدة لبعض القراء، لما فيها من ذكر لبعض أسلافهم، وتحوي بعض الفصول، كذلك، مقتطفات وطرف أدبية وبعض ذكريات أتت في سياق الحديث.

المراجع والتوثيق

كتب عدد من الكتاب عن الجعليين، وبخاصة عن وقائعهم خلال فترة الحكم التركي للسودان وخلال فترة حكم الخليفة عبد الله التعايشي، كتب كثير منهم من غير مرجعيات تاريخية موثقة، ومن غير فهم صحيح للمعتقدات الإسلامية والقيم ومكارم الأخلاق، التى أتمها النبي صلَّى عليه وسلم – لقوله "إنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأخْلاقِ[1]". وتلك القيم والمعتقدات الإسلامية كثيراً ما كانت هي المحرك المهم وراء كثير من تلك

[1] *مسند البزار عن أبي هريرة، وعن مالك في الموطأ "بُعِثْتُ لأتَمِّمَ حُسْنَ الأَخْلاق".*

الأحداث. بل يوجد في كثير من تلك الكتابات أقوال ملقاة على عواهنها من غير فكرٍ صائبٍ أو قدرٍ كافٍ من التّثَبُّت والتحليل. وسنبين بعضاً من ذلك في فصول هذ الكتاب، إستناداً إلى توثيقات عن بعض ممن حضروا تلك الأحداث، أو عن ثقاة رَوَوْها أو دَوَّنُوها عنهم، أو بالأخذ من مراجع موثوقة سنشير إليها في مواقعها.

وهنا تجدر الإشارة إلى مرجع مهم، وهو (كتاب "الجعليون" للأستاذين محمود محمد على نمر ومحمد سعيد معروف، الذى جمعت مادته عام ١٩٤٧م – ونشر في عام ١٩٨٤م)، والذى جاء في مقدمته إن الدكتور مكي شبيكة أستاذ التاريخ بكلية الآداب بالمدارس العليا بالخرطوم (سابقاً كلية غردون – والآن جامعة الخرطوم) – كلف، في عام ١٩٤٧م طلاباً متخصصين في مادة التاريخ، بالقيام بعمل ميداني وسط بعض القبائل السودانية الكبيرة، وكتابة تاريخ القبيلة وما جرى من أحداث فيه، وبعضا من حياتهم الاجتماعية وعاداتهم وآدابهم. وذلك من أفواه كبار السن المعروفين باهتمامهم بذلك، ومن الوثائق المحفوظة لديهم. ويقول الكاتبان – شرح لنا الأستاذ مكي أهمية هذا النمط في كتابة التاريخ، خاصة بالنسبة لتاريخ السودان، الذى لم يُدَوِّن منه إلا القليل، وفي الغالب دُوِّنَ من الأجانب. وذكر لنا أن كبار السن يموتون وهم يختزنون أحداثاً هي تاريخ وتراث لا يسجل، فيفقده الوطن، وأن هذه الطريقة في حفظ التاريخ ينبغي أن تستمر في كل الأجيال. وطلب منا أن نقتصر على تدوين ما يقال لنا دون أن نعلق عليه مباشرة. وأن نأتي بعدة روايات للحدث الواحد. وبعد ذلك يمكن لمن يطلع على ذلك أن يجعله مصدراً يقارن بين رواياته ويصل إلى الاستنتاج، أما الأحداث الثابتة والمتفق عليها فستسهم في كتابة تاريخ السودان.

ويقول الكاتبان: عشنا في بلاد الجعليين نحو شهر، ووجدنا كل العون. ودلَّنا المواطنون على كبار السن الذين يعرفون تاريخ القبيلة وأنسابها وفروعها، وبعضهم اشترك في أحداثها. ونقلنا عن الذين عاشوا في فترتي التركية والمهدية، منهم ثقاة حفظوا وسجلوا،

ومنهم من يتذكرون أحداثها، ومنهم من اشترك في موقعة "ابو طليح" ضد نجدة غردون باشا وأصيب برصاصة في ساقه". أنتهى (توثيق).

ومن أهم المصادر التى وثقت لتاريخ الجعليين ونكباتهم، بعد وفاة الإمام المهدي، كتاب (تاريخ وأصول القبائل العربية بالسودان) للشيخ الفحل الفكي الطاهر، الذى عاش مع والده الفقيه الفكي الطاهر في أمدرمان وشاهد، وهو يافع، الإمام المهدي، وعايش فترة حكم الخليفة عبد الله، وكان له من بعد ذلك لقاءات كثيرة مع عدد كبير ممن شاركوا في أحداث الثورة المهدية، ووثق عنهم أخباراً كثيرة وتفاصيل دقيقة(٢).

ولم تكن واقعة المتمة، في يوليو عام ١٨٩٧م وقبل سقوط دولة المهدية، أي في أخر فترة حكم الخليفة عبد الله التعايشي بحوالي عام ونصف، لم تكن الوقفة الأولي لمقاومة الجعليين لما حاق بهم من ظلمٍ، بل سبقتها عدة وقفات للذود عن العرض والنفس والمال.

د. عثمان السِّيد إبراهيم فرح

الخرطوم – إبريل ٢٠١٨م

(٢) *انظر ترجمة الشيخ الفحل الفكي الطاهر في الملاحق.*

الفصل الأول

قبائل الجَّعَلِيِّين

خلفية تاريخية

تذكر كثير من المؤلفات الحديثة أن الصلات بين العرب والسودان كانت قديمة ومن قبل ظهور الإسلام. ومنها تلك الهجرات من سواحل اليمن وعن طريق مضيق باب المندب إلى سواحل القرن الإفريقي ومن ثم إلى السودان.

ومن بعد ظهور الإسلام في الجزيرة العربية، وانتشاره الواسع، بدأت تتواتر على السودان هجرات كثير من القبائل العربية المسلمة على مدى بضع قرون، وعبر عدة منافذ، طلبا للمرعى أو التجارة أو الغزو. ووصل بعضها عن طريق شمال البحر الأحمر إلى شرق السودان. وأتي كثير منها من شمال إفريقيا إلى غرب السودان، على دفعات وخلال حقب طويلة من الزمان، وانحدر منها كثير من القبائل العربية الموجودة حاليا في تلك المناطق. وحيثما حلت تلك القبائل العربية تصاهرت مع الأهالي وتعايشت معهم سلميا ونشرت الإسلام وتعاليمه وسطهم.

وكان أول تلك الهجرات من الشمال عن طريق أرض النوبة، حيث دخلها واستقر فيها عرب مسلمون، بقيادة الصحابي الجليل عبد الله بن أبي سرح، عام ٣١هـ، بعد أن تصالحوا مع النوبة – أهل المنطقة – بموجب إتفاقية "البقط" الشهيرة.

ثم أتت هجرة الأمويين من الشرق عن طريق شمال البحر الأحمر. وكان ذلك بعد سقوط الدولة الأموية في الشام (٤١–١٣٢هـ/٦٦٢–٧٥٠م)، واستيلاء العباسيين علي الخلافة الإسلامية.

واصل الأمويون مسيرتهم جنوبا بمحاذاة جبال الحبشة، طلباً للمراعي الخصبة علي السهول المنبسطة، إذ لم يكن في طبعهم، مثل بعض القبائل العربية الأخرى، حب العيش في المناطق الجبلية. وفي نهاية مطافهم وصلوا جنوبي سنار واستقروا بجوار

مناطق الفونج. وفي بعض الروايات أنه، بعد حين، استنصرهم الفونج في صد غزوة من القبائل المجاورة، فناصروهم. وعند بداية المعركة فر العدو رعبا عند رؤيتهم، لأول مرة في حياتهم، الخيول وهي مما كانت تستخدمها القبائل العربية في حروباتهم. وكعادة القبائل العربية، والإسلامية بصفة خاصة، تصاهر الأمويون مع الفونج. ويقال إن تلك كانت بداية مملكة الفونج الإسلامية، التى صارت من بعد دولة سنار الإسلامية بزعامة عمارة دنقس. وكتب التاريخ ومواقع الشبكات الإلكترونية زاخرة بتفاصيل كثيرة ونظريات متعددة عن تاريخ مملكتي الفونج وسنار (١٥٠٤م إلى ١٨٢١م).

من هم الجعليون

"قال الشيخ السمرقندي في كتابه في المكتبة الخديوية بمصر، وقد نقلت منه باختصار: الجعليون هم أولاد العباس بلا شك .... الذين قدموا من الحجاز من سالف الأزمان ونزلوا في ارض السودان ...... وهم طوال القامة حسان الوجوه مشهورون بالشجاعة والمروءة وعزة النفس، منقسمون إلى قبائل شتى متفرقة في أنحاء البلاد، يفتخرون بحسبهم ونسبهم .... ولم يزالوا على ما كانت عليه العرب أيام عزها وسطوتها، من شدة الحمية والأنفة ومُضِيّ العزيمة والصبر على المكاره[٣]".

كانت البدايات المبكرة لتاريخ الجعليين عند نهاية العصر العباسي الأول في العراق ومع بداية القلاقل السياسية، وبالاخص ما عرف بثورة الزنج في جنوب العراق، حين سقطت الدولة العباسية بسقوط بغداد على أيدي التتار سنة ١٢٥٨م، عندما أقدم هولاكو خان التتري على نهب وحرق المدينة وقتل أغلب سكانها بما فيهم الخليفة وأبنائه.

وهاجر في تلك الفترة، من البصرة، واحد من بطون العباسيين، وهم أسلاف الجعليين. وعبروا من شمال البحر الأحمر، إلى مصر. ثم واصلوا سيرهم إلى أن استقروا في ليبيا أولاً، ومن بعدها زحفوا جنوبا، وفي جماعات متلاحقة، طلباً للمرعي الخصيب، لما

[٣] *كتاب (الجعليون – محمود محمد على نمر ومحمد سعيد معروف ١٩٤٧م – ص٩).*

تواتر لديهم من أنباء عن وجوده في أرض السودان. واستقرت تلك البطون من القبيلة في مناطق كردفان، خاصة منطقة بارا حيث توفي ودفن فيها جدهم "إبراهيم جعل"، ولا يزال معلم قبره فيها.

ومن بعد ذلك، وعبر بضعة أجيال، زحفت مجموعات من قبائل الجعليين شرقا واستقرت في منطقة جبل العرشكول، غربي النيل الأبيض في منطقة الدويم. ثم عبرت إلى مناطق ما بين النيلين، الأبيض والأزرق، حيث استقر فيها بعضهم، واتجه البعض الآخر شمالاً في هجرات متعاقبة إلى أن استقروا في مناطق نهر النيل، من شمال ملتقي النيلين، الأزرق والأبيض، وحتى حدود أرض النوبة، في المناطق المعروفة حالياً بأرض المناصير.

وفي نظر كثير من المؤرخين أن كل ذاك الحراك لقبائل الجعليين في أواسط وشمال السودان، بدأ في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي. ولم يكن ذلك الحراك قاصراً علي قبائل الجعليين وحدها، بل شمل بطون أخري من سلالة العرب القرشيين، كالشكرية، الذين استقر بعضهم جنوبي أعالي نهر الأتبرة (عطبرة) واستقر معظمهم بمناطق رفاعة والبطانة شرقي النيل الأزرق. وشمل الحراك العبدلاب، الذين استوطنوا مناطق الجيلي شرقي نهر النيل، والعركيين والمسلمية (أسلاف الشيخ ود بدر)، الذين استوطنوا مناطق العيلفون وأم ضوا بان، على مشارف الخرطوم بحري شرقي النيل الأزرق. وشمل الحراك كثيراً غيرهم.

وقد أدرجنا في الملحق الأخير لهذا الكتاب نبذة عن فروع قبيلة الجعليين ونسبهم مقتبسة من مقالة، فيها عرض جيد، للأستاذ محمد علي فائز في موقعه الإلكتروني، مع إدخال قليل من التصحيح، وفيها توافق مع كثير من المراجع، خاصة كتاب الشيخ الفحل الفكي الطاهر "تاريخ وأصول العرب بالسودان".

الإستقرار في منطقة شندي

من كل ذلك السياق التاريخي، يتبين أن كثيراً من بطون الجعليين انتشرت شمال الخرطوم، في المنطقة ما بين حجر العسل جنوبا وحتى منطقة المناصير، أي ما يعرف حاليا بولاية نهر النيل. وقد وصلوا إلى تلك المنطقة وهم يحملون معهم إرثهم الثقافي العربي ومعتقدهم الإسلامي الراسخ. واستقرت بطون القبيلة الرئيسية في مناطق شندي حيث وجدوا فيها الإرث التاريخي في عالم التجارة آنذاك. ومن كل ذلك الترحال، عندهم وعند أسلافهم من قبل، تأصلت فيهم روح وثابة للهجرة، إلى حيث ما ارتأوا أن في هجرتهم صلاحاً لهم أو بعداً عن عيشٍ كدر.

عُرِفَت مدينة شندي، التى تبعد حوالي مائة وثمانين كيلومتراً شمال الخرطوم، ولأكثر من ألفي سنة، عرفت هي والمناطق حولها منذ عصور غابرة بنشاطها التجاري بسبب موقعها الجغرافي، ما بين البحر الأحمر وغرب أفريقيا، وبين شمال وجنوب نهر النيل. حيث تلتقي فيها القوافل التجارية، ويتم تبادل السلع الواردة والصادرة، من وإلى تلك الأطراف المتباعدة.

وتميزت المنطقة بأراضِيها الزراعية الخصبة علي ضفتي نهر النيل، مما جعلها على مدى قرون كثيرة عاصمة لحضارات متعددة، ما زالت آثارها باقية في مدينة مروي القديمة (البجراوية)، حيث توجد منذ سبعة آلاف سنة أقدم أهرامات عرفتها البشرية. وكانت المنطقة مقر مملكة كوش وما تلاها من حضارات وممالك، وحتى بعد ظهور المسيح عليه السلام. وكثير من آثار تلك الحضارات القديمة ما زال باقياً، كما هو موثق في مصادر كثيرة عن تاريخ السودان القديم، في منطقة النقعة والمصورات، على بعد حوالي خمسة وثلاثين كيلومترا جنوب شرق مدينة شندي، وكذلك في البجراوية، وهي مروي القديمة، التى تبعد عن مدينة شندي بحوالي أربعين كيلو متراً شمالاً.

أهم وقائع الجعليين

كان للجعليين وقفات مشهودة منذ بداية القرن السادس عشر (١٥٠٤م)، من أهمها مشاركتهم القبائلَ العربية في أواسط السودان، بقيادة عبد الله جماع، في القضاء نهائياً على مملكة عَلَوَة الصَّلِيبِية، التى كانت عاصمتها سوبا بشرق النيل الأزرق، حتى أُطْلِقَ علي تلك الواقعة المثل المشهور – "خراب سوبا". وكان ذلك بعد معركة "أربجي" التى كُلِّلَت بالنصر لصالح القبائل العربية. وكان عبد الله جماع قد تَلَقَّي دعماً من العدة والعتاد من عمارة دنقس، ملك مملكة الفونج. وبعد قليل من تاريخ ذلك النصر، تجمعت فلول من المسيحيين في مناطق النوبة في شمال السودان بهدف التحرك جنوبا واستعادة مملكة عَلوَة، فتصدَّى لها الجعليون ودحروها في معركة ضارية، استشهد فيها الأخَوَان نافع ونفيع، ودفنا عند جبل البركل غربي كريمة، وقبورهم هنالك تشهد بذلك. ونافع هو جد النافعاب ومن سلالته عبد الرحمن النجومي أحد قادة المهدية الشهيرين والذى استشهد في معركة توشكي الشهيرة، والشيخ الفحل الفكي الطاهر مؤلف كتاب (تاريخ وأصول القبائل العربية بالسودان).

ونفيع هو جد النفيعاب، الذين من أسلافهم عبد الله ود سعد ود حاج سليمان ود فرح والأسرة التى انتهت إليها زعامة الجعليين في منتصف القرن التاسع عشر (حوالي عام ١٨٥٠م)، بعد زعامة المك بشير ود عقيد وابنيه عبد الله وحمد، ولا زالت باقية فيها حتى اليوم.

وكانت آخر وقائع الجعليين ومآسيهم الكبرى، "مذبحة المتمة"، وخراب قُرَى الجعليين في شمال السودان في سنة ١٨٩٧م، وهي التى كانت آخر سنة لدولة المهدية، في ظل حكم الخليفة عبد الله التعايشي. وقد سبق هذه الواقعة بستة وسبعين عاماً أحداث جسيمة كانت فيها مجازر بشعة حلت بقبائل الجعليين، ودمار شامل حل بعموم ديارهم. وقد رَوَي تفاصيل تلك الأحداث شهود عيان ممن حضروها ورَوَى عنهم ودوَّنَها بصدق

وأمانة مؤرخون كُثُرْ. ونحن هنا لسنا بصدد سرد دقائق تلك الأحداث المؤسفة، فكتب التاريخ زاخرة بتفاصيلها، وليس هنالك طائل وراء الدفاع عمن قَتَلَ أو قُتِلَ في تلك الأحداث، أو تجريمهم، امتثالاً لقوله تعالى: "تلك أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُون"، ولقول أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، عندما سُئِلَ عن حروب الفتنة الكبرى، قال "تلك دِمَاءٌ كفَّ اللهُ عنها يَدِي ولا أُرِيدُ أن أُلَطِّخَ بِهَا لِسَانِي".


سلاتين باشا
1857- 1932

إن معظم كتب التاريخ، التى بين أيدينا والتى تناولت تاريخ السودان خلال القرن التاسع عشر (١٨٢١-١٨٨٩م)، أغفلت أو غابت عنها حقائق كثيرة عن تلكم الأحداث ومسبباتها، وما ترتب عليها من مآسٍ وأحزان وتداعيات. وقد يعزى ذلك لعدم توثيق مؤلفي تلك الكتب لكثير من الأحداث من مصادرها الأولية، أوعدم التدقيق للتأكد من صحتها، خاصة وأن كثيراً منهم كانوا من الأجانب، وقد تناقلوا فيما بينهم كثيراً من الأخبار. ومن هذا المنطلق، ولأجل تعريف الأجيال المعاصرة بالتاريخ الصحيح، كان لا بد من إيضاح جوانب من تاريخ تلك الفترة، بالتوثيق عن أناس شاركوا في الأحداث، أو عاصروا بعضا ممن شاركوا فيها.

والجعليون ليسوا في حاجة لتزكية أنفسهم ولا يَزَكَّى على الله أحد، وفي سياق وقفاتهم التاريخية الشهيرة من هذا المنطلق، ولا سيما خلال عهد الخليفة عبد الله، يكفيهم ما قاله عنهم الأعداء قبل الأصدقاء، كقول سلاطين باشا في كتابه "السيف والنار[٤]" نصاً في ص ٢٦٨ من النسخة التى بين أيدينا:

[٤] *كتاب السيف والنار – سلاطين باشا.*

"كان الخليفة، في آن واحد، يكره ويخشى الجعليين الذين سكنوا على شاطئ النيل بين حجر العسل وبربر، لأن أولئك كانوا الذين مقتوا الفساد والرذائل الخبيثة، واحتفظوا بالأسر الفاضلة البعيدة عن الشهوات الشائنة، كما اعتاد أولئك الجعليون النظر إلى الأخلاق بصفتها حجر الزاوية في بناء الحياة القويمة، والركن الأساسي في تأسيس صحة قويمة". إنتهى.

وسلاطين باشا لم تكن له أي علاقة أو خصوصية مع الجعليين، بل كان بعد ما عينه الإنجليز مفتشاً عاماً للسودان في بداية الحكم الثنائي، كان بينه وبين ناظر عموم الجعليين الشيخ / إبراهيم حاج محمد فرح عداءً شديداً، لما كان من احتقار الناظر له، بسبب انسلاخه عن دينه مرتين. (كان سلاطين باشا مسيحياً، وبعد وقوعه أسيراً في بداية الدولة المهدية أعلن إسلامه، ثم انسلخ عن الإسلام بعد هروبه من الأسر في سنة ١٨٩٥م، وارتد إلى المسيحية – المؤلف).

ويمكن القول أن شتات الجعليين المحزن في مختلف أنحاء البلاد، شرقها وجنوبها وغربها، بعد تلكما الحقبتين المأساويتين من تاريخهم، كان له، من جانب آخر، أثر إيجابي على تاريخ السودان عامة. وذلك لأنهم حملوا معهم قدراً كبيراً من الإرث الثقافي العربي وتعاليم الدين الاسلامي، ومما اكتسبوه من معرفة بالتجارة. حملوا كل ذلك معهم، وحيثما استقروا أفادوا من خالطوا من السكان، ولم يتوانوْا عن مصاهرتم انطلاقاً من تمسكهم بالتعفف وصون النفس عن الرذيلة. وتلك خصال كانوا وما زالوا يحرصون عليها، كما يحرصون على الصدق في التعامل، والوقوف مع الحق ولو على أنفسهم. وهى أيضاً خصال تشبعوا بها ويعتقدون بصدق أنه بدونها لا يكتمل للمرء دين، ولا مروءة ولا شهامة، ولا وفاء، ناهيك عن الكرم والكرامة وصون العرض.

وحيثما حل الجعليون من بعد شتاتهم، تجد من بينهم العلماء والأئمة والقيادات الوطنية، في كبري المدن. وحين سقطت مدينة الأبيض في أيدي الثورة المهدية في بداية عهدها، كان بها حاج خالد محمد سليمان "كروم"، من سلالة الشيخ حامد أبو عصا. وكان وقتها

أثرى أثرياء السودان، فناصر الثورة المهدية بالغالى والنفيس. ونذكر علي سبيل المثال وليس الحصر، من أبناء المتمة فقط، من كان ولا يزال لنسلهم وجود حتى اليوم في كبريات مدن السودان، كالسناهير ومنهم الريح أبو الحسن في بورتسودان، والريح الفكي في عطبرة والريح الفكي الشيخ في الأبيض، والشيخ برير ود الحسين وآل "ابو ورقة" في شبشة والدويم غربي النيل الأبيض، وآل المقبول ومكرنجة في مدني، وفي كردفان، وآل النعيم مَهَيَّدْ في الكرمك، وآل كروم في مدن كثيرة منها سنجة، والجنينة وأم جمينة في تشاد، وآل عثمان عيسي والشيخ عيسي في كردفان والضعين، وغيرهم كثر في نيالا وواو وجوبا ومدن أخري. وقد كان لهذا النزوح والاستقرار والتمازج، في مواطن جديدة، أثرٌ حميدٌ علي ترابط القبائل من أصقاع السودان المختلفة، بسبب ما يخلقه ذلك التمازج من تقدير واحترام بين الناس على مختلف قبائلهم، كما ذكرنا سابقاً عن أثر التصاهر بين القبائل.

ولم يقتصر هذا التمازج على الجعليين وحدهم، إذ كان هناك كثير ممن هاجروا من قبائل أخري إلى مناطق مختلفة في السودان، وساهموا في تنمية ونهضة تلك المناطق. ولكن الجعليين كانوا الأكثر عدداً والأكبر أثراً في هذا الترحال والتمازج، بسبب تفرقهم بعد ما أصابهم من نكبات كما ذُكِر آنفا.

يتناول الفصل التالي أهم الأحداث في تاريخ الجعليين في فترة الحكم التركي للسودان وبداياته الدامية، وما اكتنفه من أحداث مهمة، ثم تداعياته مع بداية الثورة المهدية.



خريطة السودان حين الإستقلال

(أول يناير 1956م)


تسلسل زعامة الجعليين
مملكة الفونج
ممالك الجعليين العمومية (الخرطوم - مروي) والخصوصية (السبلوقة - عطبرة) – من حوالى ١٠٠٠ م
ملوك السعداب (شندي) – ١٦ ملكا حكموا ٢٣٥ عاما
أولهم المك سعد أبو دبوس – حوالي عام ١٥٨٧ م
آخر ملوك السعداب الخمسة: المك عبد السلام ود الفحل وبعده أخوه المك إدريس فابنه المك سعد
المك نمر
بن محمد بن نمر بن عبد السلام
(شندى)
المك المساعد
بن المك سعد بن المك إدريس (المتمة)
عهد الحكم التركي
١٨٢٢ – ١٨٨١م
حكم المسلماب
المك بشير حمد ود عقيد وولديه عبد الله وحمد (المتمة ١٨٢٣ ١٨٣٨)
حكم النفيعاب منذ حوالي ١٨٣٩م - فرح محمد حمراي (المتمة)
حاج سليمان ود فرح (المتمة) - نهاية الحكم التركي - وبداية المهدية
حاج محمد ود حاج سليمان ود فرح (المتمة)
نهاية الحكم التركي - وبداية المهدية
عهد المهدية
١٨٨١ -١٨٩٨م
الأمير حاج علي ود سعد ود فرح (المتمة) – الحكم التركي
الأمير عبد الله ود سعد ود فرح (المتمة)
المهدية ١٨٨٥ – ١٨٩٧م
فترة الحكم الثنائي
١٨٩٨ – ١٩٥٥م
إبراهيم بيك حاج محمد حاج سليمان (المتمة)
ناظر عموم الجعليين ١٨٩٨ – ١٩٢٦م
نهاية المهدية - وبداية الحكم الثنائي
حاج محمد إبراهيم بيك حاج محمد حاج سليمان
(المتمة) ١٩٣٢ – ١٩٥٩م
خلال عهد الاستقلال
إبراهيم حاج محمد إبراهيم بيك (المتمة)
١٩٦٠ – ٢٠١٩م
صلاح إبراهيم حاج محمد
٢٠٢٠م
إعداد د. عثمان السيد إبراهيم
المصادر الرئيسية: الفحل الفكي الطاهر، تاريخ وأصول العرب في السودان — يوسف فضل، العرب والسودان -
أحمد كاتب الشونة، تاريخ ملوك السودان – تاريخ منطقة الجعليين قبل الحكم الثنائي – وكذلك كتب كل من:
James Bruce, McMichael, Burckhardt & Robinson

الفصل الثاني

الجعليون والعهد التركي

(١٨٢٠ – ١٨٨٠م)

خلفية تاريخية

كانت الوقفة الغيورة الأولي لقبائل الجعليين في شندي (١٨٢٢م)، أي في السنة الثانية للغزو التركي للبلاد على عهد المك نمر، آخر ملوك السعداب، الذين بدأ حكمهم في ١٥٧٨م، وذلك بعد معركة كورتي (١٨٢٠م)، التى خاضها الشايقية ببسالة ضد ذلك الغزو، وحاربوا فيها بمهارة شديدة وتمرس بالسيوف والحراب والدرق، على غرار أساليب الفروسية المتعارفة، بينما كان الجيش الغازي مسلحاً بالأسلحة النارية الفتاكة. وما كان حظهم من تلك المعركة غير المتكافئة إلا مصرع كثير من القتلي وإصابة أعداد كبيرة من الجرحى وحرق مدينة كورتي بكاملها. وبعد تلك المعركة تصالح الشايقية مع الجيش الغازي وانخرطوا معه في غزو أعالى السودان.

ومما يذكر عن القيم في صيانة العرض والأخلاق [٥]، أنه بعد شهر من واقعة كورتي (١٨٢٠م) وأحداثها البشعة من قتل وحرق للمدينة، نشب صدام آخر مع الشايقية على الضفة الشرقية من النهر، بالقرب من جبل الدَّقَر، وكلمة الدَّقَر تعني في اللغة العامية في السودان الثعبان قوي الضربة عند اللدغ.

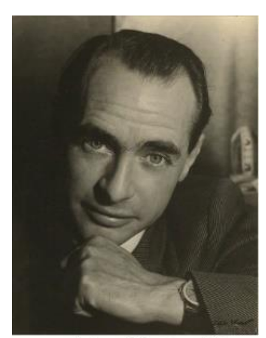
والفتاة التى قامت بإثارة حماسة مقاتلي الشايقية في هذه المرة، على عادتهم في بداية المعركة، كما فعلت مهيرة بنت عبود في بداية معركة كورتي، كانت تدعى صفية. وهي بنت لاحد زعماء الشايقية البارزين، فوقعت في الاسر بعد المعركة. إلا أن اسماعيل باشا أمر بأن تُغْسَل وتُعَطَّر وتُعاد لوالدها. ويصف لنا المؤرخ "وادنجتون" تلك الحادثة

---

[٥] *كتاب "النيل الأزرق" – ألان مورهيد/أبو الريش.*

فيقول: (وبمجرد أن رأى جميل الزعيم كريمته تعاد إليه معززة مكرمة، سألها في شيء من القلق: كل هذا، ولكن خبريني هل لا تزالين على بكارتك؟) فأكدت له ان أحداً لم يمسها بسوء. وعندما تحقق من صحة قولها، انسحب برجاله وأقسم أن لا يقاتل رجلا صان له عرضه، وابقى على عفة كريمته ... وكان لهذا الحدث الصغير صدى طيباً في كلا المعسكرين.

مرجع تاريخي مهم



الان مورهيد - كاتب ومؤرخ
1983-1910

ومن الكتب الجيدة التى أشارت إلى مراجع مهمة لتلك الحقبة التاريخية، كتاب "النيل الأزرق" لمؤلفه المؤرخ "ألان مورهيد". وهو كتاب عن أهم الرحلات للتعرف على منابع النيل الأزرق في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر (١٧٦٨-١٧٧٣م). وقد استمد كاتبه مرجعيته التاريخية والمهمة من مصادر معروفة وموثوقة، مما وفر على مؤلف هذا الكتاب عناء زيارة مواقع تلك المصادر. وقد كتب مورهيد كتاب "النيل الأزرق" بأسلوب قصصي ممتع. وحَوَى الكتاب أخباراً كثير مما جرى من أحداث مهمة ومثيرة في أثيوبيا والسودان ومصر، خلال نصف قرن من الزمان (١٧٦٨- ١٨٢١م).



جيمز بروس
1730-1794

ومن أهم الأحداث التى رواها مورهيد وأكثرها غرابة، القصة المثيرة لوصول منابع الأزرق بواسطة الرحالة البريطاني الشهير سير جيمس بروس (١٧٣٠-١٧٩٤م)، كما جاء في مذكراته ومؤلفاته الموجودة في المتاحف والمكتبات البريطانية. ووصف مورهيد حملة بريطانيا غريبة الأطوار في أثيوبيا إبان عهد الإمبراطور ثيودور، وسرد قصة غزو نابليون لمصر، ثم ظهور محمد على باشا وتفاصيل استيلائه على مصر، والغزو التركي للسودان وما تخلله من أحداث.

ومن الأحداث المثيرة التى ذكرها مورهيد في كتابه أيضا، أن الإنجليز أتووا بالأفيال من الهند، وشيدوا خطاً للسكة حديد، ووصلوا إلى مقر الإمبراطور ثيودور في أعالي أثيوبيا، وفكوا أسر سفيرهم "رسام" من الحبس.

واستقى مورهيد معلوماته عن أوروبيين – مؤرخين وعلماء آثار وعلماء طبيعة ومستكشفين أمثال دينو وكايو الفرنسيين الشهيرين – ممن رافقوا الحملات العسكرية منذ عهد نابليون، وعن آخرين قَدِمُوا إلى مجاهل شمال شرق القارة الإفريقية في عهود سابقة وتركوا وراءهم وثائق تاريخية معروفة.

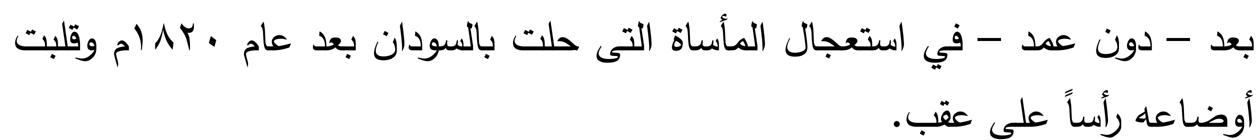
وقد ترجم الدكتور إبراهيم عباس أبو الريش[٦] (١٩٠٨–١٩٧٤م) كتاب "النيل الأزرق" إلى اللغة العربية بأسلوب ممتع، مما جعل بعض الأدباء يعدونه إضافة جيدة لروائع الأدب العربي – خلافاً لترجمة سابقة كانت ركيكة كما ذكر المترجم في مقدمته للكتاب.



د. إبراهيم عباس أبو الريش
1908- 1974م

الرحالة السويسري بيركهارت

وهنا ندلف إلى منعطف تاريخي مهم وهو ذكر الشاب الرحالة السويسري، "جوهان لودفك بيركهارت"، الذى زار شندي وسوقها العامر عام ١٨١٤م والتقى بالمك نمر، ثم ساهم فيما



بعد – دون عمد – في استعجال المأساة التى حلت بالسودان بعد عام ١٨٢٠م وقلبت أوضاعه رأساً على عقب.

ونورد في هذا السياق لمحة من (كتاب النيل الأزرق – مورهيد/أبو الريش)، عن الحياة الغريبة والطريفة لهذا الرحالة الفذ، متوقد الذكاء والذى كان مُوْفَدَاً وهو في السادسة والعشرين من عمره من قبل جماعة في بريطانيا أطلقت على نفسها اسم "جمعية تنمية اكتشاف أواسط افريقيا" للتعرف على طبيعة النيل في السودان.

---

(٦) *أنظر الملحق الثاني لنبذة عن الدكتور إبراهيم عباس أبو الريش*

وصل بيركهات شندي في قافلة تجارية في عام ١٨١٤م، مسمياً نفسه الشيخ إبراهيم بن عبد الله، وراكباً حماراً ولابساً زيَّاً تركياً، ومدعيا أنه يبحث عن أخٍ له اختفى في مجاهل النيل. وكان يتحدث اللغة العربية بطلاقة، وكان قد تعلمها خلال ثلاث سنوات قضاها من قبل في سوريا حيث وصل هنالك متنكراً في زي تاجر هندي مسلم. وكان قد تمكن من اللغة العربية، لدرجة أنه ترجم إليها من اللغة الإنجليزية قصة "روبنسون كروزو" الشهيرة، وكان يعد حجة في الشريعة الإسلامية.



جوهان لودفك بيركهارت
1817 - 1784

كان بيركهارت يرسل بالبريد للجمعية في بريطانيا تقاريرَ متواترة حوت صوراً متكاملة عن الجزء الشمالى للسودان. "ولم يترك كبيرة ولا صغيرة عن نواحي الحياة المختلفة على ضفاف النيل إلا وضمنها في مذكراته". وقد ترك لجامعة كمبردج، بعد وفاته، ثمانية وثلاثين مجلداً حوت مخطوطاته عن الشرق الأوسط.

وصل بيركهات شندي وقضى بها شهراً ثم ارتحل عنها، عن طريق القوافل إلى سواكن، ومن هنالك بالبحر إلى الجزيرة العربية، ومن ثم للقاهرة حيث مات مصاباً بالدوسنتاريا، في عام ١٨١٧م، وهو في الثانية والثلاثين من عمره!!

وكتب مورهيد في خاتمة حديثه عن هذا الرحالة، أن بيركهارت التقى في الجزيرة العربية بمحمد على باشا، الذى كان مهتماً بتوسيع مملكته بحثاً عن الذهب والرقيق والريش والعاج. "ولا شك في أنه أخبره بكل ما رأى في السودان. وهكذا ودون تعمد – قد استعجل المأساة وهي في طريقها".

وما يهمنا، في سياق هذا الكتاب من رحلة بيركهارت الاستكشافية الطويلة، ما علمه عن مملكة سنار الإسلامية من تدهور بسبب الفتن والثورات ضد حكمٍ كان متداعياً، وأنها

كانت في النزع الأخير من عمرها، ولم تعد قادرة على صد أي غزوٍ من الخارج. وعن اندهاشه ان "تظل بلاد كشندي، محافظةً على كيانها طيلة هذه المدة (لأكثر من ألف عام) دون تعرض لغزوٍ من الخارج .... وأن كل هذه المنطقة الممتدة من بربر وحتى ملتقي النيلين – الأبيض والأزرق – يمكن إخضاعها بقوة لا تتعدى ثلاثمائة من الأوروبيين.

وبذلك فقد بات السودان مفتوحاً على مصراعيه لأي متطفل من الخارج، مثل بيت متداعٍ مات أهله وتركوه للصوص والأوباش، ليتخذوه وكراً لهم".

المك نمر

هو بن محمد بن نمر بن عبد السلام بن الفحل، وعمه (ابن عم أبيه) المك المساعد بن سعد بن إدريس بن الفحل. وكان المك نمر أول من شق زعامة السعداب على الجعليين في فترة ما قبل الغزو التركي، وذلك بمنازعته عمِّه المك المساعد على الزعامة.

ووثق المؤرخان لذلك التاريخ وكتبوا[٧]: "حدثنا الشيخ الفحل بن محمد ود أحمد من أهالي كبوشية ويبلغ من العمر حوالي التسعين عاماً وكان شيخاً وعمدة سابقاً. قال: أنه بعد حدوث نزاعات بين المك سعد (والد المك المساعد) وبين محمد نمر، (ابن عمه ووالد المك نمر)، وكانت عاصمتهم شندي، "فاخذ سعد، ابن المك نمر، أحمد وكذلك نمر وادريس ابني أخيه المك محمد، وكانوا صغاراً وخرج بهم من شندي إلى الدامر، محل المجاذيب، فمكثوا شهورا، ثم توجهوا إلى الشكرية (الدَّرِيشاب)، وتزوج منهم نمر (وهو المك نمر بن محمد بن نمر) ومكثوا سبع سنوات. ثم رجعوا إلى شندي بالخيل والرجال، ونزلوا في (العاوليب). والتقى المساعد ونمر في العاوليب وتقاتلوا واجتمع الصالحون من أهل الدامر فأصلحوا بينهما ... فكانت المنطقة من حجر العسل جنوباً إلى أتبرا شمالاً يحكمها من الشرق نمر ومن الغرب المساعد". انتهى.

---

[٧] *كتاب الجعليون – محمود على نمر ومحمد سعيد معروف – ص ١٢-١٣ – رواية الشيخ الفحل*

ثم دارت حرب بين الجميعاب والمك المساعد انتهت بهزيمته وقَتْلِ ابنيه. وتحرك، أثر ذلك، المك نمر وخاض معركة ضارية ضد الجميعاب انتقاماً لأبناء عمِّه، المك المساعد، انتهت بهزيمةِ الجميعاب وانسحابِهم. واستولى المك نمر على متاعهم، وأسرَ عوائَلَهم ثم ردها إليهم، على عادة القبائل المسلمة بعدم استباحة أموال وأعراض بعضها بعضا، فضلاً عن صلات القربى والمصاهرة التى كانت كثيراً ما تربط بينهم.

والمصاهرة بين أسر زعماء القبائل، هي من الوسائل التى اتبعها كثير من الملوك والزعماء والحكام في كل العصور، لتقوية نفوذهم والحفاظ على

ملكهم ووحدتهم والتعايش المسالم مع القبائل الأخرى. وقد ارتبطت الاسرة الحاكمة في شندي بعلاقة مصاهرة قوية مع الجميعاب والشكرية والعبدلاب. وكان بعض ملوك الجعليين أمهاتهم من العبدلاب. فالملك إدريس ود الفحل، الجد الأكبر للمك نمر[٨]، كانت امه هي "ستنا" بنت محمد الامين ود عجيب ملك العبدلاب، وهي التى ورد ذكرها باسم "الملكة ستنا" في مذكرات الرحالة بروس في شندي عام ١٧٧٢م.

وبعد حربه مع الجميعاب في مطلع سنة ١٨٢١م، رجع المك نمر إلى شندي ليجد رسول إسماعيل باشا في انتظاره!!

مدينة شندي على عهد المك نمر

وذكر بيركهارت أنه "كان لمدينة شندي مكّها – أو ملكها الخاص – كغيرها من تلك المقاطعات الصغيرة التى كانت منتشرة على طوال النهر، وكان الجالس على العرش في سنة ١٨١٤م يدعى المك نمر، وأنه كان رجلاً مهاباً، طويل القامة متكبراً ومحافظاً في عاداته. وكان يرتدي في المواكب الرسمية فروأ من جلد النمر (وهو علامة الملك في وادي النيل) ... وكان نمر رجلاً متعلماً بالنسبة لبيئته ووسطه، فهو يقرأ ويكتب ويحفظ

---

[٨] كتاب (الجعليون) – محمود محمد على نمر ومحمد سعيد معروف ١٩٤٧م – ص ٩.

القرآن عن ظهر قلب، إلا أنه قد عُرِفَ بقسوته الشديدة. وعلى أي حال فقد قدّر له أن يكون آخر ملوك "شندي"، هو وعمه المساعد.

حادثة إسماعيل باشا[٩]

لم يقاوم الملك نمر والجعليون في البداية الجيش الغازي، تقديراً لعدم تكافؤ السلاح والعتاد، وحقناً للدماء، وأملاً في التعايش السلمي مع الغزاة، خاصة وأن مآسي معركة كورتي التى تناقلت أخبارها إلى مسامعهم لم تكن ببعيد، ولما يمضي عليها أكثر من سنة. وقد سار على هذا النهج من المهادنة، مع الجيش الغازي آنذاك، معظم القبائل في معظم أنحاء السودان، خاصة القبائل المحيطة بمناطق الشايقية والتى أضعفتها وأنهكتها الغارات الكثيرة فيما بينها.

سار الملك نمر إلى مدينة بربر في مارس ١٨٢١م، وبادر بتقديم فروض الولاء والطاعة قبل وصول إسماعيل باشا إلى شندي، إلا أن إسماعيل كان في منتهى الحماقة والغطرسة عندما أساء إليه، بأن استقبله في شيء من التعالى والتعاظم. فقد كان يعتقد أن شندي كان عليها أن تستسلم قبل ذلك بكثير.

وعندما وصل الجيش الغازي شندي لم تكن الحرب خياراً للملك نمر، بدليل أنه هو وبعض أفراد حاشيته صحبوا إسماعيل باشا إلى سنار، التى استسلمت بدورها، ثم عادوا معه بعد ذلك حتى وصلوا شندي في ديسمبر من عام ١٨٢٢م. وكان السبب المباشر لحادثة مقتل إسماعيل باشا، الذى كان، بشهادة أبيه وإجماع المؤرخين، شاباً غراً متهوراً في الخامسة والعشرين من عمره، أنه أهان الملك نمر واتهمه، في غطرسة شديدة، بإثارة القلاقل. وأراد أن يعاقبه بمطالِبَ تعجيزية. وقد اتفق كل المؤرخين على صحة ذلك، مع اختلاف في قدر المطالب التى تمثلت في دفع غرامة فادحة قدرها (ألف أوقية ذهباً، وألفي عبدٍ ذكراً، وأربعة آلاف من النساء والأطفال، وألف جملٍ، ومثل ذلك من البقر

---

[٩] *كتاب "النيل الأزرق" – ألان مورهيد/أبو الريش – ص ٢٩٦).*

والضأن) على أن تدفع خلال يومين، كما ورد في عدد من المصادر. وكانت تلك إهانة بالغة للمك نمر وسط قومه، الذين كانوا لا يعرفون عنه وعن أنفسهم غير العزة والأنفة والكبرياء.وكانت ردة الفعل عنيفة جداً، إذ قرر المك نمر محاربة إسماعيل باشا انتقاماً لكرامته وكرامة قومه. فباغت جنودُه، ليلاً، جزءاً من جيش إسماعيل وأتباعه على شاطئ النهر في مراكبهم (الدهبيات) فانهزم الجند وتفرقوا، وحاصر المك المساعد باقي الجنود الذين كانوا معسكرين بمدينة المتمة إلى أن قضى عليهم. وحاصر جنودُ المك نمر في شندي، في الليلة ذاتها، الدار التى كان يقيم فيها إسماعيل باشا وحرسه الخاص حفلاً ساهراً. فبادر الحرس بإطلاق النار من الأسطح والنوافذ، فما كان من أتباع المك النمر إلا أن أَحْرَقَوا عليهم الدار لعدم تكافؤ السلاح، واحترق حرس الباشا بداخلها، ومات إسماعيل اختناقاً بسبب تكدس الحراس عليه لحمايته من النار. وقد أجهز أتباع المك نمر في الحال على كل من حاول الفرار. هذه هي الوقائع التى أجمع عليها المؤرخون[١٠]. وقد أورد هذا الخبر رواةٌ ثقاة، نقلوها عن أسلافهم ممن حضروا الواقعة ودَوَّنُوها، أمثال جد الفكي يوسف أحمد، إمام جامع شندي القديمة – وسيأتي ذكره. ومن المصادر المهمة لهذه الواقعة كتاب (تاريخ أصول العرب بالسودان – الفحل الفكي الطاهر).

وقد جاء في بعض المراجع أن إسماعيل باشا سَبَقَ تحذيره من أن محاولة من هذا القبيل قد تحدث [١١]، ولكنه لم يصدق أن المك نمر سيتجرأ. ولم يكن نمر بالشخص الوحيد الذى اسْتُفِزَّ لدرجة الانتقام. وعلي حد تعبير رتشارد هل [١٢]، الذى كتب:"فقد

---

[١٠] *كتاب (النيل الأزرق) – مورهيد/أبو الريش، وكتاب (الجعليون) – محمد سعيد معروف ومحمود محمد على نمر –١٩٤٧م*

[١١] *كتاب "النيل الأزرق" – ألان مورهيد/أبو الريش – ص ٣٠٥.*

[١٢] *رتشارد لسلي هل (١٩٠١- ١٩٦٦م) "أرشيف السودان"، ومصر في السودان (١٨٢٠-١٨٨١م).*

انتشرت أعمال القتل والانتقام في جميع أرجاء النيل. وأينما وجدت حامية تركية، ثار عليها السودانيون وحملوا السلاح. إلا أنها كانت محاولات يائسة منهم، إذ ليس من المعقول أن ينتصروا في وجه الأسلحة النارية، أو أن ينجوا من غضب محمد علي باشا لاغتيال ابنه. وكان هذا هو فعلٌ أخَّرَ عهدَ السودان بالحرّية، ونهايةَ عزلته المتفككة".

وفي هذا الوقت كانت كراهية الشعب للأتراك قد بلغت قمتها، وأخذت تنتشر على طول مجرى النيل، وأصبح اسمهم نذيراً للشؤم والوحشية والقسوة. ولم يكن إسماعيل في الواقع، قد أنجز شيئاً يستحق الذكر، غير إشاعة الرعب والاضطراب في جميع أرجاء السودان. وكما قال المؤرخ الدكتور جعفر ميرغني "أن حادثة المك نمر كانت الشرارة التى انطلقت منها الحركة الوطنية في جميع أنحاء السودان".

حملات الدفتردا الغاشمة وتراجع المك نمر

كانت ردة فعل محمد علي باشا على، مقتل الجعليين إبنه إسماعيل باشا، تجريد حملة انتقامية قامت بمجازر بشعة، في أواسط السودان، مستخدمة الأسلحة النارية الفتاكة. وقد أجمع المؤرخون على القول: "أما المجزرة، فقد عُهِدَ بتنفيذها إلى محمد بك الدفتردار، صهر محمد علي باشا، الذى كان في ذاك الوقت يعيث خراباً في ربوع كردفان إلى أن بلغ الأبيض. ثم أغار على كل مناطق الجعليين المأهولة بين ملتقي النيلين والدامر وبربر، ونهبها ومثَّل بأهلها. ثم أشعل النيران فيها، تاركاً في كل مكان يحل به ما تقشعر منه الأبدان من الفظائع والتمثيل البشع بالقتلي مما نَنْأَى عن ذكر تفاصيله. ولكيلا يموت الضحايا سريعاً من أثر النزيف، كان يُصَبُّ القَطِرَان المغلي على جروحهم[١٣].

---

[١٣] *كتاب "النيل الأزرق" – ألان مورهيد/أبو الريش.*

"ومن بربر فرق الدفتردار جيشه ثلاثة فرق – فرقة بالبر الغربي، وفرقة بالشرق، وفرقة بالبحر (نهر النيل). فما وجد إنساناً إلا قتله بالرصاص، وهدم المساجد، حتى مسجد الشيخ المجذوب الأول بالدامر، وأمر بحرق جميع البيوت حتى وصل إلى المتمة، وكان قد تخلف بها عواجيز وضعفاء ولجأوا إلى الشيخ الريح ولد سنهوري في المسجد فأمر بإحراقهم داخل المسجد. وفي قرى السعداب بمنطقة الهوبجى، أَحْرَقَ الدفتردار أهلها وأَلْقَيَ بَجُثَثِهَم في نهر النيل. ووجد في غابة "أم حراحر" أطفالاً ونساء عواجيز أمر بإغراقهم مكتوفي الأيدي في النهر. ووجد في قبة الشيخ خليل الصادري بعض أناس فأخرجهم وضربهم بالرصاص".

قَدّرَ بعض المؤرخين عدَدً القتلى في السودان إثر حملات الدفتردار الدموية الانتقامية بالأسلحة النارية الفتاكة، التى استمرت لمدة سنتين، قدروهم بحوالي خمسين ألفاً، فيهم وسط قبائل الجعليين وحدهم، أكثر من ثلاثين ألفاً، ماتوا رميا بالرصاص وبالحرق والغرق، بدءاً من منطقة ملتقي النيلين ومرورا بقرى السعداب بمنطقة الهوبجى.

كان نصيب المتمة وحدها حوالي ثلاثة آلاف قتيل في يوم واحد. وأُحْرِقَتْ مدينة شندي وصارت خاوية على عروشها لفترة طويلة، وشندي مدينة عريقة، كانت ملتقى طرق قارية تجارية ويرجع تاريخها إلى أكثر من ألف عام، وكانت معقل ملوك الجعليين لعدة أجيال، وكان آخر الملك فيها للسعداب الذين دامت دولتهم لأكثر من مائتي عام. وهكذا خيَّم ظلام الموت على ربوع وادي النيل.

ولما اقترب الدفتردار من شندي تراجع المك نمر بعائلته وجيشه إلى أرض البطانة، بسبب عدم تكافؤ السلاح والعتاد. وما إن علم به الدفتردار إلا وأخذ يجدُّ في أثره.

معارك أرض البطانة ومعركة النصوب[١٤]

[١٤] *تاريخ وأصول العرب بالسودان – الفحل الفكي الطاهر.*

تراجع الملك عن شندي ليستعيد قوي جيشه (وتجمع معه كثير من الجعليين والقبائل المجاورة)، وظل لفترة طويلة يناوش ويجالد جيوش الدفتردار، التى كانت تتعقبه في أرض البطانة وشرق السودان، هو وعمه الملك المساعد، الذى مات فيما بعد ودُفِنَ في منطقة "ود بتول" في أعالى نهر عطبرة.

خاض الملك نمر وجيشه عدة معارك ضد الدفتردار، كان آخرها معركة ضارية في "النصوب"[١٥] في أواسط أرض البطانة، مات فيها أحد ابنائه وأخواه، وعدد كبير من أتباعه، منهم محمد ود سعد فارس السعداب الشهير. ونذكر أن الملك نمر كان قد غنم قدراً من الأسلحة النارية بعد واقعة شندي، وكاد أن يقضي على جيش الدفتردار في معركة "النصوب" لولا القتال الشرس من بعض سناجك الشايقية الذين كانوا قد انخرطوا مع الجيش الغازي بعد معركة كورتي وحاربوا معه. والدليل على ذلك أن جيش الدفتردار تراجع مثقلا بالجراح بعد هذه المعركة التى قتل فيها قائده، حسن أفندي باشا. ولم ير الدفتردار بعد ذلك طائلا من ملاحقة الملك نمر و,توجه الملك نمر بعد معركة النصوب نحو الحبشة حيث انتهى به المطاف.

"اقتفاء آثار الملوك[١٦]

"أما الملك نمر ولد الأرباب محمد، فتبعه الباشا حسن أفندي، الذى تعهد لأفندينا (محمد علي باشا) أن يحضر رأس الملك نمر. وارتحل الملك نمر ومن معه وأقام في "أبو دليق"

حتى نزل الخريف، ففتح حسن باشا طريق "البنية".

ولما بلغ الملك نمر خبره، ارتحل إلى "ولد سمرة". وهناك جمع رجاله وقال: إن المنهزم كل يوم يضعف والطارد كل يوم يقوى ولابد من حرب ضروس تقمع هؤلاء الكلاب.

---

(١٥) المصادر: (الجعليون، نمر ومعروف ١٩٤٧م)، و(تاريخ وأصول العرب بالسودان – الفحل الفكي الطاهر، و(الملك نمر والحركة الوطنية الأولي، جعفر ميرغني).

(١٦) تاريخ وأصول العرب بالسودان – الفحل الفكي الطاهر.

والرأي أن يقوم ثلث الجيش، بقيادة الأمير عمر ابني، ويأخذ كل العائلات ويتوجه إلى "الحجر". أما أنا والجيش نتوجه إلى "النصوب"، وهنالك الواقعة الفاصلة. وتوجهوا إلى النصوب. فأدركهم الجيش والتقوا بحرب ضروس، قَتَلَ فيها المكُ نمر حسنَ أفندي باشا قائد جيش الأتراك، الذى تزحزح للهروب لولا ثبات سناجك الشايقية. وبعد الانفصال في الليل أرسل الشيخ محمد ولد عبود (أخو مهيرةِ الغناية – المُغَنِّيَة)، إلى المك نمر أحد اخوانه، وقال له بلغ المك نمر السلام، وقل له لست تقاتل في وطنك. وأن هؤلاء الناس أوعدونا يقدمونا لك. فإن قتلتنا قطعت يدك وإن قتلناك ضربنا القبيلة، وإن قلوبهم امتلأت رعبا، وبعد هذا لا يتبعوا. فبعد دفن الجنائز، رتب خيلك والدرقة (المقاتلين) وسافر فلا أحد يلحقك. ولك عهد الله، إن لحقوا بك أن نموت معك سوياً. فدفن الجنائز، وكان عدد القتلي ستة آلاف رجل. وضرب نحاسه وسافر. وكان قال للرسول: "قول للشيخ محمد ولد عبود والله إياك ابن العم .. وأعطاه سيفاً كان في يده يقال له "أبو بقيع"، ورأيته عند عبود بيك لما كان مأمور عربان بكسلا سنة ١٣١٨هـ. وأخبرني حامد باشا المك، أن هذا السيف عند السيد على الميرغني اليوم" إنتهى

ويواصل الشيخ الفحل في كتابه فيقول عن: "الملك المساعد ولد الملك سعد ولد الملك إدريس: إنه مر مع النيل حتى وصل مصب نهر الدندر، وهنالك سافر وجيوشه مع مياه الرهد فأدركهم أحد قواد الباشا، وما عرفت اسمه (هو حسن أفندي باشا – المؤلف). فالتقوا في حرب شديدة دامت من الصبح إلى الليل. فلما رأى الأتراك صبر الجعليين على الموت، ارتحلوا راجعين. وأصيب المك المساعد بجروح مات بسببها في "ود بتول" ، ومات الأرباب المنشتح (ابن المك المساعد) بحمى. وكان عدد القتلي في الواقعة سبعة آلاف. وأصبح البلد خراباً مدة عشر سنوات وتشتت الجعليون في البلاد".

مقاومة المك نمر للجيش التركي

كان المك نمر من أكبر المناوئين للحكم التركي، ولو قدر له أن ينتصر في معركة "النصوب" ما كان لأحد أن يتنبأ بما كان سيؤول إليه مسار تاريخ السودان. إذ ربما تحالف وثار معه عدد كبير من القبائل السودانية وقضوا على الغزو التركي، أو لربما آلت الأحوال إلى أسوأ من ذلك بكثير إذ أن محمد على باشا كان، على الأرجح، سيرسل جيشا أكبر عدة وعتاداً لاسترداد السودان، وهو الطاغية الجبار الذى لم يعرف من قبل أي هزيمة في تاريخ حكمه الدموي الطويل.

بقي المك نمر حتى نهاية عمره في الحبشة. وكان له فيها حروب كثيرة ضد بعض سرايا الأتراك في الحدود الحبشية، وضد كتائب من الأحباش والشفتة، وهم جماعات اللصوص المسلحين قطاع الطرق. وقد صالحه الأحباش لاحقاً، واقتطعوا له أرضا أسس فيها مدينة أسماها "المتمة"، أسوة بمتمة السودان المعروفة، والتى حلت بها كبري مجازر الدفتردار الدامية، وبني فيها أربعة مساجد وخمسة وعشرين ناراً للقرآن (خلاوي). وقد توفي المك نمر في مدينة المتمة الحبشية سنة ١٨٤٥م أي بعد أكثر من عشرين سنة منذ أن غادر شندي، وكان قد التقى به في سنة ١٨٤٤م الرحالة الإنجليزي "مانسفيلد باركنز" [١٧].

ولكن مقاومة اتباع المك نمر من الجعليين للحكم التركي لم تنتهي بوفاته. فقد قاد من بعده ابنه عمارة جيوشا من الحمران والارتيقا قاومت الحاميات التركية في شرق السودان بما عرف بمناوشات التاكا. وانتهت أخيرا تلك المقاومات باصدار الحكم التركي عفواً عن النمراب عام ١٨٥٦م. وقد عاد المك عمارة واستقر بمنطقة شمال شندي حيث تقلد زعامة تلك المنطقة.

وهنالك جوانب من تاريخ المك نمر خفيت عن بعض المؤرخين، أو أَخْفاها بَعْضُهم،

---

[١٧] *كتاب "النيل الأزرق" – ألان مورهيد/أبو الريش*

وشوهت أقلامٌ مُغْرَضَةٌ جوانب أخرى. ولكن الحق يطغى دوماً على الباطل وإن تقادم العهد، إذ قد تم مؤخراً التحقق من أحداث تلك الحقبة وما حوته من مقاومات المك نمر. وقد وثق ذلك توثيقاً جيداً المؤرخ الدكتور جعفر ميرغني، الذى نشر خلاصة أبحاثه في إحدى عشرة مقالة في صحيفة الرأي العام السودانية في عام ٢٠٠٢م، تحت عنوان "المك نمر والحركة الوطنية الأولى".

وكتب أحمد عبد الله حنقة في مقالة بعنوان (المك نمر – نموذج الكبرياء الوطني)، في صحيفة آخر لحظة بتاريخ ٦ مارس ٢٠١٣م: "وبالعودة إلى كتاب (المك نمر أول ثائر سوداني) نقول: إن المك نمر، وبعد ان استقر به المقام في المتمة الحبشية، صار يهاجم الحكم التركي وقواته في فازوغلي، الواقعة على النيل الازرق قريباً من حدود سنار. واستطاع ان يأسر المفتش التركى في تلك المنطقة مما أجبر (محمد على باشا) على أن يرسل في طلب التفاوض مع عمر بن المك نمر الذى كان يقود الحملات ضد الأتراك. ... وبذلك فإن الحديث عن هروب المك نمر استخذاءً هو مجرد هراءٍ وخطل".

ثم كتب حنقة "وبعد، أعتَقِدُ ان سيرة المك نمر تلح علينا في أمر إعادة قراءة وتدوين تاريخ السودان، الذى كُتِبَ أكثره بأيدى الأجانب، الذين، وإن كان بعضهم من الأكاديميين الشرفاء، إلا أن الأمر لا يخلو من الغرض، وخاصة في الكتابات التى صدرت بخصوص سيرة المك نمر النضالية، والتى سطرت كفاح ثائر يعد رائداً في الوقوف ضد المحتل الأجنبي، دفاعاً عن استقلال بلاده". انتهى.

وبنهاية حكم المك نمر والمك المساعد في سنة ١٨٢٢م، انتهى حكم السعداب، الذى بدأه المك إدريس أبو دبوس في حوالي عام ١٥٧٨م. وكلمة "مك" (وجمعها مكوك) هي اختصار لكلمة ملك، واستخدامها شائع في اللغة الدارجة عند قبائل الجعليين، التى تعيش في شمال السودان والتى تشمل بطونها الميرفاب والرباطاب والشايقية.

نهاية فترة الدفتردار

إستمر حكم الدفتردار الهمجي للسودان، واستمرت مجازره البربرية لأكثر من سنتين، ولمَّا لم يستلم جنوده رواتبهم لمدة ثمانية أشهر بدأوا بالبطش ونهب ممتلكات أموال المواطنين لكي يعيشوا. وفي ذاك الوقت ثار الرأي العام الأوروبي، فأمر محمد على باشا الدفتردار بالعودة إلى مصر سنة ١٨٢٤م، بغرض إنهاء الحكم العسكري وتأسيس نظامٍ إداريٍّ أقل همجية.

تداعيات واقعة شندي

إذا نظرنا نظرة تحليلية لحادثة إسماعيل باشا في شندي، نرى أن المك نمر كان بين خيارين أحلاهما مر. فكان إمَّا أن يرضخ لشروط الباشا وما يترتب على قبولها من ذل وخنا وعار، وفقا لقيمه وقيم القبيلة، ومما هو ليس مقبولا بأي حال لدى أي قبيلة عربية مسلمة وبخاصة قبائل الجعليين، وإمَّا أن يحارب ليذود عن العرض والنفس والمال. وهذا خيار المسلمين كما

ذكرنا آنفاً. وبما أن الحرب خدعة ومكيدة، ما كان للمك نمر إلا أن يستخدم ما ارتأى حينذاك من استراتيجية تمكنه من الانتصار التام على إسماعيل باشا وجيشِهِ الذى يفوق جيشَهُ بالأسلحة النارية والعدة والعتاد. وقد لا يري محلل عسكري غير ذلك في ظل تلكم الأوضاع، وفي ظل ما كان متاحاً للمك نمر من إمكانات عسكرية. وحتى لو قدر للمك نمر أن يتنبأ بالحملات الانتقامية التى ستأتي لاحقاً، كان على الأرجح ألا يتراجع عما فعل، لأنه في تقاليد ومعتقدات قومه لا خيار له إلا القتال ذوداً عن العرض، أو القبول بالذل والخنا والعار، وذلك ليس من أخلاقهم.

ويرى بعض المحللين أنه كان يمكن تفادي المأساة وتداعياتها لو أن المك نمر وأتباعه تريثوا قليلا ولجأوا إلى مهادنة إسماعيل باشا، ودحضوا ما كان ينتهبه من شائعات من بعض الوشاة الطامعين في زعامة الجعليين، وقولهم له "إن المك نمر لا يُؤْمَنُ له جانب، لأنه مهاب وسط قومه، ولا يعصون له أمراً". ومن جانب آخر كان يمكن

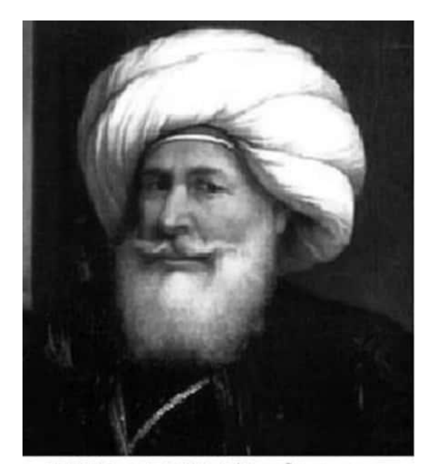
لإسماعيل باشا أن يستقل هذه الخاصية للمك نمر لصالحه، لولا افتقاره للحكمة بسبب صغر سنه وقلة تجربته، كما قال عنه والده أثناء زيارته للسودان.

زيارة محمد على باشا للسودان

وختاما لأحداث فترة الحكم التركي، نورد فيما يلي ما جاء من مصدر مهم عن تلك الحقبة من تاريخ السودان. "قال الفكى يوسف أحمد، إمام جامع شندي القديمة، وكان في التسعين من عمره، أن جده عثمان الذى حضر واقعة إسماعيل باشا، حدثه أنه "حضر محمد على باشا بعد ذلك إلى شندي، (ورأى محل حرق ابنه، ولم يتأثر، بل قال لبعض خواصه لا ألوم المك نمر في قتل ولدي، لأن ابني صغير وتصرف بالعنف والقوة مع أناس قريبي عهد بحرية مطلقة. وأرسل إلى الزعماء من الجعليين بقوز رجب وكساهم وقال لهم: إنى فتحت البلاد كي اكتسب خيراتها من صمغ وريش وسن فيل، ولَامَ لهم ما صنع الدفتردار من الفظائع[١٨] .... " انتهى.

زار محمد على باشا السودان في عام ١٨٣٩م بعد ثمانية عشر عاما من بداية الغزو التركي، وذلك بعد أن هدأت بلاد السودان وخضعت لحكمه.

ومحمد على باشا هو الذى ينسب إليه إنشاء مصر الحديثة، وقد كان أمياً، إلا أنه كان على قدر كبير من الدهاء والقسوة في تقوية مركزه وازاحة كل من هدد سلطته. وقد انتزع مصر من الدولة العثمانية بمكر شديد، وقد اتسم تاريخه بمذابح رهيبة، من أشهرها مذبحة القلعة التى قتل فيها معظم المماليك وقضى على سلطتهم. وأكبر شاهد على دموية حكمه ما لحق بالسودانيين في عهده من قتل وتعذيب ودمار مما تقشعر لذكره الأبدان. ولكنه، رغماً عن ذلك، كان يقرب إليه


محمد على باشا (1769- 1849)

---

[١٨] *كتاب "الجعليون" لمحمد سعيد معروف ومحمود محمد على نمر (١٩٤٧م) – ص ١٤.*

العلماء والمهندسين من الدول الغربية، ويستمع لآرائهم ويعمل بأفكارهم في تحقيق مشاريع نهضت بمصر حتى صارت في عهده أقوى دولة عربية. ولما حضر لزيارة السودان كان في معيته عدد من المهندسين وذوي الحرف، كالذين صمموا مصبغتين (سيأتى ذكرهما الملحق الثاني). وفي تلك الزيارة خلع رتبة البيكوية على حمزة ود موسي والد عبد الله بك حمزة، الذى كان له آنذاك ولوالده تجارة نشطة مع مصر، وخلع رتبة الباشوية كذلك على خشم الموس باشا الذى كان مواليا للأتراك منذ بداية الغزو التركي، وسلالته لاتزال باقية في قرية "قد الهبوب" شرق محطة "ود بانقا". ويقال إن كلاهما كانا ممن تولوا دفن أسماعيل باشا في شندي. وكلمة "ود" هي اختصار لكلمة ولد بمعني ابن، واستخدامها شائع في اللغة الدارجة عند معظم القبائل العربية التى تعيش في السودان، وكذلك كلمة "بت" بمعني بنت.

وقد خَرِفَ محمد علي باشا في السنوات العشرة الأخيرة من عمره ومات في سنة ١٨٤٧م.

أما الحقب التى تلت عهد محمد على باشا وسلالته التى حكمت مصر، فقد انتهت بنهاية الملكية بالإطاحة بالملك فاروق الأول ونفيه، بعد انتفاضة الجيش المصري في يوليو عام ١٩٥٢م، بقيادة مجموعة من الضباط وعلى رأسهم اللواء محمد نجيب وجمال عبد الناصر[١٩].

زعامة الجعليين بعد المك المساعد والمك نمر

يذكر الشيخ الفحل في كتابه[٢٠]:

"ومن مشاهير المسلماب المك البشير ولد عقيد"، وهو بشير بن مصطفي بن بدوي بن محمد العقيد بن موسي بن عبد الله بن علي بن عبد الدائم بن حمدبن موسي بن عيسي

---

[١٩] *أنظر الملاحق لمزيد من المعلومات عن محمد علي باشا وعن نهاية الملكية بمصر.*

[٢٠] *تاريخ وأصول العرب بالسودان – الفحل الفكي الطاهر*

بن مسلم (جد المسلماب) بن عرمان. "فإنه نشأ ذكيا وطلب القرآن على الفقيه أحمد أبوجدري وتعلم ما يلزم من علوم الدين.

ولما حلت حملة اسماعيل باشا، بأبي حمد، نهض للقاء الجيش، اتقاءً لشره، ملوك جعل الثلاثة: ملك الميرفاب وملوك السعداب. فقام بشير بصحبة الملوك وهنالك بعد لقاء الجيش عمل متعهداً باحضار الذبائح للحملة. ولما وصل شندي تخلف متعهداً مع بلوكات متأخرة بشندي، فحظي عند الضباط وأشادوا إلى الباشا اسماعيل بذكره، بينما يكتبون عن أخ المك نمر، إدريس، عدم الإخلاص. فأساء ذلك المك نمر وصمم على قتل المك بشير. فلما حضروا إلى شندي حصلت الإنقلابات وحرق أفندينا اسماعيل باشا، هرب مع بعض الضباط إلى أم الطيور، ومنها إلى دنقلا حيث التقوا بالدفتردار. وأقام بدنقلا حتى جدد الدفتردار الحملة. وكانت تلك هي السنوات العشرة السود. ولما رجع الدفتردار إلى مصر أخذ معه المك بشير ولد عقيد فكساه افندينا الخديوي ومنحه وظيفة مك وأعطاه فرمانا بالأمان لكل الجعليين فأصبح ملكاً نافذ الأمر غير أن البلاد خربانة والقبيلة مزعزعة فمكث طويلاً وتوفى" (١٩٣٧م). إنتهى.



الفحل الفكي الطاهر
1878-1975م

وفي عهد المك بشير، انتقلت عاصمة الجعليين إلى مدينة المتمة وعم الهدوء ديار الجعليين. وقد خلف المك بشير ولداه المك عبد الله إلي عام ١٨٥٠م، ثم المك حمد الذي توفي وكانت زعامته حوالي ستة أشهر. وحمد هو والد السيدة فاطمة بنت حمد، والتى سيأتى ذكرها لاحقاَ. وهي التى شاهدت "كتلة المتمة" وروت الكثير عنها، وعن زوجها الأول الأمير عبد الله ود سعد. وهي جدة المؤلف من زوجها الثاتي، إبراهيم بيه محمد فرح، الذي تقلد منصب ناظر عموم الجعليين في بداية الحكم الثنائي.

أما زعامة الجعليين فقد آلت، في حوالي عام ١٨٥٠م، بعد زعامة المك بشير ود عقيد وإبنيه، آلت إلى الحاج سليمان محمد فرح حمراي النفيعابي، وظلت في سلالته حتى اليوم.

ولم تشهد مناطق الجعليين أحداثا مهمة، بل ظلت تعاني من الجور والظلم والبطش كبقية أرجاء البلاد تحت وطأة الحكم التركي. واستمر الحال على تلك الوتيرة إلى حين اندلاع الثورة المهدية في عام ١٨٨٠م.

يتناول الكتاب في الفصل التالي انتفاضة معظم قبائل السودان ضد الحكم التركي واندلاع الثورة المهدية بقيادة الإمام محمد أحمد المهدي، ويستعرض ما كان للجعليين من مواقف مهمة في مناصرتها بهدف إسقاط الحكم التركي وإعادة استقلال السودان.



الفصل الثالث

الثورة المهدية ومشاركة الجعليين فيها

الثورة المهدية ضد الحكم التركي

خلافاً لما كان يطمح إليه المك نمر في البداية من تعايش مسالم مع الغزاة، وكأنما تنبأ به، ظل حكم "التركية" حكماً غاشماً، استمر في التنكيل بعموم أهل السودان لمدة ستين سنة إلى أن هبت الثورة المهدية في عام ١٨٨٠م بقيادة الإمام محمد أحمد المهدي، الذى التف حوله وناصره عدد كبير من قبائل السودان.



الإمام محمد أحمد المهدي
1846-1885

ودارت أحداث كثيرة ومعارك في مناطق مختلفة خاصة في غرب السودان، انتصر فيها أتباع المهدي والقبائل الثائرة ضد كتائب الأتراك. وتفاصيل تلك الأحداث متوافرة في كتب تاريخ السودان عامة وتاريخ الثورة المهدية بصفة خاصة.

بدأت مناهضة الحكم التركى في الجزيرة أبا، التى تقع علي الجانب الغربي من النيل الأبيض حيث ثار حشد كبير من أنصار المهدي على الكتيبة التركية التى كانت موجودة هنالك وقضوا عليها. ثم انتقل المهدي إلى جبل قدير وتزايدت الحشود المناصرة له وتعاظمت قواتها وشكلت جيشا كبيرا تمكن، بقيادة عبد الرحمن النجومي، من مهاجمة الجيش التركي المصري الضخم بقيادة هكس باشا في شيكان والقضاء عليه. ومن ثم سار جيش المهدي الى مدينة الأبيض وحاصرها حتى سقطت في أيديه. ومن بعد ذلك تحركت جحافل من أنصار المهدي، بقيادة النجومي، وحاصرت الخرطوم بمساندة القبائل من حولها بقيادة زعمائها وعلمائها أمثال الشيخ العبيد ود بدر من "أم ضواً بان" وغيرهم. وكان في الخرطوم آخر ما تبقى من كتائب الاتراك بقيادة غردون باشا الذى كان ينتظر حملة تأتي من مصر لإنقاذه. إلا أن تلك الحملة لم تصل أبداً بسبب تصدي الجعليين لمحاولاتها المتكررة للتقدم نحو الخرطوم.

كان شارلز جورج غوردن (١٨٣٣–١٨٨٥م) مهندسا وضابطا بالجيش البريطاني، وكان له تاريخ مثير في حروب بريطانيا في الصين. وقد عينه الخديوي إسماعيل باشا، بإيعاز من بريطانبا وتمهيدا لمداخلتها في الشأن السوداني، عينه حاكماَ علي مناطق أعالي النيل والإستوائية، خلفاَ لصمويل بيكر. وظل هنالك لمدة أربعة سنوات (١٨٧٢–١٨٧٦م) أخضع خلالها، إلى حد كبير، المنطقة للحكم التركي في السودان، ثم عاد إلى بريطانيا. وفي أوائل عام ١٨٨٤م، حين اشتدت قوة الثورة المهدية، تم تعيينه حاكما على السودان، واستطاع إجلاء ما يقارب ٢,٤٠٠ من النساء والأطفال والمرضى والمصابين وإرسالهم إلى مصر، قبيل اقتراب قوات المهدي من الخرطوم.



غردون باشا
1885-1833

نصرة الجعليين للثورة المهدية

كان للجعليين دور كبير في تثبيت دعائم الثورة المهدية، إذ أنه في بداية عام ١٨٨٥م أسقط الجعليون، (ومنهم الرباطاب والميرفاب وهم من أكْبَرِ بطون قبائل الجعليين)، أسقطوا أكْبَرَ مهددٍ للثورة المهدية آنذاك وهو حامية الأتراك التى بقيت بمدينة بربر. وكان ذلك الفتح بقيادة الشيخ محمد الخير، والأمير حاج علي ود سعد، والأمير علي ود حلو. وكانت أشدُّ أوامر القائد حاج علي ود سعد لجنوده الَّا يغنموا شيئاً بعد انجلاء المعركة إلا السلاح، وأن يَعُفُّوا عن لعاع الغنائم. وقد كان ذلك.

معركة "أبو طليح" وتعطيل حملة إنقاذ غردون باشا

في عام ١٨٨٥م ذاته، جاءت عن طريق دنقلا حملة من الكتائب البرية للجيش البريطاني المصري، باستعداد كبير من القوات المسلحة والدواب والمؤن في محاولة قوية لإنقاذ غردون باشا، الذى كان محاصراً في الخرطوم مع ما تبقي من قوات الجيش

التركي المصرى وآلاف الموظفين وأعضاء الجاليات والمواطنين الأجانب. فتصدت للحملة قبائل الجعليين وقبائل كنانة ودغيم والشيخاب في معركة "أبو طليح" الشهيرة شمال المتمة، وعطلت مسيرتها لمدة خمسة أيام. وقد استشهد في تلك المعركة عدد من القادة، وجرح حاج علي ود سعد وعبد الرحمن ود معروف، وكسرت رجل الشيخ عوض الكريم أبو نخيلة، الذى كان آنذاك في السادسة عشرة من عمره، وهو الذى ذكر تفاصيل كثيرة عن تلك المعركة[٢١]. واستشهد علي منصور، إبن أخى حاج علي ود سعد، وكان في الثانية عشر من عمره، واستشهد عدد كبير من أبناء المتمة وكلي وكثيرون من أبناء قري الجعليين.

تبعد أبو طليح حوالي ٤٠ كيلومتراً في الصحراء شمال مدينة المتمة، وبها آبار وافرة المياه مما جعل الوصول إليها ذا أهمية قصوى لكتائب الجيش الغازي لحاجته لمياه الشرب، خاصة بالنسبة لمئات الجمال، التى كانت تحمل المؤن والعتاد في مسيرة طويلة عبر الصحراء – وبعد المعركة تحركت كتيبة "طابور الصحراء" التابعة للجيش الغازي، تحركت مرة أخرى في محاولة يائسة للوصول إلى الخرطوم، ولكن كان عليها أولاً أن تقضي على المتمة التى حاولت دخولها مرتين ولم تفلح. وحاصر الجعليون الكتيبة في منطقة "أب رماد"، على بعد بضعة كيلومترات غربي المتمة، وقتلوا قائدها "ستيورات" رميا بمدفع أصاب خيمته[٢٢]. وبسبب ذلك تأخرت الكتيبة خمسة أيام (وفقا لكل المصادر). ثم تحركت بعد ذلك بواخر حربية نيلية في محاولة أخيرة للوصول إلى الخرطوم، فأطلق


حاج علي ود سعد

[٢١] *كتاب "الجعليون" لمحمد سعيد معروف ومحمود محمد على نمر، ١٩٤٧م.*

[٢٢] *المصدر السابق.*

الجعليون عليها النار وأغرقوا بعضاً منها وأعطبوا بعضاً آخر، ولم تصل الخرطوم إلا باخرتان، أعطب جيش المهدي إحداهما وانقلبت الثانية على أعقابها تحمل نبأ سقوط الخرطوم ومقتل غردون باشا(٢٣).

والجعليون، كما ذكرنا، هم أكثر من ذاقوا وبال الحكم التركي، وكان أمراً طبيعياً أن يناصروا الثورة المهدية بسبب ما أصابهم من ضيم خلال فترة ذلك الحكم، وأن يثبتوا أقدامها بإنهاء آخر مهدداتها. وقد تم كل ذلك بفضل الله تعالى ثم ببسالتهم وبما غنموه من سلاح بعد انتصارهم في معركة بربر. وتلك النصرة كانت بيعة صادقة للإمام المهدي، قبل أن يذهب زعماؤهم للقائه. وسماها المهدي "بيعة الرِّضى"، وبسببها قَرَّبَ إليه الأمير حاج علي ود سعد أيما قرب، وكان يلقبه بـ "جراب الرأي" لما عُرِفَ عنه من ذكاء فائق وما اشْتُهِرَ به من فكر ثاقب وحصافة ورأي صائب. ويذكرُ كثيراً من أخبار أحداث المتمة في فترة المهدية، وكثيراً من تاريخ حاج علي ود سعد، يذكر ذلك حفيدُه، من جهة والدته، الإداري السيد عبد الله علي جاد الله، أمد الله في أيامه، وهو الوزير سابقاً بالولاية الشمالية على عهد الرئيس نميري. ويذكر بعضاً من ذلك التاريخ أيضا الدكتور عمر الحاج سليمان، أمد الله في أيامه، والمهندس عمر عبد الله إبراهيم فرح رحمه الله، وهما حفيدا إبراهيم ود فرح ود سعد، شقيق حاج علي ود سعد وأخيه الأمير عبد الله ود سعد. كما يذكر أيضاً بعضاً منه المهندس إبراهيم عمر إبراهيم فرح، أمد الله في أيامه. وكل من هولاء وكذلك المؤلف وكثير من أبناء الجعليين، قد سمع كثير منهم تفاصيل تلك الأحداث من جدودهم الذين شاركوا فيها، وسمع آخرون منهم من آبائهم الذين تناقلت إليهم الأخبار عن الجدود. وكل الروايات تكاد تتطابق في مضمونها لقرب عهد المأساة وأثرها العميق في نفوس كثير منهم.

---

(٢٣) *كتاب الجعليون، لنمر ومعروف، وكتاب السيف والنار لسلاطين باشا، وعدد من المصادر الأخرى.*

أما الأمير عبد الله ود سعد (أخو حاج علي ود سعد) فكان قد قلده الإمام المهدي أمارة الجعليين وكان عامل (حاكم) المهدية على المتمة. وكان من أشد المتعصبين للثورة المهدية، وظل ذلك دأبه حتى بعد وفاة الإمام المهدي، وإلى حين ما قبل واقعة المتمة بأيام قلائل. وذلك رغماً عن مأساة وفاة أخيه حاج علي ود سعد، الذى قيل بإجماع كثيرين ممن عاصروه أنه مات مسموماً، وكان يُذْكَرْ فيما بعد بـ "شرَّاب عَقُود السِّم" في الأغنية المعروفة للفنان عبد الكريم الكابلي، وقد توفي وعمره ٤٧ عاما، ومرقده في مقابر الشهداء بأمدرمان.

وقد جاء في الخبر أنه أحس بإنحراف شديد، فلزم داره ثم توفي بعد أيام قليلة بعد أن ظهرت عليه أعراض التسمم[٢٤]". وفى روايات عن عدد من المعمَّرين الذين حضروا الحدث في أمدرمان، أن الخليفة استدعى حاج علي ود سعد بعد رجوعه (في أوائل عام ١٣٠٧هـ) من معركة توشكي بقيادة النجومي والتى مات فيها، شاهدوه خارجاً من مجلس الخليفة متغير الوجه من شدة الألم الذى كان يعتصر أحشاءه، "وذلك بعد أن قُدِّمَ له غذاء فيه مادة سمية، فما كاد يفرغ من تناوله حتى أحس بإنحراف شديد، فلزم داره ثم توفي بعد أيام قليلة بعد أن ظهرت عليه أعراض التسمم".

ومن المؤسف أن السلاح الذى غنمه الجعليون من بعد انتصارهم على الحامية التركية في مدينة بربر، حيث ظل يتواجد فيها أكبر عدد تبقي من القوات التركية في السودان بعد حامية الخرطوم، قد عاد هذا السلاح وبالاً عليهم وعلي زعمائهم، وكان جزاؤهم جزاء سِنِمَّار، إذ قتلوا فيما بعد بذات السلاح في واقعة المتمة كما سنبين لاحقاً. وهو ذات السلاح الذى صدوا به كتائب الحملة البريطانية المصرية بقيادة المشير ولسلي في "أبو طليح" وقضوا به على استيوارت في منطقة "أب رماد" غربي المتمة في يناير سنة ١٨٨٥م، كم ذكرنا آنفا.

---

[٢٤] *كتاب (السودان بين يدي غردون وكتشنر) –إبراهيم فوزي باشا – الجزء الثاني ص ٢١٥*

كانت حملة إنقاذ غردون باشا على درجة كبيرة من الأهمية لدرجة أن قائدها تم اختياره بواسطة وزير الحربية البريطانية نفسه، وهو المشير سير فايكاونت "قرانت جوزيف ولسلي[٢٥]" نائب القائد العام للجيش البريطاني آنذاك، ونائبه اللواء بولر، الذى قال عنه سير ونستون تشرشل أنه أفضل مثال للضابط البريطاني. وقد اشترك ولسلي في حروب السودان ضد عثمان دقنة. وقيل عن العميد سير "هربرت استيوارت"، قائد طابور الصحراء، إنه كان يتميز بشجاعة خارقة وإنه كان من أميز الضباط الإنجليز[٢٦].

اختزال سلطة الدولة المهدية

تلاحقت أحداث جسام في عام ١٨٨٥م كان أهمها موت الإمام المهدي في شهر مايو من تلك السنة ووصيته بإنتقال الحكم من بعده إلى الخليفة عبد الله التعايشي، الذى حكم البلاد مدة ثلاث عشرة سنة من بعد وفاة الإمام المهدي وحتى سقوط أمدرمان بعد موقعة كرري، شمال المدينة، في الثاني من سبتمبر عام ١٨٩٨م.

والخليفة هو عبد الله بن محمد التقي، الشهير بعبد الله ود تورشين. ولد بدار التعايشة في قرية أم دافوق على ضفة رهيد البردي بجنوب دارفور حوالي عام ١٨٤٦م وقتل في يوم الجمعة ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩م بأم دبيكرات، جنوب غرب مدينة كوستي بالنيل الأبيض. نشأ في طفولته بمسجد أجداده وقد كانوا حملة قرآن. وفد جدهم الأكبر محمد القطب الواوي، من تونس، ذات المركز العالي في الصوفية آنذاك، إلى دار التعايشة بدارفور. ثم رجع إلى تونس حيث توفي، ودفن بمدينة القيروان هناك. ولا يزال ضريحه مزاراً لمريديه.

يقول بعض من سمعوا عن أسلافهم الذين عاصروا تلك الأحداث إن الإمام المهدي مات مسموماً، ولكن على الأرجح أنه مات بسبب مرض التيفوس الذى كان متفشياً

---

[٢٥] *معركة أبو طليح – عصمت حسن زلفو.*

[٢٦] *(المصدر السابق).*

آنذاك في أمدرمان، وأنه كان قد أصيب بحمى شديدة لازمته عدة أيام قبل وفاته مما يرجح إصابته بذلك المرض الوبائي، وقد كانت أمدرمان آنذاك على درجة عالية من القذارة وتردي البيئة. وأعراض الموت بالسم تختلف عما وصف به حال الإمام المهدي قبيل حين وفاته. ولو كان هنالك أقل دلالة على ان المهدي مات مسموماً لكان سلاطين باشا أحرص الناس على ذكر ذلك في كتابه "السيف والنار" بسبب كراهيته الشديدة للمهدية وللخليفة عبد الله وما عاناه من عذاب تحت وطأته[٢٧].

كانت فترة حكم الخليفة عبد الله قاسِيةً بالنسبة لمعظم القبائل في السودان، وتضررت منه بصفة خاصة قبائل في غرب السودان، و"قبائل البحر" في أواسط وشمال السودان، وكانت قبائل الجعليين الأشد تضرراً. إذ إن فترةَ حكمه اتسمت بالبطش الشديد والتجريد من الأموال والحبس والقتل الفردي والجماعي بشتى الطرق لكل من عارض أو اتُّهِمَ بمعارضته. وقد بدأ بطش الخليفة عبد الله بآل المهدي أنفسهم بعد وفاة الإمام المهدي.

إن ظاهرة الانفراد بالسلطة ودحر المعارضين للحاكم ظاهرة تكررت في تاريخ البشرية عقب معظم الثورات التى كانت تندلع بسبب الظلم والقهر في المكان الأول، كما كان الحال في عهد الحكم التركي، ولكن سرعان ما تفقد مثل تلك الثورات بوصلتها، إن كان لديها أصلاً بوصلة، ثم تحيد عن مسارها بسبب عدم وجود رسالة واضحة أو سابق تجربة في حكم عادل ومتداول على نهج يرتضيه المجتمع بوجه عام، وسرعان ما تتحول فيما بعد بنهج مماثل لما كان عليه الحال قبل اندلاعها، ثم تُخْتَزَل السلطة في شخص واحد متجبر ليس له مقومات فكرية ولا سابق تجربة سياسية ولا سابق تجربة ولو في زعامة قبيلة أو عشيرة ناهيك عن حكم دولة، فتؤول إليه السلطة المطلقة في غفلة من الزمان وتلتف حوله وتعاونه بطانات من الانتهازيين والفاسدين والجهلة المنتفعين الذين لا يألون إلاً ولا ذمةً في قريب أو بعيد.

[٢٧] *كتاب (السيف والنار) سلاطـين باشا – ص ١٧٥.*

ولا بد من التأكيد، في هذا السياق، على أن اختزال السلطة وما يتبعه من سلبيات أمر لا يتعلق إثمه ولا عواقبه بقبيلة أو بطائفة بعينها وإنما يتعلق بفرد واحد جائر ومنفلت أو بمجموعة من أفراد فاسدين عَمَت السلطة بصائرَهم، إذ أن السلطة المختزلة أو المغتصبة، خاصة إذا ما صارت مطلقة، دائما ما تقود تدريجيا إلى الجور والفساد بكل أنواعه، ثم تستحوذ على العقول حتى يتراءى لأصحابها أن الفساد والبطش فيه إصلاح للناس. وكما قال "تشيرشل" في إحدى كلماته الشهيرة "السطلة تفسد والسلطة المطلقة تفسد مطلقاً".

وكثيراً ما يشتد القهر على الناس في عصور مختلفة حتى يصدق فيهم قول الشاعر العباسي أبي تمام:

< يُقْضَى على المرءِ في أَيَّام مِحْنَتِهِ .. حتّى يرى حسناً ما ليس بالحَسَنِ >

وقد جاء في مقدمة الفيلسوف ابن خلدون[٢٨] الذى يعد مؤسس علم الاجتماع الحديث، جاء فيها مقولته الراسخة: "إذا شارك السلطان الرعية في معاشها فسدت الرعية وفسد السلطان"، وذلك لأن المظلوم، إن سلبه السلطان أو أعوانه شيئا، لا يجد من ينصفه في مظلمته لأن السلطان سيكون الخصم والحكم معاً. فالمظلوم إما ان يضام أو أن يلجأ لمفسدة لرد الظلم عن نفسه فيفسد نفسه ويفسد السلطان (الحاكم).

ومن أقوال ابن خلدون الشهيرة إن "الفتن التى تتخفي وراء قناع الدين تجارة رائجة جداً في عصور التراجع الفكري للمجتمعات"، كما كان الحال في تلك الحقبة من تاريخ السودان وفي حقب تلت.

وأنواع ذلك الانفلات والجور والتخفي وراء قناع الدين أو وراء قناع النظريات ذات التعاليم أو الممارسات المخالفة للفطرة الإنسانية كثيرةٌ في التاريخ، قديمِهِ وحديثِهِ. وكثير من الثورات أعقبتها انفلاتات دموية أودت بحياة

[٢٨] *كتاب (مقدمة أبن خلدون) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (١٣٣٢-١٤٠٦م).*

عشرات الملايين من البشر كما حدث بعد الثورات الرومانية، وبعد الثورة الفرنسية وبعد الثورة البلشفية في روسيا وبعد الثورة النازية في ألمانيا.

من أبلغ التعابير عن حب السلطة والتسلط المثل الشايع عند أهل دارفور "سلطة للساق ولا مال للْخَنَّاق"، ويعني ذلك أن قليلا من السلطة أقوى تأثيرا من كثير من المال. والخناق هو أعلي الجلباب عند الرقبة.

وبحسب التوثيقات المؤكدة والحقائق المعروفة لدى كل من مسه ضر في أهله وماله، أن هنالك كثيرون ممن ظُلِموا وشُرِّدوا في عهد الخليفة عبد الله، مثل آل الإمام المهدي أنفسهم – مع قرب منزلة الخليفة منه. وهنالك من قُضِيَ عليهم من زعماء عدة قبائل في البلاد أمثَّال مادبو زعيم الرزيقات وعلي ود توم زعيم الكبابيش (قتلا بواسطة الخليفة في حياة المهدي)، وحاج علي ود سعد وأبو عنجة، وكثير من العلماء أمثال الشيخ عرمان والشيخ حمد النيل وغيرهما، وعدد كبير من الخلق على مدي ثلاث عشرة سنة، ومنهم ما يقدر بمائتي رجل من البطاحين أعدموا في يوم واحد شنقاً وقطعاً للرؤوس والأطراف بالسيوف علي رؤوس آلاف الأشهاد في مواكب شعبية حافلة في أمدرمان.

ولا نجد لعهد الخليفة عبد الله أثراً في شئون تنمية البلاد، ولا أثارة في شؤون الدين كالتي تركها الإمام المهدي متمثلة في "راتبٍ" لا تزال طائفة الأنصار تقرؤه في تعبدها. وقد ذكر أحد المؤرخين[٢٩] أن "راتب المهدي هو أوراد وأدعية بعضها من المسبعات التى تنسب لمولانا الإمام الدردير ومنها ما هو من الأدعية والتوسلات التى تنسب إلى حجة الإسلام الإمام الغزالي" ومعظمها مستخلص من الكتاب والسنة.

وكتب كبير الموثقين للتاريخ السوداني الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم: "لا يعيب المرء أن يُنْسب إلى أهله. وقبيلة التعايشة قبيلة عظيمة وهي من أقوى قبائل البقارة في دارفور ولها من شرف الجهاد والبذل في المهدية ما يرقى بها وبأبنائها إلى المجد والسؤدد.

---

[٢٩] كتاب *(السودان بين يدي وغردون وكتشنر) – إبراهيم فوزي باشا الجزء الثاني – ص ٧٨"*.

وبخلاف التعايشة وقبائل البقارة الأخرى لم يبد الخليفة ميل انتماء إلى جهة. وكانت وجهته في اختيار أعوانه وتوقع الدعم لنظامه من هذه العصبة. أما بطانته الخاصة في المناصب الكبرى فكانت من أقربائه".

وسيأتي في الفصل التالي ذكر وتداعيات واقعة المتمة (يوليو ١٨٩٧م) التى كانت أكبر وصمةَ خزيٍ في تاريخ حكم الخليفة عبد الله، لدرجة أن عدداً من المؤرخين كانوا يسمونها لبشاعتها بـ "مذبحة المتمة". وقد أفرد المؤرخ أ. د. محمد أبراهيم أبو شوك في كتابه (السودان السلطة والثروات – ٢٠٠٨م) فصلاً كاملاً تحت عنوان: "اختزال سيادة الدولة في السلطة وتداعياته في السودان – مذبحة المتمة نموذجاً".





خريطة توضيحية لمواقع أهم المعارك في السودان
(في القرن التاسع عشر)

الفصل الرابـع

واقعة المتمة ومشاهد منها

واقعة المتمة (يوم الكَتْلة)

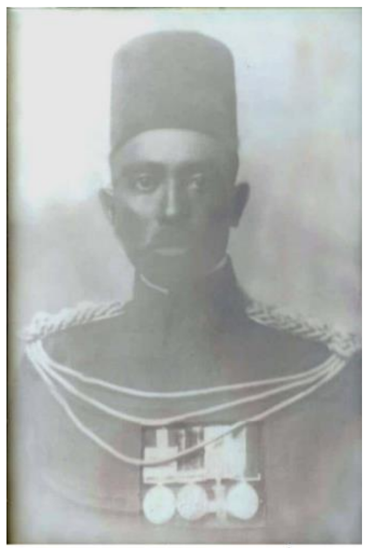
كانت تلك الواقعة في يوم صيف حارٍ، يوم الخميس الأول من يوليو من سنة ١٨٩٧م. قاوم الجعليون في ذلك اليوم، وفي معركة غير متكافئة العدد والعتاد. قاوموا جيشاً كبيراً، بدأ من واقع الأحداث أنه كان، قادة وجنودا، غير ملتزم بأهم تعاليم الإسلام وتقاليد العروبة في أدب الحروب والدفاع عن النفس وصون العرض. فأبيد من الجعليين أكثر من ألفين (ويقال قرابة الخمسة آلاف)[٣٠] من الرجال والنساء والأطفال في ضحي يوم واحد، ومقاتلوهم عزل إلا من السيوف ومن بضع بنادق عتيقة. وقد استحر القتل في ذلك اليوم في بشاعة تضاهى حملات الدفتردار الانتقامية في ديار الجعليين، وتشابه غزو التتار لبغداد في القرن السابع الهجري. وتذكر مصادر التاريخ الإسلامي أن التتار عند غزو بغداد قتلوا ألف ألف وثمانمائة ألف (مليون وثمانمائة ألف) من الرجال في أربعين يوما – ولم يذكروا شيئاً عن قتل النساء والأطفال والرضع. ولم يعرف في تلكما الواقعتين، على بشاعتهما، شيء عن انتهاك العروض.

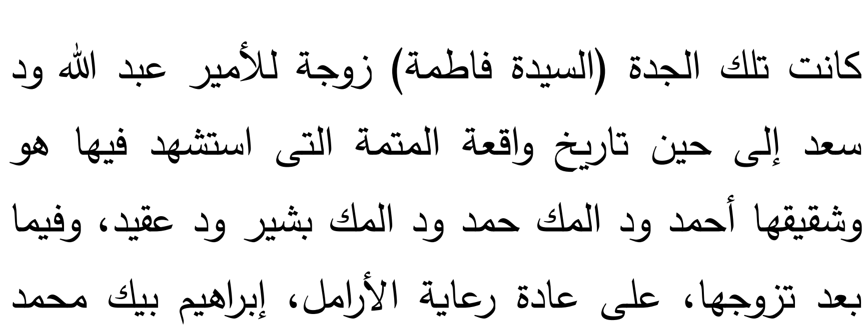
وكان الجعليون، كما ذكرنا عرضاً من قبل، قد سلموا أسلحتهم التى غنموها بعد دحرهم آخر حامية للأتراك في بربر، والتى صدوا بها، في معركة "أبو طليح"، كتائب الجيش البريطاني التى قدمت في محاولة لأنقاذ غردون باشا، وقضوا بها على استيوارت، قائد طابور الصحراء، غربي المتمة. لقد سلم الجعليون تلك الأسلحة على مضض للخليفة عبد الله، فكان أن قتلوا بها يوم مذبحة المتمة. وقد كانت بشاعة ذلك اليوم المشؤوم أكثر من أن توصف، وتوجد توثيقات أكيدة عن شخصيات يعرفها، ويشهد بما جاء فيها كثير ممن هم أحياء بيننا اليوم (٢٠١٨م).

---

[٤١] *تاريخ وأصول العرب بالسودان، الفحل الفكي الطاهر.*

وقد دون مؤلف هذا الكتاب، منذ أن كان طالباً في المدرسة الثانوية بمدرسة وادي سيدنا (١٩٥١–١٩٥٥م) وحتى السنة الثانية من جامعة الخرطوم التى غادرها في عام ١٩٥٧م مبتعثاً من وزارة التربية والتعليم لإكمال تعليمه العالى بجامعة لندن، دون تفاصيلَ كثيرةِ عن تلك الأحداث الفظيعة عن جدته لأبيه – السيدة فاطمة بنت المك حمد ود المك بشير ود عقيد.


أحمد عبد الله سعد
1890 - 1923م



كانت تلك الجدة (السيدة فاطمة) زوجة للأمير عبد الله ود سعد إلى حين تاريخ واقعة المتمة التى استشهد فيها هو وشقيقها أحمد ود المك حمد ود المك بشير ود عقيد، وفيما بعد تزوجها، على عادة رعاية الأرامل، إبراهيم بيك محمد فرح الذى آلت إليه زعامة الجعليين (١٨٩٨–١٩٢٦م)، وأنجب منها في عام ١٩١٠م (السِّيد) والد مؤلف هذا الكتاب.


الاميرلاي
محي الدين أحمد عبدالله سعد
1915 - 1999م

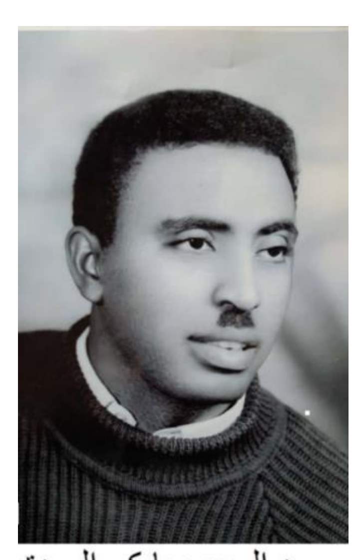
وكان شقيقها أحمد ود المك حمد ود بشير ود عقيد، من أشد فرسان الجعليين بأسا وإقداماً، وهو ابن عم جد السيد الزبير أحمد الحسن وزير المالية الأسبق في حكومة الإنقاذ. وكان له زوجة ثانية في بلدة كلي من اسرة أبو شميمة وكانت شاعرة مجيدة رثته هو والأمير عبد الله ود سعد، ومن قُتِلَ من أهلها في "مذبحة" المتمة. وقد أنجب من زوجته الأولي، التي اشتهرت بإسم "بت بخيتة"، أنجب منها فاطمة والدة سليمان وحسن "القنال" وسر الختم، وهي جدة الكاتب الصحفي محمد سر الختم وأخوه صلاح.

وكان للسيدة فاطمة بنت حمد من الأمير عبد الله ود سعد ثلاثة أبناء هم عبد الماجد الذي مات غرقا في نهر النيل قبل واقعة المتمة، واليوزباشي أحمد أفندي عبد الله (توفي

سنة١٩٢٣م بمدينة الأضية حيث كان مأمورا عليها)، وهو والد اللواء محي الدين أحمد عبد الله (١٩١٥–١٩٩٩م)، ومنصور الذي توفي عام ١٩٣٥م، ومن البنات اثنتان إحداهما بنت المنا، والثانية نفيسة والدة السيد محمد الحبيب بابكر محمد أحمد فرح (العمدة) وإخوته.

وقد توفيت السيدة فاطمة، عليها رحمة الله، وهي في كامل وعيها في عام ١٩٦١م عن عمر ناهز مائة عام.

كان آخر عهد المؤلف بجدته، السيدة فاطمة بنت حمد في سبتمبر عام ١٩٥٩م حينما قدم من لندن في العطلة الصيفية للجامعة، وهي الأيام نفسها التى توفي فيها عمه ناظر الجعليين حاج محمد إبراهيم بيك محمد فرح.



محمد الحبيب بابكر العمدة
1941م -

ومحمد الحبييب بابكر، أمد الله في ايامه، لديه كم هائل من التوثيق عن أحداث واقعة المتمة وعن تاريخ الجعليين وآدابهم وأشعارهم، وله كثير الشكر على مَدِّ المؤلف بقدرٍ وافرٍ من المعلومات الموثقة مما ورد ذكره في هذا الكتاب، خاصة بعض الروايات الشفوية التى دونها كتابة عن الجدة فاطمة بنت حمد، وبذات الكلمات الشفوية، التى كانت ترددها مراراً وبحزن عميق، مما جعلنا نحفظها عن ظهر قلب، نحن أحفادها وكثير من الذين عاصروها (أنظر الملحق الأول – الروايات الشفوية).

ومما لا يُنْسي أبداً ما كانت تكرره من القول، على مر السنين وبحرقة بالغة لم تنْتَهِ مرارتها أبداً، عن زوجها الأمير عبد الله ود سعد، من أن الخليفة عبد الله طلب منه مشافهة ما تقدم ذكره عن إخلاء المتمة من الرجال وترك النساء وراءهم لخدمة الجيش

ومشاركة من أراد من إفراده في عروضهن!!! مما حدا بالأمير عبد الله على مغادرة أمدرمان مغاضباً للخليفة والإسراع بالحضور للمتمة للاستعداد للذود عن العرض.

وقد وثق لهذه المعلومة، التى كانت مثار غضب الجعليين، كثير من المؤرخين نذكر من ذلك ما جاء في كتاب "الجعليون"[٣١] لمحمد سعيد معروف ومحمود محمد على نمر.

من رواية الخواض:

"حدثنا احمد أفندي الخواض بكبوشية، وكان اتصالنا به في يوم ٢٧ مايو سنة ١٩٤٧م، قال: طلب خليفة المهدي، عبد الله ود سعد وكان عامله على الجعليين فقال له انك تخابر الجيش الفاتح ......

(قال الراوي) ان الخليفة كان قد طلب من عبد الله ود سعد ان يخلي المتمة لجيش محمود عندما يصله وان يزوج الانصار من نساء الجعليين بان يطلق الرجل الذى يتزوج امرأتين واحدة منهن وكذلك يزوجوهم من البنات، وكان هذا سبب غضب الجعليين" إنتهى.

ثم يمضي المؤلفان بالقول في الصفحة التالية [٣١]:

"رواية الأرباب سعد:

وسمعنا كلاماً مشابهاً لكلام المذكور (الخواض) ومن كثيرين، وكان الكثيرون ايضا لا يخَطِّئُون عبد الله ود سعد. بينما كان يسخط عليه آخرون، واردنا ان نأخذ رواية ابنه، الارباب سعد ود عبد الله ود سعد، وهو تاجر متوسط الحال في شندي وقد تحمس الارباب دفاعاً عن والده وقال:

---

[٣١] *كتاب "الجعليون" – محمد سعيد معروف ومحمود محمد على نمر، ١٩٤٧م – ص ٣٠ وص ٣١.*

"لما هرب سلاطين وكانت بينه وبين الترك مكاتبات اتهم الخليفة ان الجعليين أنهم الذين هربوه لكرههم للمهدية في زمن الخليفة، وكان إبراهيم ود همزة من بربر هو الذى مهد الطريق لسلاطين .... ورجع عبد الله ود سعد الى المتمة ووصله من الخليفة جواب يتجاهل فيه سماعه بقتل الملازمية ويقول له حاضر إلىكم الامير محمود فآمر ان تعطوه كل ما يتمناه وتَرْحَلوا شرقا لتخلوا لهم البيوت بامتعتها واذا طلب جزءا من العروض لا مانع (يعني يزوجون له من نسائهم) فجمع عبد الله كبارات البلد والعلماء ومن ضمنهم اولاد الريح السناهير والشيخ ابراهيم سوار الذهب والشيخ ابو الحسن الشنقيطي واستقر رأيهم بان الانسان اذا مات دون ماله وعرضه فهو شهيد وقد اتخذ هذا القرار كفتوة دينية من العلماء فكتب عبدالله الى زعماء الجعليين واخبرهم بعصيانه للخليفة" إنتهى .

لم يكن الأمير عبد الله ود سعد وأكابر الجعليين ليقدموا على هذه المواجهة المميتة لولا استنكارهم لهذا الطلب المشين من الخليفة عبد الله. وما كان لامرأة بهذا القدر الجليل، مثل السيدة فاطمة بنت حمد، إلا أن تصدق القول وهي من شهدت ما شهدت من أهوال تلك المذبحة وكان الموت نصب عينيها، وجثث القتلي من النساء والشيوخ والأطفال والرضع الصغار وأشلاؤهم متناثرة في طرقات البلدة المنكوبة، وهي من كُلِمَتْ في زوجها وفُجِعَتْ في أخيها وكثيرٍ من أهلها. والحقيقة أن الخليفة عبد الله، على ذكائه المعروف ودهائه المعهود، كان نهباً للوشاة، وسنذكر عما قليل قصة واحد من الوشاة الإثنين اللَّذيْن كانت وشايتهما من أهم اسباب القطيعة بين الخليفة عبد الله والأمير عبد الله ود سعد، مما أفضى لاحقاً إلى كارثة المتمة. وكان أحد الواشِيَيْن غيوراً من الأمير عبد الله بسبب إحن قبلية قديمة وأطماع في زعامة قبيلة الجعليين. وكان أحدهما يدعي أحمد ود حمزة وهو من نقل للخليفة عبد الله، في ليلة واحدة وعلي جناح السرعة، نقل خبر اجتماع عبد الله ود سعد مع العلماء وكبراء أهل المتمة وإجماعهم على المقاومة دفاعاً عن العرض والمال، مما جعل الخليفة يستشيط غضباً ويكتب ويحث الأمير

محمود ود أحمد بالإسراع في مداهمة المتمة قبل أن يكتمل تجمع واستعداد الجعليين للمقاومة[٣٢]!!

وذكر الشيخ الفحل الفكي الطاهر في كتابه (تاريخ وأصول العرب بالسودان)، وهو ممن شاهدوا المهدي وعاصروا الخليفة عبد الله في أمدرمان، وكان وقتها صبياً في معية والده:

"لم تصمد المتمة أمام الجيش (جيش الأمير محمود ود أحمد) ضحوةً لأن العدد قليل، ولسرعة المدة ما تجمعت القبيلة، وقالوا لم يبرح موقف القتال رجل ولا صبي بالغ، وكان عدد المقتولين يقارب خمسة آلاف انسان. وبعد أن انتهت المعركة جاء الأمير محمود فوقف على القتلي وأمر بقطع رأس الأمير عبد الله ولد سعد ونزل البحر (النهر)، نزل في بيت عبد الله ود سعد الذى على شاطئ البحر في الجنينة – نخل المك بشير ود عقيد". ويواصل الشيخ الفحل القول: "طلب الأمير محمود ولد أحمد من بعض مرافقيه جمع النساء، وقال لهم اجتهدوا واجمعوا كل النسوان وإذا انسان ماسك امرأة أخبروه بأمري فإن رفض وأبى أضربوه بالرصاص، فتوجهوا لجمع النساء. فلما أحضر المعنيون بالنساء، أمر بعمل زريبة تحت النخل فجمع فيها عموم النساء بدون تخصيص وعمل للنساء مرتب حب يصرف لهن بواسطة عبد الرحمن الكرنكي، وتم حفظ النساء حتى جاءت المراكب فأشرف الكرنكي على ترحيلهن وأرسالهن إلى أمدرمان[٣٣]". انتهى.

ومن غرائب ما رُوِيَ يوم تلك الواقعة – والقول للشيخ الفحل: "أن عبد الرحمن الكرنكي، أحد رجال المتمة (وهو الجد الأكبر للكاتب الأديب عبد المحمود نور الدائم الكرنكي – المؤلف)، كان رجلاً واسع الرأي، له فكر وتدبير. فلما رأى أن الناس قتلوا (ويقال إنه

[٣٢] *كما جاء في خطاب الخليفة الذي ورد ذكره في كل المصادر. وفي كتاب "الجعليون" – محمد سعيد معروف ومحمود محمد على نمر، ١٩٤٧م، ص ٣٠.*

[٣٣] *تاريخ وأصول العرب بالسودان، الفحل الفكي الطاهر.*

كان أعزلاً من السلاح) ذهب إلى سجن عبد الله ولد سعد ووجد شعبة فعملها في رقبته، وربطها وربط يده اليمنى. فلما جاء الأنصار قال: يا أصحاب المهدي الحمد لله ربنا خلصني من الكافر عبد الله ولد سعد بمجيئكم، فأخذوه وشعبته وذهبوا به إلى الأمير محمود فقال لهم فكوه، وأحضره أمامه.... وبعد حوار وجيز قَبِل قصته وجعله أميناً على الأسرى – وكان ذلك لطفا من الله، إذ كان له الفضل في حسن تدبير أمر الأسرى من النساء والأطفال". انتهى.

وقد أخبر المؤلِّفَ أحدُ أحفاد الكرنكى أن جده الأكبر، عبد الرحمن، قد ساهم، بعد سقوط دولة المهدية، في عودة نساء الجعليين من امدرمان إلي المتمة وانفق ماله في سبيل ذلك.

كان الأمير محمود ود أحمد من أقرباء الخليفة عبد الله. ويقول في ذلك المؤرخ السوداني الكبير الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم: "وإذا اختار الخليفة أمراءه وعماله الكبار من أقربائه وقبيلته فإننا لا نحسب ذلك جرماً لأنه وضع الولاية حيث اطمأن إلى الولاء والثقة، والحكام يفعلون ذلك عامة ويعتمدون على العصبة سواء كانت قبلية أو أسرية أو عقدية، والخليفة ليس استثناء، وهو يقود بلداً كبيراً واسعاً ويلتزم بعقد ديني أَلَّبَ عليه الكثيرون، ومكامن الخطر عليه كان كثيراً، ولكن قد يؤخذ عليه المضي في ذلك في وقت الشدة والخطر. وأخطر ما فعله أنه أعطى قيادة الجيش، الذى وجهه لملاقاة جيش كتشنر في عطبرة، لمحمود ود أحمد. إذ كان هذا صغير السن وضعيفاً في مستواه القيادي، وقد تردد كثيراً في اتخاذ القرار، ورفع كل أمر إلى الخليفة وأقلقه بفيض ما كتب (من الرسائل). ولم يسبق لمحمود أن حارب من قبل جيشاً نظامياً ولم يعهد الحرب في بلاد النيل. وكان في قيادته من التعايشة من هو خير منه وأولى بالقيادة" إنتهى.

توثيق الشاعر القومي الحاردلو لواقعة المتمة (الكَتْلة)

وثق الشاعر القومي الحاردلو لأحداث واقعة المتمة في شعره، ووقتها كانت إقامته محددة في أمدرمان هو وأخوه ومن معهم من آل أبوسن زعماء الشكرية. والحاردلو (١٨٣٠-١٩١٦م) هو محمد أحمد عوض الكريم أبو سن، من زعماء قبيلة الشكرية بأرض البطانة بجهة رفاعة، وأخو الشيخ عوض الكريم أحمد أبو سن، زعيم قبيلة الشكرية في أوخر عهد الحكم التركي وحتى السنة الثانية من عهد حكم الخليفة عبد الله. والحاردلو هو عم الشيخ عبد الله عوض الكريم أبو سن (الجد الأكبر لزعماء الشكرية منذ سقوط دولة المهدية)، وأمه من قبيلة الجعليين. وكان الخليفة عبد الله قد استقدم الحاردلو وإخوانه للتفاوض معهم ثم احتجزهم رهائن لديه إلى أن ينتهي من حروبه الخارجية ثم يتفرغ لقبيلتهم (الشكرية) التى لم تستمل للثورة المهدية، وكان الخليفة يخشى ثورتها. ولمزيد من أخبار الحاردلو انظر الملحق الثاني.

وبعد سماع الحاردلو بـ "كَتْلة" المتمة قال قصائد كثيرة اشتهرت منها الأبيات التالية:

(يوم الخميس خَبَرْ الإبِيتَرْ جَانَا ... وضَرْبَةْ دَارْ جَعَلْ والله مى عَاجْبَانَا)

وكان عبد الله ود سعد يكني "الإبِيتِرْ" لقصره وشدة باسه. ويقال إن كلمة "الإبِيتِرْ" معناها في اللغة العربية الدارجة عند بعض أهل السودان "التمساح لقوته، ويكنى بها كذلك الرجل القصير شديد البأس".

وقال الحاردلو في نساء المتمة:

(بنات المتمة الصَّانَنْ عِرُوضِنْ صاحْ ...
وضَرَبَنْ لُجَّةَ النّيِلْ وَحَاكَنْ التُمْسَاحْ
عبدَ الله أبْ سعدْ الصَّارِمْ النَتَّاحْ ...
الموتْ حَقْ لكنَّ الشَّرفْ ما رَاحْ)

وقال أيضا من قصيدة طويلة على لسان فتيات الجعليين اللاتي ألقيْن بأنفسهن في النهر خوفا من العار:

(يا نِيلْنِا العظيم جِينَاكْ صبَايَا حَفَايَا ... شاوَرْنَا الكُبَارْ قَالُولْنَا أنْبَلْ غَايَةْ
حافْظَنْ على الشَّرَفْ البِسْرِدُوهُ حْكَايَةْ ... والقَدَرْ إنْ وقَعْ ما بْتَحَجْبُو النُونَايَا
أبَنْ الدِّنْيَا وقِنْعَنَ منْ نَعِيمَا وخِيرَا ... إتَّفَقَنْ سَوَا ولَبَّقَتُّو مُوجْ ودَمِيرَةْ
الموت مُو بِدَعْ لكُنُّ سَمحَة السِّيرة ... وفي جنَّاتْ الخُلُودْ نايْمَاتْ وعِينِنْ تَمَلِّي غَرِيرَة)

الوقفة الكبرى للذود عن العرض

إنَّ وقائع الجعليين عامة، وواقعة المتمة بصفة خاصة، كانت تتعلق في المكان الأول ببذل النفس لصون العرض. وهذا أمر من أصل شئون الدين، لقول النبي صلَّى الله عليه وسلم، كما ورد في الصحاح، أن "من قُتِلَ دون ماله فهو شهيد، ومن قُتِلَ دون دمه فهو شهيد ومن قُتِلَ دون دينه فهو شهيد ومن قُتِلَ دون أهله فهو شهيد". وقد جاء هذا الحديث الشريف في تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي. وجاء بصيغ بذات المعني وبصيغ مشابهة في شرح مسلم للإمام النووي، وفي غير ذلك من الصحاح.

كانت الوقفة الغيورة الثانية لقبائل الجعليين واقعة المتمة المشؤومة (الكَتْلة) على أيدي جيش الخليفة عبد الله، بقيادة الأمير محمود ود أحمد في أول يوليو من سنة ١٨٩٧م، أي بعد سبعة وسبعين سنة مضت على بداية الغزو التركي. وكانت تكراراً لمأساة الدفتردار السابقة التى حلت بالمتمة (١٨٢٢م) غير أنها حَفِلَت بمشاهدَ أكثر بشاعة، مع إهدار للقيم والمثل العربية الإسلامية. فَقُتِلَ في واقعة المتمة وحدها في ضحى يوم واحد، من صيف تلك السنة، أكثر من ألفي شخص من الرجال والنساء والأطفال. وسيأتي فيما يلي ذكر جانب لتلك المشاهد بتوثيق أكيد. والهدف الأساسي من التوثيق هو ابراز ما سكت عنه وما تم التعتيم عليه من أحداث تلك الحقبة من تاريخ السودان،

وعسى أن يكون في ذلك إلجامٌ لجحفلة بعض المغرضين الذين يحاولون بخبث نكْأَ جراحات قديمة كادت أن تندمل، وغيرهم ممن ينكرون حقائق ساطعة الوضوح، وقديما قيل:

(قد تَنْكرُ العينُ ضوْءَ الشَّمْسِ من رمَدٍ * وقد ينْكُرُ الفَمُ طعْمَ الماءِ من سَقَمٍ)

وكلمة "جحفلة" تعني نفور وركل الرواحل من خيل وبغال وحمير، وتسمى الجحفلة في اللغة الدارجة عند أهل السودان (البرطعة).

لقد كان السبب المباشر في أحداث تلك الواقعة – "كَتْلَة" المتمة – أن الخليفة عبد الله طلب من الأمير عبد الله ود سعد إخلاء المتمة من الرجال وترك النساء فيها لخدمة جيش الأمير محمود الذى أعده للتصدي للقوات البريطانية الغازية والتى كانت قد وصلت شمال السودان، وكان قوام جيش محمود نحواً من عشرين ألف رجل، على تقدير معظم الرواة. وقد كان جيشاً بلا مؤن، وجله مقاتلين غير ملتزمين، وعقيدتهم القتالية مبنية على هوس ديني مبتدع، وهو التدمير الهمجي للعدو، رجالا ونساء وأطفالا، واستباحة دمائه وعروضه وأمواله وأراضيه، بغض النظر عما إن كان أو لم يكن مسلما، طالما لم ينصاع لحكم الخليفة عبد الله.

استفتي الجعليون أكابِرَ علماء المسلمين ممن كانوا بيننهم آنذاك، ومنهم أولاد الشيخ السنهوري والشيخ أبو الحسن الشنقيطي بن الشيخ المختار الشنقيطي، والشيخ إبراهيم سوار الذهب (وثلاثة منهم أزهريون)، فأفتوهم بقول النبي صلَّى الله عليه وسلم، كما ورد في الصحاح، أن "من قُتِل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتِل دون دمه فهو شهيد ومن قُتِل دون دينه فهو شهيد ومن قُتِل دون أهله فهو شهيد" الحديث. واستنفر حينها الأمير عبد الله ود سعد زعماءَ الجعليين لنصرة المتمة فاستجاب عدد كبير من فروع القبيلة من كل المناطق شمالاً حتى مروي كما كان دأْبهم في معركة "ابو طليح" حينما هبوا بقيادة حاج علي ود سعد لنصرة الإمام المهدي.

ولم تكن الحرب خيارا للجعليين، ولم يبادروا بعداء أو خروج لملاقاة جيش الخليفة. بل ظلوا داخل مساكنهم ولم يخرج مقاتلوهم لمقارعة العدو إلا بعد أن استباح جيش الخليفة المدينة قتلا وتنكيلا بكل حيٍّ فيها.

ونذكر بما يسع له المجال أن كل رجال المتمة ممن قدروا على حمل السلاح شاركوا بضراوة وحماسة بالغة في قتال جيش الخليفة، وكان منهم آل ود توم وآل أبو شنقر، والمحمداب وعلي رأسهم مصطفي ود ألأمين، والد رجل الأعمال المعروف الشيخ مصطفي الأمين، والنخيلاب، وآل عبد الرحمن بيه بانقا، وآل مقب (المقابيل). وقد حضر عدد من حفظة القرآن من العمراب من المكنية من سلالة الشيخ حامد أبو عصا[٣٤]، وقد استشهد الزعيم أبو شميمة (والد العمدة الشهير أبو جديري) وعدد كبير ممن حضروا معه من مدينة كلي، وقد وثق لتلك المشاركة الدكتور حيدر وقيع الله ورواها بتفاصيل دقيقة.

واستشهد في واقعة المتمة الشيخ محمد خير أبو سن ذهب، والحاج أحمد المقبول وهو من نسل مُقِبْ الذى انحدرت منه سلالة المقابيل، وهو جد الدكتور بابكر عبد السلام وجد أبناء عمه الأمين، والد الريح الأمين حاج أحمد رئيس القضاء الأسبق وإخوانه اللواء المقبول واللواء خالد ود. الصادق الأمين. وكثير ممن استشهد في واقعة المتمة كان لهم خَلَفٌ ممن نَجَوْا، من رجال ونساء ترعرع مؤلف هذا الكتاب وسطهم، ولهم أحفاد يعيشون بيننا اليوم (٢٠٢١م)، ويروون كثيراً مما سمعوا من آبائهم وأمهاتهم عن أهوال ذلك اليوم العصيب.

وقد قتل جيش الخليفة في ذلك اليوم علماء من أولاد الشيخ السنهوري، والفقيه إبراهيم سوار الذهب (أخي جد المشير عبد الرحمن محمد حسن سوار الذهب)، وقَتَل الشيخ أبو

---

[٣٤] *كتاب (كلي) – دكتور حيدر وقيع الله – ٢٠١١م.*

الحسن الشنقيطي في خلوته، وهو ابن الشيخ المختار الشنقيطي الذى تُعْرَف باسمه المقبرة الرئيسية الموجودة في المتمة.

ناصر الشايقيةُ الجعليين. وقد ورد ذلك الخبر عن الشيخ علي أحمد عبود الذى كان يقال أن عمره آنذاك كان حوالي ١٥٠ عاماً، قال: "إن الشايقية لم يكونوا موالين للمهدية، ولما ظهر عصيان عبد الله ود سعد قام منهم نحو ٢٥ شخصاً، بقيادة محمد خير ود علي، لمساعدة عبد الله ود سعد ضد محمود ود أحمد، وقد قتلوا جميعاً ولم يرجع منهم إلا أحمد ود طه ود الشيخ[٣٥]". وكما هو موثق كتابة عند الجعليين جيلا بعد جيل "أن الشايقية هم أبناء شائق الذى ينتهي نسبه هو ورباط، جد الرباطاب، وضواب جد الجموعية والجميعاب والسروراب، وميرف جد الميرفاب ومنصور جد المناصير، كلهم ينتهون إلى عرمان بن ضواب إلى حسن كردم (الفوار) وهو الحفيد السابع لإبراهيم جعل الذى ينتهي نسبه إلى الفضل بن حبر الأمة عبد الله بن العباس عم رسول الله صلَّى الله عليه وسلم. وحسن كردم الملقب "بكردم الفوار" هو أول من دخل السودان من نسل إبراهيم جعل من جهة كردفان التى قيل إن اسمها قد اشْتُقَّ من اسمه" – انتهى. هنالك اختلاف حول نسب الجموعية والجميعاب والسروراب فمنهم من يرى أنهم ينتسبون إلى العباسيين من طرف آخر غير الجعليين.

وقد قال الراوي آنف الذكر، الشيخ علي أحمد عبود، أنه شاهد السيد الحسن الميرغني في المتمة في عام ١٨٣١م مع خاله إدريس جلّاب، مما يرجح أن عمره آنذاك (في سنة ١٩٤٧م) قد يكون ١٥٠ عاماً. إذ أنه يُذْكَرُ في هذا السياق أن السيد محمد عثمان الميرغني الأكبر (والد السيد الحسن) زار المتمة في عام ١٨١٧م، قبل الغزو التركي للسودان، وبنى فيها جامع المتمة العتيق، الذى لا يزال باقياً، والذى جدده فيما بعد حاج علي ود سعد ثم عبد الله بك حمزة الذى سيأتي ذكره، ثم أبناء عثمان ود عيسى في

[٣٥] *كتاب (الجعليون) – محمد سعيد معروف ومحمود محمد على نمر، ١٩٤٧م، ص ٢٩ وص ٣٦.*

النصف الثاني من القرن الماضي. وإبان تواجد السيد محمد عثمان بالمتمة خلال تلك الزيارة (١٨١٧م) زُفَّتْ إليه بشري ولادة ابنه السيد الحسن ببارا من زوجته رقية بنت جلَّاب.

وعندما زار السيد الحسن المتمة في عام ١٨٣١م، وهو في الرابعة عشرة من عمره في صحبة خاله ادريس جلّاب، اقتطع له آل سوار الذهب أرضا وسط المتمة بنوا عليها "خلوات السيد الحسن" التى ما زالت موجودة حتى اليوم وتقام فيها "حوليات الختمية" ويُقْرَأُ فيها مولد النبي صلَّى الله عليه وسلم، وتقام في ساحتها صلوات العيدين.

مشاهد من واقعة المتمة

قالت السيدة فاطمة بنت المك حمد ود بشير، سالفة الذكر، وزوجة عبد الله ود سعد، قالت إنه جِيءَ بها والنساء إلى أمدرمان عقب الواقعة، هي وأطفالها ومن معها من النساء، ومن تَبَقَّي لهن من صبية وأطفال، على ظهر مراكب عليها حراسة مشددة. وعند وصولهن الخرطوم أُنْزِلن أولاً في حوش النور الجريفاوي، ثم نقلن إلى بيت عباس ود رحمة الله. وكان يشرف عليهن الأمير يعقوب، الذى أحسن معاملتهن أيما إحسان. وقد كان لها لقاء مشهور وحوار عنيف ومفْحِم مع الخليفة عبد الله (وتفاصيله مدونة – أنطر الملحق الأول)، وقد همَّ أحد أتباع الخليفة بضربها بسيفة لولا أن صفعه واحد من ملازمي الخليفة وأوقفه بأمر منه، وكان الأمير يعقوب، شقيق الخليفة، قد حذر الخليفة، من قبل، عن مغبة التعرض لنساء الجعليين. وقد وثق لحادثة في هذا السياق الشيخ بابكر بدري في كتابه "حياتي" – أنظر نص الواقعة في الملحق الأول في آخر هذا الكتاب.

ومما ذكرته السيدة فاطمة، وحفظناه عنها، عن قصة ذلك الواشي الذى تقدم ذكره، أنه بعد معركة كرري وسقوط الخرطوم، احتمي بالسيدة نفيسة زوجة السيد المحجوب (ووالدة الزوجة الأولي للسيد علي الميرغني). ولما طلبه منها رجال من الجعليين لم تُسْلِمْهُ لهم. فعاودوها مرة ثانية ومعهم الصبية وهم يبكون ويتمرغون في التراب، أسىً على فقد

والديهم وإخوتهم، فرقت لحالهم وذرف الدمع من عينيها، وما كان منها إلا أن أسلمتهم إياه، فألقوه أرضاً وجروه وأوسعه لكماً وأوسعه النسوة ضرباً بالنعال إلى أن فارق الحياة. هذا ما روته للمؤلف السيدة فاطمة تماماً. ولا مجال هنا للاسترسال في قصة ذلك الواشي إذ لا أهمية لذلك الآن، خاصة ونحن في منعطف تاريخي حرج نأمل أن نتناسى فيه إحن وجراحات الماضي، ونتمني أن يلتئم شمل جميع أهل السودان. وسرد هذه الأحداث الأليمة هو من أجل التذكرة للاعتبار ولتصحيح مسار تاريخ تلك الحقبة.

ومما أورده الشيخ الفحل بهذا الصدد قوله:

" أم درمان وحضور النساء في المراكب[٣٦]

ولما أشيع خبر حضور عائلات الجعليين كان على باب الأمير يعقوب ولد محمد، شقيق الخليفة عبد الله، بعض العمال وبعض أمراء التعايشة وأولاد البلد ينتظرون الأذن بالدخول فقال أحد أمراء التعايشة (تَوِّ أمشي إلى سيدي خليفة المهدي يعطيني جعلية أسويها "سرية")، وكان بالقرب منه العامل مختار الرباطابي فضربه على وجهه وأنفه حتى سال منه الدم وقال له (الجعلية لا تكون سرية وفي الناس بقية)، فصاح من توه استنكاراً ودخل على الأمير يعقوب محمد فلما جلا له الأمر قال: (يا مختار جزاك الله خيراً الجعلية لا تكون سرية). ثم ذهب إلى خليفة المهدي وأخبره بما حصل، ورقى الخليفة المنبر بعد النداء بجمع الناس وقال: عوائل الجعليين حضرت بالمراكب فكل من له عريفة (أي من يعرف واحدة منهن) يستلمها، ونزل لناس البحر فلم يتركوا امرأة واحدة بمعرفة أو بدون معرفة (إحتراماً للجعليين). فهذا جميل من الأمير محمود ولد أحمد ومن خليفة المهدي لهم شكرنا عليه". انتهى.

وفي هذا السياق قد ذكر الشيخ بابكر بدري في مذكراته تفاصيل لتلك الحادثة، وكان هو بنفسه شاهداً عليها، كما ذكر أيضاً قصصاً مشابهة عن عدم رضى عدد من الناس

---

[٣٦] *تاريخ وأصول العرب بالسودان، الفحل الفكي الطاهر.*

وردود أفعالهم عن تلك الأقوال في تلك الأيام (انظر الملحق الأول وقصة الشيخ بابكر بدري من كتابه "حياتي").



بابكر بدري
1861-1954م

وكانت السيدة فاطمة بنت حمد تروي تفاصيل كثيرة عن تلك الأحداث التى لاتزال ذكراها المحزنة معروفة عند أعقاب كثير من أسر الجعليين التى مسها الضر إبان تلك الأحداث، ومدونة لدى عدد ممن لهم اهتمام بذلك التاريخ.

وفيما يلي ومن أجل التوثيق نورد ذكر أربعة أحداث في يوم "الكتلة" التى كان فيها ما كان من قتل النساء والشيوخ والأطفال. وقد كان من أفظع ما تكرر حدوثه في ذلك اليوم وذكره كثيرون ممن شهدوا الأحداث ونجوا من الموت هو قَذْفُ الرضع والأطفال في الهواء وتَلَقُّفِهِم بالحراب في لهوٍ بشع، وفيما يلي توثيق لتلك الحالات.

نجاة صبية من الموت

كان من بين أولئك الأطفال ممن كتب الله لهم الحياة السيدة كلثوم بنت الناظر إبراهيم بك التى عاشت بعد مذبحة المتمة وتزوجها السيد عمر بابكر محمد سليمان "كروم" (والد الدكتور بروفسور حداد عمر كروم) وأنجب منها أربعة أولاد وثلاث بنات، توفي آخرهم السيد متوكل عمر كروم (٢٠٢١م)، وكان ممن يَرْوُون الكثير عن تلك الأحداث. وقد توفيت السيدة كلثوم في عام ١٩٦٢م، ولها أحفاد كثر شاهدوا مراراً وشاهد معهم المؤلف، وهي عمته، أثر الجرح الغائر في كتفها من أثر الحادثة التى أنجاها الله منها، بعد أن قذف بها أحد الجنود، وهي طفلة رضيعة، ليتلقفها الآخر بالحربة كما فُعِل بكثير من الأطفال والرضع في ذلك اليوم المشئوم فجرحت ولم تمت!!

الموت غرقا أهون من العار

وكان من أهم ما ذكرته السيدة فاطمة للمؤلف من حدث يذكره كل أبناء الجعليين رواية عن أسلافهم الذين شهدوا الواقعة وأنجاهم الله من الموت فيها، ذكرت أنه بعد اقتحام جيش الخليفة المتمة وعدد كبير من قرى الجعليين الأخرى، ألقي كثير من النساء والفتيات بأنفسهن في النهر مقترنات، حتى لا تطفو إحداهن وتنجو من الموت غرقاً وتكون عرضة للاغتصاب أو السبي. وكان الغرق أهون عليهن من العار. وقد وثق لحادثة واحدة، من حوادث كثيرة مشابهة، اللواء م. البشير سعيد أبو شعر، أمد الله في أيامه. كتب عنها بتفصيل وافٍ ما يلي:



اللواء م. البشير سعيد أبو شعر

"كانت جدتي آمنة بنت حاج بشير في المتمة مع زوجها الذى كان يعلم القرآن في خلاوي الجعليين وكان مسافراً في تجارة له، وفي يوم واقعة المتمة القت بنفسها في النهر محتضنة صغيرٍ لها.

ومن لطف الله أن وجدت أمامها جذع شجرة طافٍ على الماء فتشبثت به هي وبعض النسوة وكان طوق نجاتهن، والنهر في شهر يوليو فائض، وحملهن التيار شمالاً مسيرة يوم كامل إلى أن أسعفهن جماعة في جزيرة كانوا يحتمون فيها من غارات جيش الخليفة الذى لم يكن أفراده يعرفون السباحة. وهنالك أعانها صاحب مركب (نوَّاتي – والنوتية كما يسمونهم في اللهجة العامية هم بحارة المراكب النيلية التجارية) وكانت وجهتها مدينة بربر فأوصلها وطفلها إلى جهة كنور شمال الأتبرا (نهر عطبرة)، ومن هنالك ظلت تمشي ولا تلوي على شيء وتسأل عن مدينة بربر حيث كان يقيم فيها شيخ مشهور كان بمثابة جد لها وهو الفكي عبد الصادق، الذى وصلت إليه أخيراً حافية متورمة القدمين وفي خرق بالية من الثياب ومعها صغيرها، فأكرم وفادتها. وبعد أن

تعافت من معاناة تلك المسيرة البطولية، استأذنته في اللحاق بأخوالها بمنطقة الشريق وذهبت إليهم. وبعد قضاء فترة بين ظهرانيهم طلبت منهم السماح لها بالذهاب إلى قرية الجول، التى تقع شمال بربر وعلى الضفة الغربية لنهر النيل، حيث يوجد بعض من أهلها وهم أولاد حمد ود سبيع، المعروفين بالشجاعة والإقدام، ليساعدوها في البحث عن زوجها، فوصلت إليهم وظلوا يساعدونها في تقصي أخبار زوجها الذى لم يعرف له مصير.

وبعد سنين مضت، والأخبار تتواتر إليها أن رجال الجعليين قتلوا أو أسروا، تم طلاقها من زوجها الغائب بفتوى من السلطة الشرعية القائمة هنالك آنذاك، وتزوجها بعد طلاقها الشيخ محمد دياب عبد الله.

ومن المفارقات في ختام تلك القصة البطولية أن الزوج الغائب ظهر بعد سنين طويلة، وبارك الزيجة، إلا أنه عرف ان ابنه الذى نجا من مذبحة المتمة قد مات غرقاً في النهر في قرية الجول، وهو صبي في ريعان شبابه!!" انتهى. والشيخ محمد دياب هو الجد لأم اللواء م. البشير سعيد عبد الله أبو شعر، التى وثَّقَ عنها وعن والدتها – الجدة – تفاصيل تلك الحادثة.

يوم ولد رجل عظيم

ومن التوثيق لذلك اليوم العصيب قصة شهيرة ومعروفة عند العمراب والسواراب، وهي ميلاد أحد عظماء السودان التى حدثت في ذلك اليوم الذى خرجت في ضحاه السيدة فاطمة (وكانت تكني بـ "فانا") وهي بنت الفقيه الشيخ إبراهيم سوار الذهب الذى تقدم ذكره، خرجت من بيتها وهي مذهولة من هول المعركة الدائرة في أرجاء بلدة المتمة في يوم المذبحة، وكان زوجها حمزة البلة مسافراً في تجارة له، ولم تجد أمامها طريقا آمناً تسلكه غير الصحراء شمال القرية، وكانت حبلى في أيامها الأخيرة من الحمل، فأجاءها

المخاض إلى شجرة (تّنْضُب)، فوضعت تحتها ولدها ميرغني حمزة البلة، وأنجاهما الله مما لحق بغيرها من النساء والأطفال. وقد ورد عن ميرغني حمزه نفسه قوله، في حوار مع الدكتور منصور خالد، "أنت ما عارف إني ولدوني تحت شجرة ....." (٣٧)

ويروي السيد يحيى النور عثمان النور الخبير، أمد الله في أيامه، وهو من أبناء أعمام السيد ميرغني حمزة، يروي عن واحدة من جداته وهي السيدة فاطمة أبكر حمزة موسي (بنت أخى عبد الله بك حمزة موسى الذى تقدم ذكره)، يروي قصة معروفة في أسرهم، وهي أن ميرغني حمزة ولد في يوم "مذبحة" المتمة تحت "شجرة ود عقيد" (شجرة التنضب) وأن سبب نجاته هو ووالدته ومن معها من بضع نساء، وكما ذكر للمؤلف في الرواية الشفوية، أن جماعة من "الجهدية" (جنود محمود ود أحمد) عثروا عليها وهي في تلك الحالة بعد الوضوع، وكما جاء في الرواية الشفوية للسيدة فاطمة أبَّكر، آنفة الذكر: (قالوا ليها شيلي العبد دا ... قالت ليهم ما بشيلو وبخليه قبلو) .. وعرفت الخبر "السُّكَات" وهي امرأة محمود ود أحمد (وكان النساء يرافقن أزواجهن في كثير من الحملات – المؤلف) وكانت أصلاً من المتمة وتنتمي لأسرة النور ود عبد الحفيظ .. فنهرت الجهدية وحجزتن وزجرتن وضمت ليها "فان" ووليدا والمعاها من النسوان وأهَلِنْ وجابتن أمدرمان}. انتهت الرواية الشفوية.


ميرغني حمزة
1897- 1974م

وكان للسيدة فاطمة بنت الفكي إبراهيم سوار الذهب أختٌ هي السيدة آمنة (وتكني أمونية) وهي والدة السيد الدرديري محمد عثمان حاج خالد محمد سليمان "كروم"، الذى

(٣٧) كتاب *"أهوال الحرب ومآلات السلام"*، للدكتور منصور خالد – ص ١٠٠.

ولد في أمدرمان في سنة ١٨٩٦م، وهو أحد عظماء السودان وعضو أول مجلس سيادة للسودان بعد الاستقلال وسيأتي ذكره لاحقاً.

نشأ ميرغني حمزة في أم درمان وتخرج عام ١٩١٤م مهندساً من كلية غردون التذكارية ثم تدرج إلى أن ارتقي إلى منصب نائب مدير وزارة الأشغال، وكان أول سوداني يرتقي إلى ذلك المنصب في عهد الحكم الثنائي. ثم انخرط في العمل السياسي في فجر عهد الاستقلال وتقلد، في أول حكومة وطنية، منصب وزير "الأشغال والمعارف والري". وكان سياسيا بارعاً، قوي الشكيمة شديد العارضة، وقد تميز بالفكر الثاقب وبعد النظر في شئون تنمية البلاد، وله مساهمات كبرى في تنمية السودان الحديث سنتطرق لذكرها في فصل لاحق من هذا الكتاب.

وممن ينتمون لأسرة الفقيه إبراهيم سوار الذهب، جد ميرغني حمزة والدرديري محمد عثمان من جهة والدتيهما كما ذكرنا، سعادة المشير عبد الرحمن محمد حسن سوار الذهب (١٩٣٥-٢٠٢٠م) الذى كان رئيسا لجمهورية السودان (١٩٨٥-١٩٨٦م) بعد الانتفاضة الشعبية ضد حكم الرئيس نميري. وقد حظي المشير عبد الرحمن سوار الذهب، بشهادة وفاء رفيعة تقديراً لمصداقيته في التخلي عن الحكم بعد عام من اسناده إليه، بِراً بوعده في سابقة لا مثيل لها في التاريخ الحديث إلا ما كان من أمر الجنرال ديجول الذى تخلي عن الحكم العسكري لفرنسا كبرياء منه عندما لم يُعَدْ انتخابه.



المشير عبد الرحمن سوار الذهب
من مواليد الأبيض 1935

وفي أواخر عام ١٩٨٦م كان المؤلف آنذاك يعمل خبيراً بالصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي بالكويت وأتيحت له الفرصة لكي يساهم في تشريف ذلك الرجل العظيم. وكان وقتها أن طلبت هيئة الأمم المتحدة من بعض المنظمات العالمية ومن

بينها الصندوق العربي، طلبت ترشيح شخصية لمنحها جائزة التميز لذلك العام، فرشَّحْ المؤلف للصندوق سعادة الفريق عبد الرحمن سوار الذهب باعتباره رمزاً للوفاء، وقبل الصندوق ذلك الترشيح، وعهد للمؤلف بالسفر إلى الخرطوم لمقابلته وأخذ موافقته وتم ذلك بالفعل، وتقدم الصندوق بترشيحه، ولكن الجائزة أعطيت أخيراً لمطرب كان يستقطب العون للمتضررين من القحط الذى حل في تلك الفترة ببعض مناطق القارة الإفريقية. وكذلك كانت ولا تزال معايير الغرب.

مزيد من مشاهد واقعة المتمة

قصة الفكي الخضر ود الباشا

من أهوال يوم واقعة المتمة أن حوصر عدَدٌ من الرجال العُزَّل من السلاح فألقوا بأنفَسَهُم في النهر فغرق منهم من غرق ونجا من نجا ممن استطاعوا عبور النهر الفائض وتحت وابل من رصاص الجنود.

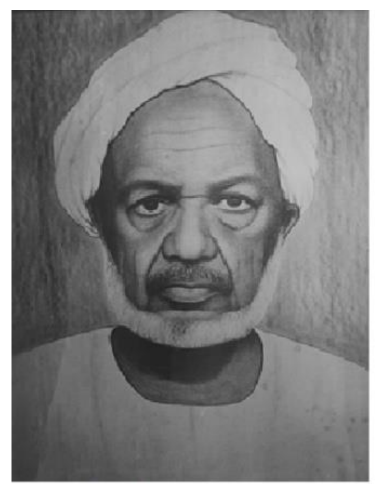
وأحفاد أولئك الرجال موجودون اليوم في حوش بانقا وفي ما جاورها من قرى. وممن نجا وعاد لاحقا للمتمة الفكي الخضر ود الباشا. كان هو وآخرين من الأسري مقيدة أياديهم ومصفوفين علي ضفة النهر ليشربوا الماء كالبهائم، فقفز في النهر الفائض وغطس وسبح تحت سطح الماء إلى أن ابتعد عن الشاطئ والجنود يطلقون صوبه النار. وظل يطفو ليسترد أنفاسه ويغطس سابحا إلي أن بلغ الشاطئ الشرقي للنهر وقد أنجاه الله. والفكي الخضر ود الباشا، جد الأستاذ أحمد محمد الحسن، والدكتور محمد المصطفي أبو القاسم، وكان هو نفسه يروي تفاصيل تلك الحادثة وكذلك يرويها عنه أولاده البرمكي والأمين وميرغني. وكثير من أهله يروون تلك القصة.

عاد الفكي الخضر فيما بعد للمتمة، وكان من حفظة القرآن، وكان هو وبعضٌ من أولاده يعلمون القرآن في الخلوة التى أنشأها السيد عبد الله بك حمزة بالمتمة. وكان المؤلف ممن تلقوا عنه تعلم القراءة والكتابة وحفظ بعض سور القرآن الكريم وهو في

الخامسة من العمر، وكانت قصته معروفة لدي أولاده وأحفاده وأهل المتمة، لكثرة ما كان يرويها بنفسه، وقد توفي، عليه رحمة الله، في خمسينيات القرن الماضى.

نجاة صبي

ومما لدى المؤلف من توثيق أكيد، ما سمعه من السيد البشير بن السيد محمد بن السيد محمد المختار التجاني (توفي عام ١٩٧٣م) وهو شقيق جدِّ المؤلف لوالدته – السيد محمد (توفي عام ١٩٦١م)، وهما حفيدا السيد محمد المختار التجاني. وقد سمع المؤلف من قبل، عدة مرات، قصة هذه الحادثة من جده السيد البشير وكان آخرها في عام ١٩٧٠م حين كان المؤلف وقتها محاضراً بكلية الهندسة بجامعة الخرطوم، وقد رسخت كلماتها في ذهنه ودونها ويرويها فيما يلي ولم يُدْخِل عليها إلا استعراب الكلام.



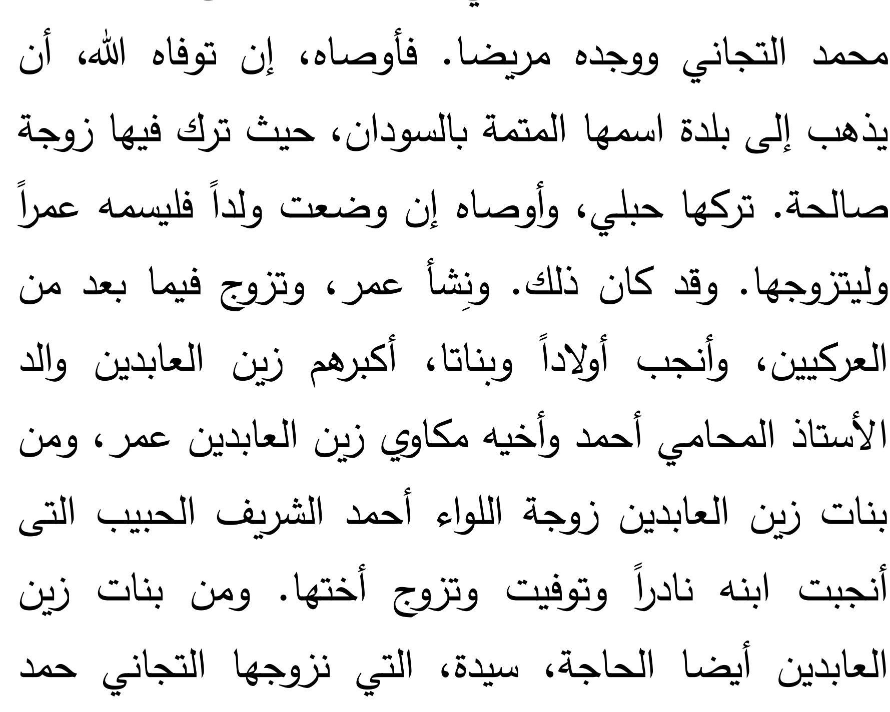
السيد محمد (حفيد السيد محمد المختار التجاني)

قال السيد البشير: "كنا أنا وأخي محمد يافِعَيْن دون الثامنة من عمرنا نجري أثناء المعركة "الكتلة" ونحن في رعب شديد، فإذا بأحد "الجهدية" (وذلك هو الاسم الذى كانوا يطلقونه على الجندي من جيش الأمير محمود ود أحمد) إذا به شاهراً سيفه ومقبلاً نحوي صائحاً "الكِوِيفِرْ وِدْ الكِوِيفِرْ" وأهوي عليَّ بالسيف ولكن بقدر ولطف أنجاني الله تعالى، إذ نصل السيف من مقبضه قبل أن يصيبني. و"الكِوِيفِر" اسم تصغير للكافر، ويعني ذلك القول الكافر بن الكافر، وكان مُعْتَقَدُ أولئك الجنود أنهم يحاربون كفاراً. ويمضي السيد البشير قائلا: فجرينا ودخلنا بيت جدة لنا، هي الروضة بنت مكرنجة، فخبأتنا معها تحت أحد الأسرة إلى أن انجلت المعركة". والروضة هي من إحفاد سعد "مكرنجة" وهو الجعلي الأول الذى يقال إنه أسس وحكم المتمة عام ١٥٨٧م في بداية حكم السعداب (١٥٨٧–١٨٢٢م).

ووالدة السيد البشير والسيد محمد (الحفيد) وإخوتهم هي بنت خال أيوب بيك عبد الماجد زعيم الميرفاب، وكان أبوهما السيد محمد (الكبير)، بن السيد محمد المختار التجاني، قد لبى النداء وحضر من بربر للمشاركة في الدفاع عن المتمة حيث كان بها والدته السيدة فاطمة بنت المقبول، وقد استشهد في المعركة هو وأخوه الأمين. وكان والده، السيد محمد المختار التجاني، من كبار علماء المغرب الذين كان كثير منهم يطوف البلاد لنشر تعاليم الإسلام.

والسيد محمد المختار ولد في حوالي عام ١٨١٠م في بلدة تشيت، وهي البلدة التي أسسها جده، عبد المؤمن، فى دار شنقيط بدولة المغرب العربي، وهو أول من أدخل الطريقة التجانية في شمال السودان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إبان فترة الحكم التركي. وكان قد سبقه إلى شمال السودان عدد من علماء شنقيط، منهم والد الشيخ أبو الحسن الشنقيطي المدفون بالمتمة، ومنهم ابن عمه محمد التجاني.

سافر السيد محمد المختار في مستهل حياته إلى الحجاز حاجاً. وهنالك إلتقي إبن عمه



محمد التجاني ووجده مريضا. فأوصاه، إن توفاه الله، أن يذهب إلى بلدة اسمها المتمة بالسودان، حيث ترك فيها زوجة صالحة. تركها حبلي، وأوصاه إن وضعت ولداً فليسمه عمراً وليتزوجها. وقد كان ذلك. ونِشأ عمر، وتزوج فيما بعد من العركيين، وأنجب أولاداً وبناتا، أكبرهم زين العابدين والد الأستاذ المحامي أحمد وأخيه مكاوي زين العابدين عمر، ومن بنات زين العابدين زوجة اللواء أحمد الشريف الحبيب التى أنجبت ابنه نادراً وتوفيت وتزوج أختها. ومن بنات زين العابدين أيضا الحاجة، سيدة، التي نزوجها التجاني حمد بريقدار وانجبت له عبد القادر وأخوانه وأخواته.



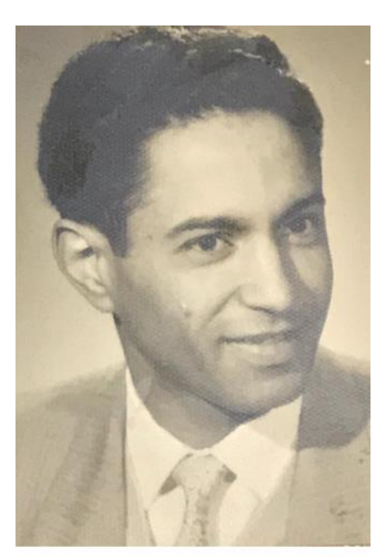
أحمد زين العابدين عمر – المحامي
1922 – 2006م

وفي عودته من الحجاز عن طريق مصر زار السيد محمد المختار الخديوي وقرأ علي بنته آيات من القرآن الحكيم، فشفيت من عند الله، من ذهول كان ينتابها. وبعد أن علم الخديوي وجهة سفره أعطاه مكتوبا "فرماناً" إلى الباشا، حاكم السودان آنذاك، لمنحه أرضاً يستقر بها، وقد منح بموجب ذلك أرضاً زراعية في الجزيرة "أم حراحر"، غربي نهر النيل بمنطقة الهوبجي، استقر بها بعد وصوله المتمة وزواجه السيدة فاطمة بنت المقبول آنفة الذكر. وتوفي السيد محمد المختار عام ١٨٨٢م قبل دخول المهدي الخرطوم بعامين، ودفن قرب الشاطئ الشرقي لنهر النيل حيث لا يزال ضريحه قائماً هنالك ويؤمه كثير من أتباع الطريقة التجانية، ولا تزال مساكن أحفاده موجودة في قرية "المِرِيخ" التى تبعد حوالي ٣٧ كيلو متراً جنوب غربي مدينة شندي، وهي القرية التي ولد فيها المؤلف، وقضي بها أول سنتين من عمره، مع والدته وجده السيد محمد (الحفيد) ابن السيد محمد ابن السيد محمد المختار ، قبل أن ينتقل مع والديه إلى المتمة، بلدة والده.

المصدر: (هذه السيرة الموجزة للسيد محمد المختار التجاني، يرويها كثير من أعقابه، خاصة أبناء السيد محمد "الحفيد"، والذين هم أخوال المؤلف، وكذلك رواها للمؤلف، السيد مصطفي خالد عبد الله، رحمه الله، وأخواه عبد الله وإبراهيم أحفاد السيد إبراهيم بن السيد محمد المختار). وقد كان للمؤلف قصة طويلة ومثيرة مع الأستاذ أحمد زين العابدين، الذي يعد خاله في صلة القربى، ولإبن أخته عبد القادر التجاني, وكان ذلك عقب محاولة انقلاب حسن حسين ضد حكومة النميري فى عام ١٩٧٥م، وحينها أتهمت حكومة مايو الأستاذ أحمد زين، زورا، بالمشاركة في الانقلاب الفاشل وأهدرت دمه، وأعلنت القبض عليه حيا أو ميتا.

كان الأستاذ أحمد زين من كبار أقطاب الجيل الثاني للحزب الوطني الاتحادي، ومن أشد المناوئين للحكم العسكري وقد أعتقل بسبب ذلك عدة مرات. ولكن بعناية من الله وتوفيق منه، ثم بجهد كبير تمكنا وبمعاونة عدد كبير من الأقرباء من إنقاذ الأستاذ

أحمد زين وتوصيله إلي بر الأمان خارج البلاد. وكان كل ذلك فى إطار أحداث مثيرة على مدى ثلاثة أشهر، وإن شاء الله سنورد تفاصيلها فى مجال آخر.



مكاوي زين العابدين عمر
1967 -1933

وأخو الأستاذ أحمد زين العابدين هو مكاوي الذي انتقل إلي جوار الله في ريعان شبابه ولم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره، وكان من أوائل الصيادلة في السودان بعد تخرجة من الجامعة في ألمانيا في أوائل ستينيات القرن الماضى.

وعن ذكر "مكرنجة" تقول بعض المصادر أن أصل اسمه "أماكَرِى"، وقيل إنها كلمة لُقِّب بها وهي من لهجات الحبشة وتعني الرجل الحصيف ذو الرأي الواسع. وقد تأسس سيال النفيعاب (السيال الصغير)، الذى كان مقر النفيعاب، قبل تأسيس المتمة بحوالي ٢٠٠ عام.

ويقول بعض المؤرخين أن بلدة المتمة (ولربما بمسمى آخر) يرجع تاريخها إلي عصور غابرة من قبل مملكة كوش وأنه كان بها قنوات تحت الأرض لجر مياه الشرب من النهر كما كان الحال في منطقة البجراوية. ولا يستبعد أن تكون قد تأسست في ذلك الزمان الغابر لأن منطقتها تتميز بمساحات زراعية كبيرة وخصبة على ضفة نهر النيل.

وقد كان من سكان السيال الأبوراب وهم حفدة الفقيه الشيخ عبد الله ابَّارو، الذى يروي انه قدم من بغداد في منتصف القرن الهجري العاشر، ومن سلالته احمد عبد الله أبَّارو، الذى تقلد منصب مدير عام الشرطة في عهد الحكم الثنائي وظل فيه إلى أن استقل السودان أول عام ١٩٥٦م.

وممن هاجروا من السيال الصغير، في العهد التركي، إلى شبشة على النيل الأبيض الشيخ الحسين والد الشيخ برير الذى ولد بقرية هجام البرياب بالنيل الأبيض، وهو جد الأستاذ السماني والدكتور حاتم الوسيلة وإخوانهم. وكان قد عاد إلى السيال وحفظ القرآن

في خلوة الشيخ الرهيف (في القرية المجاورة والمعروفة بالسيال الكبير، والمعروفة أيضاً بسيال كريم الدين).

لا تقتلوا شيخاً

ومن تلك الأحداث أن قُتِلَ زعيم القبيلة آنذاك الحاج محمد ود حاج سليمان ود فرح، ابن عم حاج علي وعبد الله إبني سعد ود فرح، ووالد الناظر إبراهيم بيك محمد فرح، وكان شيخاً مسناً فاقد البصر، قتل على سريره وهو يتلو القرآن، وهدمت على جثمانه الدار، كما تبين فيما بعد عند دفن موتي المتمة بعد ثمانية أشهر من حدوث "مذبحة المتمة". وكان الحاج محمد قد اسند في حياته وقبل ظهور المهدي، أسند زعامة الجعليين لحاج علي وعبد الله ابني عمه سعد، إذ أن ابنه إبراهيم كان آنذاك صغير السن.

وهنا يجب ذكر ما صح عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلم عن آداب الإسلام في الحرب ومحاربة غير المسلمين، فقد صح عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلم، إذا بعث جيوشه قال: "اخرجوا باسم الله، تقاتلون في سبيل الله، لا تغدروا، ولا تُمَثِّلُوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع".

وعن أنس أن الرسول صلوات الله عليه قال: "لا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة". وعن رباح بن ربيع أنه خرج مع الرسول في غزوة غزاها، وكان على مقدمته خالد بن الوليد، فمرَّ الرسول على امرأة مقتولة فقال: "ما كانت هذه لِتُقْتَلْ، ثم التفت إلى أحد أصحابه وقال له: اِلْحَقْ بخالدٍ فقل له: لا تقتلوا امرأة ولا ذرية ولا عسيفاً (أجيراً)".

ومن هذه الأحاديث الشريفة، التى وردت في الصحاح، أجمع علماء المسلمين علي أنَّه لا يُقتل في الحرب شيخٌ ولا صبيٌ ولا امرأةٌ ولا عاملٌ، ما دام هؤلاء لم يشتركوا في الحرب، ولا يُقْطَعُ شجرٌ ولا يُخَرَّبُ عامرٌ، ولا يُؤْذَى حيوانٌ، ولا يُحْرَقُ زرعٌ. فما بالك بأمْرِ الخليفة جيْشَهُ بقتل أهل المتمة، وهم مسلمون ولم يكن لهم من ذنب إلا أن أَبوُا أن يخرجوا من ديارهم، تاركين وراءهم أموالهم للنهب وأعراضهم للاستباحة، وبينهم

أطفال ونساء وشيوخ وعزل من السلاح. وأين ذلك من قول الله سبحانه وتعالى (.... مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ في الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا) {سورة المائدة ٣٢}. وقوله تعالى (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عليه وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) {سورة النساء ٩٣}.

تحليل وتداعيات واقعة المتمة (١)

هنالك تساؤل جدير بالاعتبار عن واقعة المتمة المشئومة وعن سبب إصرار الخليفة عبد الله على دخول جيشه المدينة عنوة واستباحتها، والطريق منبسط امامه عشرات الأميال شمال البلدة إلى آبار "أبو طليح"، التى تبعد حوالي أربعين كيلومترا شمال المتمة، بل الطريق منبسط أمامه حتى جبل الحسانية؟؟

والناظر إلى خريطة المتمة الجوية يرى أن نهر النيل يتجه في مساره في تلك المنطقة شرقاً وبانحراف قليل تجاه الشمال (ما بين قريتي حجر العسل وكبوشية). فإن كان هدف الخليفة هو أسر الأمير عبد الله ود سعد وعقابه على تهم نسبت إليه فلماذا لم يُحَاصَرْ جيشُه المتمة حتى تستسلم ولو بعد حين (كما حاصر الإمام المهدي الأبيض، وكما هو متبع في تاريخ معظم الحروب – ناهيك عن الحروب الإسلامية)، ويُحاصَرها إلى أن يتم تسليم الأمير عبد الله ود سعد من غير سفك دماء أهل البلدة الأبرياء وأهل غيرها من بلاد الجعليين، ومن غير ذبح نسائهم وأطفالهم وشيوخهم واستباحة وخراب ديارهم التى كانت آمنة؟؟ خاصة وأن جيش الأمير محمود ود أحمد قد تخندق، بعد واقعة المتمة، في المحيط الشرقي للمدينة المنكوبة ولمدة ثمانية أشهر في انتظار وصول الجيش الغازي بقيادة كتشنر باشا، والذى كان في أقصي شمال السودان. واعتبارا لذلك فقد بدا واضحاً أن الخليفة كان عازماً على إبادة المتمة بمن فيها، وقد حدث ذلك بالفعل ولم ينج من أهلها إلا قلة كما ذكرنا سالفاً.

لقد كان ذلك النهج هو دأب الخليفة عبد الله مع كل قبائل السودان التى لم تنصع لأوامره، وحتى مع كثير من أفراد قبيلته، التى أبي معظمها تلبية دعوته للقدوم إلى أمدرمان، حين أعلمهم بأنه قد أخضع كل قبائل السودان لحكمه. ولم يستجب له إلا عدد قليل منهم. وقبيلة التعايشة التى تميزت بالشجاعة وشدة البأس في الحروب كانت من أوائل القبائل التى ناهضت الجيش التركي الغازي وقضت عليه كما سيرد ذكره لاحقاً. وقد وردت تفاصيل تلك الأحداث وتوثيقها في مصادر كثيرة. وما كان الخليفة يثق إلا بالضعفاء ممن صحبه من قبيلتة ممن تؤمن غوائله، وناصرت الإمام المهدي، وكان من أكبر زعمائها "الغزالى بن أحمد خوف[٣٨]" الذى كان ذو ثروة واسعة من الماشية وذو نفوذ عظيم وفارساً صنديدا مهاباً، وكان قد جاء أمدرمان آملاً ان ينجز الخليفة وعده بأن يجعله وزيراً له، إلا أن الخليفة لم ينجزه الوعد عندما علم أن باقي أفراد القبيلة لم يكونوا راغبين في الحضور معه لأمدرمان. ولما يئس الغزالى من وفاء الخليفة له غادر أمدرمان بليل هو وابن أخته وواحد من مواليه، فأتبعهم الخليفة بستمائة[٣٩] رجل، لحقوا بهم بعد مسيرة بضعة ليالٍ بجهة "كجمر" بشمال كردفان، حيث وقف الغزالى وقفة باسلة. وبعد قتالٍ مستميت قضوا عليه وحملوا رأسه للخليفة، الذى ما كان يصدق خبراً يأتيه من أحد من قادته إلا أن يري رؤوس أعدائه مقطوفة وماثلةً أمام ناظريه. وقد تكرر ذلك المشهد الدموي كثيراً في تاريخ حكم الخليفة بعد مقتل أعدائه، وقد أُوتِيَ له من قبل برأس "النجاشي يوحنا" بعد هزيمته في معركة "القلابات". ففرح بذلك فرحاً مشهوداً، ونصبت رأس النجاشي في السوق ووضع تاجه وسائر أسلابه في مقصورة المسجد كما روي شاهد من شهود العيان[٤٠]، وتكرر المشهد بعد مقتل آخرين

---

[٣٨] *"السودان بين يدي وغردون وكتشنر – إبراهيم فوزي باشا – الجزء الثاني ص ٢٠٤". أنظر الملحق الثاني عن المزيد من أخبار هذا المؤلف.*

[٣٩] *المصدر السابق ص ٢٠٥.*

[٤٠] *المصدر السابق – الجزء ٢ ص ١٣١.*

كُثُر، منهم عدد من زعماء القبائل، وكان آخرهم الأمير عبد الله ود سعد بعد مذبحة المتمة[٤١].

وقد ساء قتل الغزالى المفجع حنق أتباعه، الذين هم الغالبية العظمي من قبيلة التعايشة، وأثار حنقاً شديداً مما كان له من آثار سالبة علي الخليفة طيلة ما تبقي له من فترة في الحكم إذ لم يَجِد له من بعدها من نصير، وليس أدل علي ذلك مما كان من أمره بعد أن غادر علي عجل "كرري" والمعركة دائرة على أشدها ضد الجيش الغازي، ووصل منطقة أم دبيكرات وظل فيها نحواً من أربعة عشر شهراً ولم يلحق به وليٌّ ولا نصير من قبيلة التعايشة ولا من غيرها من عموم قبائل السودان، بل ظل هنالك إلى أن أدركته كتيبة من كتائب الجيش الغازي بقيادة "ونجت" باشا وقضت عليه.

"وقد مكن (الخيفة عبد الله) لكثير من أتباعه في الأراضي التى مات أهلوها في مجاعة سنتي ١٣٠٦/٧هـ الشهيرة، فانطلقت أيديهم في البلاد بالسلب والنهب. وما بقي في أيدي الأهلين من مواد الحياة أصبح عرضة لعبث أولئك الأتباع الذين كانوا، مع ذلك كله، غير راضين بأحكامه، حتى إنهم كانوا يحنون إلى ديارهم والعودة إليها[٤٢]".

وفي إشارة إلى تلك المجاعة التى أودت بحياة أعداد هائلة من أهل السودان، تتفق كل المصادر التاريخية المهمة على أن السبب الرئيسي لما عرف بمجاعة "سنة ستة" (١٣٠٦/١٣٠٧هـ (١٨٨٨/١٨٨٩م) كان لأسباب طبيعية، هي شح الأمطار في معظم أنحاء السودان في تلك الفترة وإنخفاض منسوب النيل، وما أعقب ذلك من آفات الجراد والقوارض التى قضت على معظم الزرع. إلا أنه قد فاقم الأوضاع تفاقما شديداً هجرة أعداد كبيرة من أهل غرب السودان إلى أمدرمان تلبية لنداء الخليفة عبد الله للالتحاق به. ويضاف إلى ذلك تهجير كثير من سكان الجزيرة إلى أمدرمان امتثالاً لأوامره للحاق

[٤١] *تاريخ وأصول العرب بالسودان، الفحل الفكي الطاهر.*

[٤٢] *"السودان بين يدي وغردون وكتشنر" – إبراهيم فوزي باشا – الجزء ٢ ص١٣١.*

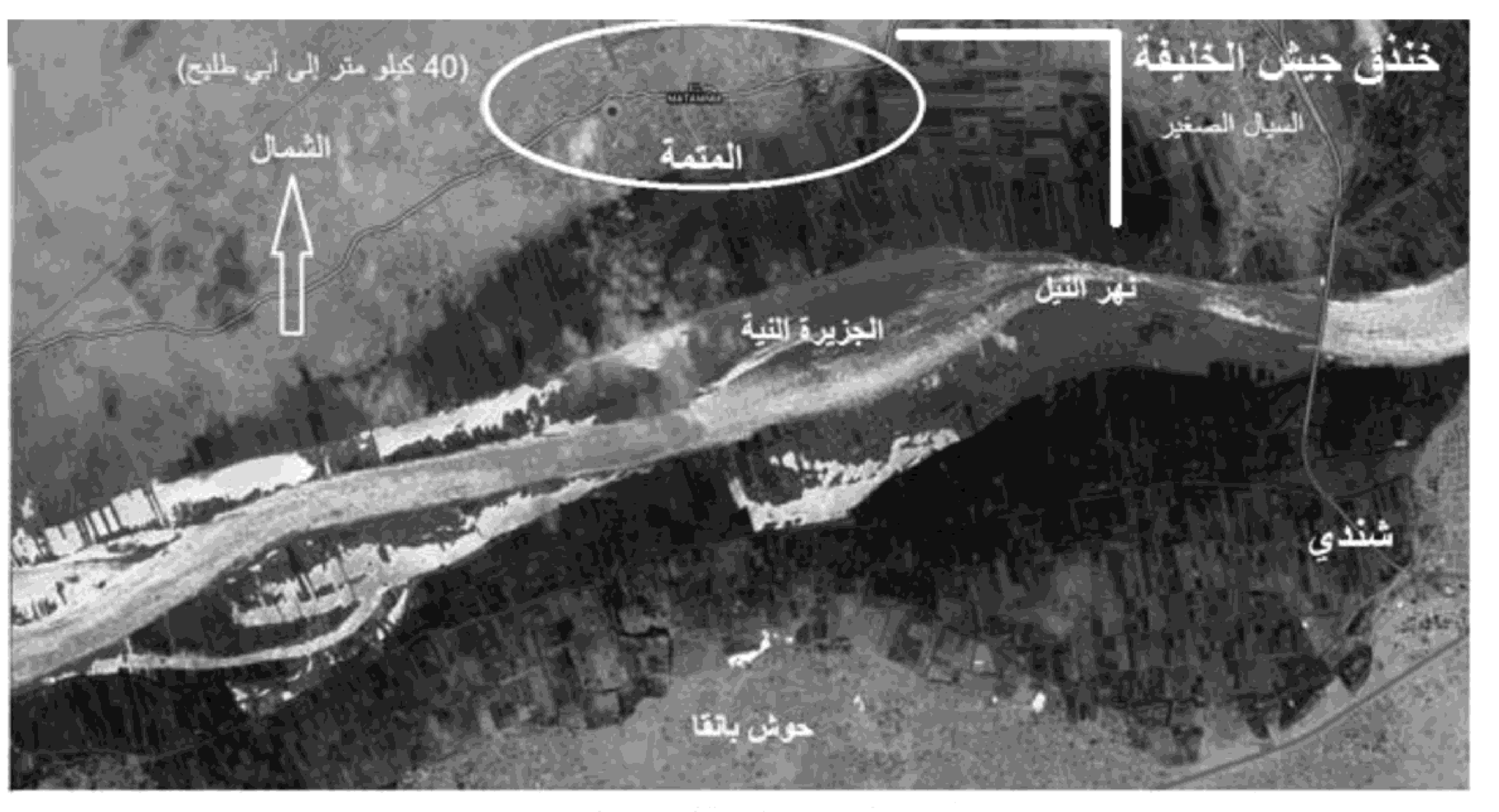
بالجهاد، وفرار أخرين منهم من قراهم ومزارعهم خوفاً من بطش الجنود. أدي كل ذلك إلى تعطيل الإنتاج الزراعي، مع زيادة الطلب على الأغذية لكل هذه الأعداد البشرية الكبيرة وغير المنتجة، والتى تكدست في أمدرمان. وقد زاد الموقف سوءاً وجود ثلاثة جيوش كبيرة ومستهلكة في كل من دنقلا والقلابات ودارفور[٤٣]. وأدق وصف للمجاعة أورده سلاطين باشا في كتابه "السيف والنار" إذ أنه الوحيد من بين المؤرخين الذى عاش بنفسه خلال تلك الفترة في أمدرمان ووصف أهوالها وصفاً دقيقاً.

وعوداً إلى واقعة المتمة – "الكتلة" – والطلب التعجيزي للخليفة من الأمير عبد الله ود سعد بأن يَرْحَلَ الرجال عن المتمة دون نسائهم (من غرب النهر إلى شرقه) ليفسحوا الطريق أمام مسيرة الجيش. فإذا كان عليهم يرحلوا فما كان لهم من خيار إلا أن يتوهوا في الصحراء شمالاً، أو أن يعبروا شرقاً نهرين فائضين في ذلك الشهر من السنة وبينهما جزيرة كبيرة "هي الجزيرة النية"، في مسيرة طولها حوالي ثمانية كيلومترات، وإلى مكان قاحل شرق نهر النيل الذى يفيض على أشده في أشهر يونيو ويوليو وأغسطس من كل عام. وللقارئ أن يتأمل كيف كان سيتأتَّى مثل ذلك الخروج الجماعي لحوالي سبعة آلاف نسمة من الرجال والأطفال والشيوخ، تاركين وراءهم نساءهم ومؤنهم ومتاعهم ومواشيهم، إلى مكان ما كانوا بالغيه من غير وسائل كافية للترحال، وفي وقت وجيز كما أمر الخليفة؟؟ من أين كانوا سيأكلون، ومن أين كانوا سيشربون؟؟ أكانوا سيحفرون أباراً من فورهم أم سيشربون من النهر كما تشرب البهائم؟؟ وهنا نورد في إيجاز بعضاً مما وثَّق له المؤرخ أ. دكتور أحمد إبراهيم أبو شوك في كتابه (السودان – السلطة والتراث) عن موقف أهل المتمة وتداعياته السياسية حيث كتب: "وفور وصوله إلى المتمة دعا الأمير عبد الله ود سعد أهل المتمة إلى اجتماع طارئ أطلعهم فيه على

---

[٤٣] (هولت ص ٨٤) – (شقير ص ١١٣٩-١١٤٠) – (شبيكه ١٩٦٥ ص ٢٦٣) – (سلاطين – السيف والنار ص ٢٠٢ – ٢٠٥) – إبراهيم فوزي – السودان بين يدي كتشنر وغردون الجزء الثاني ص ١٥٤) وغيرهم.

مجريات الأحداث في أم درمان، والقرار الخاص بترحيلهم إلى الضفة الشرقية للنيل. وأوضح لهم اعتراضه على هذا القرار، بحجة أنه سيجدد العار القديم الذى لحق بالجعليين، عندما هجر المك نمر شندي بعد مقتل إسماعيل باشا عام ١٨٢٢م. فوافقه أهل المتمة الرأي، ثم أعلنوا كفرهم الصُراح بالمهدية، وبدأوا يعدون العدة لملاقاة جيش الأمير محمود ود أحمد. وأرسلوا وفداً تحت قيادة الأمير إبراهيم محمد فرح (البيه) إلى مروي، حيث قدم الوفد طلباً إلى الجنرال كتشنر بالحصول على سلاح وذخيرة ورجال



الصورة الجوية لمنطقة المتمة

لمساندة تمردهم ضد الدولة المهدية. وفي هذه الأثناء تقاطرت البلاغات من أمراء الأرباع المعسكرين على مشارف المتمة إلى الأمير محمود ود أحمد وكان مفادها: إن عبد الله وسعد ارتد عن المهدية، وجاهر بالمعصية، وعرَّض بالمتمة وقصد محاربة المهدية[٤٤].

ويمضي الدكتور أبو شوك قائلاَ: "أما رد فعل الخليفة على تمرد الأمير عبد الله ود سعد فقد تجسد في ثلاث خطوات مهمة. تمثلت الخطوة الأولي في سجن زعيم الجعليين، وساعد الإمام المهدي الأيمن في حصار الأبيض، إلياس باشا محمد عبد الله أم برير، ومصادرة كل أمواله، وقدسُجِنَ هو وأولاده (عدا واحدا منهم) في السائر[٤٥] – وهو سجن الخليفة بأم درمان – حيث ظل فيه إلى أن عَمِيَ ومات قبل سقوط أم درمان). وذلك لأن الخليفة علم أن عبد الله ود سعد كان، قبل مغادرته إلى المتمة، مقيماً في منزل إلياس باشا. فردِ إلياس باشا على هذا الإجراء التعسفي بقوله: "من أعان ظالماً على ظلمه سلطه الله عليه[٤٦] ...". ومن ثم قام إبراهيم رمضان، أمين بيت المال العمومي، بتجريد أموال إلياس باشا، ووضعها في بيت المال العمومي تحت بند التجريد والغنائم" إنتهى.

كان السائر سجناً بشعاً كما وصفه وصفاً دقيقاً عدد ممن أمكنهم الفرار منه، وكذلك ممن حُرِّرُوا منه، بعد سقوط الخرطوم. وكانت بشاعتة تكمن في تكدس المساجين في غرف ضيقة شتاءً وصيفاً وهم مكبلون في القيود والأصفاد الحديدية. وكان منهم الزعيم حمد محمد بك الملك[٤٧] والد الناظر الزبير حمد الملك وزعيم المنطقة الواقعة ما بين

---

[٤٤] *عصمت حسن زلفو، كرري، ص ٢٢٨.*

[٤٥] *كتاب سجين الخليفة – لشارلز نيوفَلْد، ١٨٩٩م، الذي تم تحريره من السجن بعد سقوط الخرطوم، وكتاب السيف والنار – لسلاطين باشا، ومراجع أخري كثيرة).*

[٤٦] *(يوسف ميخائيل، ص ٢٠١).*

[٤٧] *(السودان بين يدي وغردون وكتشنر) – الجزء الثاني – إبراهيم فوزي باشا.*

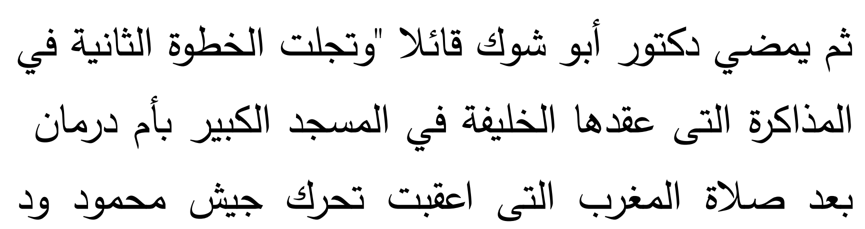
«أرقو ودنقلا العجوز». وكان قد أُتِي به ويداه مكبلتان بأصفاد الحديد حتى تفسختا، أُتِيَ به على ظهر جمل مسيرة شهر من دنقلا إلى أمدرمان، وكان سبب سجنه معارضته لحكم الخليفة عبد الله، ورفضه زواج الخليفة من أخته السيدة آمنة (كما يروي أحفاده وكما يروي حفيدها). وفي الصورة يري الضماد على يده.



حمد محمد بك الملك

بعد إطلاقة من الساير

محمد بك هو ابن حمد الملك، ملك ارقو، وهو من الحاكماب من سلالة حاكم بن سلمي بن سعد الفريد بن الأمير مسمار بن الأمير سرار بن حسن كردم الفوار. والحاكماب من بطون الجعليين وينتهي نسبهم إلى السيد العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم[٤٨].



ثم يمضي دكتور أبو شوك قائلا "وتجلت الخطوة الثانية في المذاكرة التى عقدها الخليفة في المسجد الكبير بأم درمان بعد صلاة المغرب التى اعقبت تحرك جيش محمود ود أحمد من أرض الشفاء شمال أمدرمان، حيث قال الخليفة لجمهور المصلّن: "يا اخوانا أنصار الدين، ان الله ناصرنا على الأعداء الجلابة الجعليين والدناقلة المنافقين!! هم الذين يخربوا البلاد العامرة، وما يدخلوا في مدينة أو اي بلدة إلا خربوها وأساس الخراب ليس حاصل إلا منهم وإن عبد الله ولد سعد هرب من عندنا لأجل ما يتوجه إلى إخوانه الترك والكفار، وان شاء الله يقع في القبضة، ويقتل على يد محمود أحمد .... وان نار الترك التى ظهرت في صدر الجبل ونظرها الأمراء والأنصار، وقتلها ولدنا يوسف القبطي، إن هذه علامة النصر على الترك والكفار بعون الله الملك القهار[٤٩]!!" إنتهى.

[٤٨] *(تاريخ وأصول العرب بالسودان – الفحل الفكي الطاهر – ص ٦٧).*

[٤٩] *يوسف ميخائيل، ص (٢٠٣).*

وهنا يؤكد مؤلف الكتاب الذى بين أيدينا أن السبب الأهم في تلك الوقفة للأمير عبد الله ود سعد وأهل المتمة، كما أسلفنا سابقاً وبتوثيق من زوجة الأمير عبد الله ود سعد سالفة الذكر، وكذلك بشهادة عدد كبير ممن أنجاهم الله من "الكتلة"، هو فتوى العلماء بالذود عن العرض والنفس والمال. ولو أن الجعليين في المتمة رحلوا عن بلدتهم المتمة في ذلك التاريخ انصياعاً لأوامر الخليفة عبد الله، لكان ذلك عاراً أبدياً، لازمهم ولازم أسلافهم من بعدهم ما بقيت ذاكرة التاريخ.


حمد محمد بك الملك
١٨٦٩ – ١٩٣٤م

ويمضي "د. أبو شوك" قائلاً:

" أما الخطوة الثالثة فكانت تتمثل في عدم ارتياح الخليفة عبد الله من مهادنة محمود ود أحمد، للأمير عبد الله ود سعد، ومحاولاته اليائسة لإقناعه بالرحيل من المتمة. لأن الخليفة كان يدرك تماما أن عنصر الزمن مهم في حسم مثل هذه الصراعات. ومن ثم أرسل خطابا عاجلاً للأمير محمود ود أحمد مفاده:

"فنعلمك أيها المكرم أن المبادرة أي الأخذ بالحزم في أمور الجهاد من المهمات، وأن المخذول عبد الله ود سعد قد مضت عليه مدة وهو في عصيانه ومجاهرته بالعداوة .. فبوصول أمرنا إليكم أحزموا أمر الجيش وعاجلوا المخذول بالحرابة"[٥٠].

ثم يقول الدكتور أبو شوك "وفي ضوء هذا الأمر التحريضي أعلن الأمير محمود الجهاد على المتمة، ودخلها عنوة في يوم الخميس الموافق الأول من يوليو ١٨٩٧م. وبعد معركة غير متكافئة بين الطرفين تم القضاء على الأمير عبد الله ود سعد واعوانه (وقطع رأسه وأرسله إلى الخليفة ليستيقن الخبر – المؤلف)، واستبيحت المتمة لعدة أيام. سبيت نساؤها، واخذ أطفالها وأموالها غنيمة إلى بيت المال العمومي بأم درمان.

[٥٠] *عصمت حسن زلفو، كرري، ص ٢٠٩.*

"وواضح من هذا العرض أن قرار إخلاء المتمة قد فرضته ظروف سياسية وعسكرية ملحة، (من وجهة نظر الخليفة، إذ لم تشاركه ذلك الرأي أية قبيلة أخري من قبائل السودان بسبب بشاعة حكمه – المؤلف)، بدليل ان الأمير محمود بعد كتلة (مذبحة) المتمة، شيد معسكره على أنقاض المدينة الجريحة، لمدة ثمانية أشهر (يوليو ١٨٩٧– فبراير ١٨٩٨م)، حيث حفر خندقاً طويلاً شرق المتمة في شكل زاوية قائمة مع النيل، ونصب فيه ترسانته العسكرية لمقاومة بواخر الجيش الغازي القادمة عن طريق النيل. وبث العيون والإرصاد لمراقبة الطريق الصحراوي الذى كان يحسبه منفذاً آخر للقوات الغازية – أنظر الخريطة الجوية لبلدة المتمة.

ومن أشد ما عيب على الخليفة عبد الله، أن جيشه بقيادة الأمير محمود ود أحمد ترك جثث القتلي، رجالاً ونساءً وأطفالاً وشيوخاً، بعد مذبحة المتمة تركها في العراء، طيلة فترة بقائه لمدة ثمانية أشهر شمال المدينة المنكوبة. وقد عسكر الجيش في خنادق على بعد عشرات الأمتار من تلك الجثث في أطراف البلدة (أنظر الخريطة رقم ٢)، التى أصبحت خاوية، إلا من رفات الموتى وأشلاء القتلي المتيبسة والمبعثرة في كل مكان منها. وكانت تلك أحدوثة بشعة تجلي فيها انعدام المروءة، والجهل بأبسط فهم شعائر الدين. فالنبي صلَّى الله عليه وسلم دفن موتي المشركين في القليب بعد معركة بدر، وحتى جيوش كتشنر الغازية دفنت موتى جيوش الأنصار بعد معركة النخيلة وكذلك بعد معركة كرري، التى زاد عدد قتلاها عن عشرة آلاف رجل، ولم يتركوا وراءهم جثث القتلي جزر السباع ونهش النسور كما حدث بعد واقعة المتمة.

غادر جيش محمود ود أحمد المتمة وعبر إلى الضفة الشرقية من النهر. وتعقبته مجموعة مسلحة من الجعليين بقيادة إبراهيم محمد فرح (وناوشته بالأسلحة النارية عبْرَ النهر إلى أن أجلته عن منطقة حوش بانقا، ومن بعد ذلك دفنوا رفات وأشلاء الموتى

بعد مضي ثمانية أشهر على المذبحة[٥١]. وقد عاثت طلائع جيش محمود نهباً وسلباً للغلال والمواشي، وقتلاً لكل من اعترضهم في كل مدن وقرى الجعليين، بالضفة الغربية لنهر النيل، ما بين المتمة وأم الطيور، التى تقع بالضفة الغربية لمدينة عطبرة. وقد عبر النهر إلى الضفة الشرقية كلُ من امكنه العبور طلباً للنجاة.


هربيرت كتشنر
1850 -1916

وبعد سقوط بربر عدل محمود خطته العسكرية، وتحرك شمالاً وعسكر بمنطقة النخيلة جنوب عطبرة، حيث هُزِمَت قواته أمام القوات الغازية (بقيادة اللورد هربيرت كتشنر باشا)، وأُسِرَ مع نفر من أعوانه ومساعديه" ثم أرْسِلَ إلى سجن رشيد في مصر حيث مات سنة ١٩٠٩م.


ونجت باشا يستجوب محمود ود أحمد
بعد واقعة النخيلة - 1898

"وبعد واقعة النخيلة واصل الجيش الغازي زحفه جنوباً (بقيادة كتشنر باشا) إلى ان بلغ الحاضرة أمدرمان، حيث دمر جزءا من قبة الامام المهدي، وهزم جحافل الأنصار والمجاهدين في واقعة كرري في الثاني من سبتمبر١٨٩٨م وبذلك أُسْدِلَ الستار على حقبة مهمة من تاريخ السودان الحديث، تقدر بسبعة عشر عاماً (١٨٨١– ١٨٩٨م)". انتهى.

غادر الخليفة عبد الله وحاشيته وعدد من أتباعه أمدرمان مسرعاً قبيل انجلاء معركة كرري، متوجهين إلى غرب السودان. وبعد حوالي عام تحركت كتيبة من الجيش الغازي بقيادة ونجت باشا ولحقت بهم في أم دبيكرات، جنوب غرب مدينة كوستي، وقضت

---

[٥١] *كتاب (تاريخ القبائل العربية بالسودان) – الفحل الفكى الطاهر، ومصادر أخرى متعددة.*

على الخليفة ومعظم من صحبوه في نوفمبر ١٨٩٩م، كما هو مذكور بكثير من التفاصيل والصور الفوتوغرافية في عدد كبير من المصادر الموثقة.



صورة الخليفة عبد الله بعد مقتله في امدبيكرات
24 نوفمبر 1899م

تحليل وتداعيات واقعة المتمة (٢)

لربما يتساءل المرءِ عن إمكانية تحقيق أيِّ قدرً من النصر، لمثل ذلك الجيش الذى كان يتقدم للتصدي للقوات الغازية والتى وصلت شمال السودان. وهو، أي جيش الخليفة، لا يحمل معه أي مؤن لجنوده، بل يعتمد علي أخذ مأكله غصبا من أقوات المسلمين في القري والأمصار التى يمر عليها، كدأب كل قوات وأتباع الخليفة طيلة فترة حكمه، كما ورد في كل المصادر التى وثقت عن أحداث تلك الحقبة عمن عايشوا تلك الأحداث في مختلف أنحاء السودان، وبخاصة في مناطق زراعة وإنتاج الغلال حول الخرطوم، وفي مناطق الجزيرة والنيلين الأبيض والأزرق وأرض البطانة، وكما يتناقل أسلافهم حتى هذا اليوم الأخبار الكثيرة والمثيرة لتلك الحقبة.

وقد أخذ، سالفاً وفي هذا السياق، كبار علماء الأمة الإسلامية وعظماؤها العبرة بما جاء عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، في وصيته المشهورة، إلى سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنهما) ومن معه من الجنود، وهم متوجهون لمحاربة الفرس: "أما بعد، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب. وآمرك، ومن معك، أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم. وإنما يُنْصَرُ

المسلمون بمعصية عدوهم لله. ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة".

وهكذا تقدم جيشَ الخليفة بقيادة الأمير محمود ود أحمد تتبعه معاصِيَ وذنوبُ جنوده، بما اغترفت أياديهم، من مذابح بشعة، في حق الأبرياء من النساء والأطفال، والرضع والشيوخ، ليس في المتمة وحدها، ومناطق الجعليين، بل من قبْلُ في كثير من أنحاء البلاد، ولا غرو أن لحقت بذلك الجيش هزيمة نكراء في واقعة النخيلة، وهكذا: من سَلَّ سيفَ البَغْيِ قُتِلَ به.

ونواصل مع المؤرخ الكبير أ. دكتور أحمد إبراهيم أبو شوك في كتابه (السودان – السلطة والتراث) عن موقف أهل المتمة وتداعياته السياسية: بقوله تحت فصل في كتابه بإسم "مذبحة المتمة دروس وعبر":

"لم يكن الهدف من ذكر مذبحة المتمة في هذا المقال هو نكْأُ جراحات الماضي التى بدأت تندمل. لكن العبرة تكمن في كيفية استثمار هذا الحدث التراجيدي في إعادة بناء سودان ما بعد نيفاشا (المؤلف: أي سودان ما بعد عام٢٠١٠م) وفق ثوابت يتواضع عليها الحكام والمحكومون ... إلى مرحلة بناء الدولة المؤسسية التى تقوم على قسمة السلطة والثروة، وتنمية الموارد البشرية والمادية. هذا العجز يجب ان يقرأ في إطار الواقع السياسي الذى أعقب وفاة قائد الثورة محمد أحمد المهدي، ودَفَعَ الخليفة عبد الله التعايشي إلى اختزال سيادة الدولة في شخصه. وعندما أحس بخطورة معارضة أبناء المنطقة النيلية لسلطانه الناشئ، وتحصيناً لسلطته أحاط نفسه بافراد قبيلته، واستخدم أدبيات الثورة ضد خصومة السياسيين الذين وصفهم بالردة عن المهدية، فأعلن الجهاد عليهم في أكثر من بقعة من بقاع السودان. "وبهذه الرؤية السلطوية اختزلت سيادة الدولة في السلطة السياسية، والسلطة في شخص الخليفة عبد الله وبطانته، وبذلك فقدت

الدولة المهدية سندها الجماهيري، وتحولت إلى دولة قبلية أكثر من أن تكون دولة قُطرية، ترعى حقوق مواطنيها في المكره والمنشط". انتهى.

وقد أورد الكاتب كمال عباس عدداً من التساؤلات الموضوعية في صحيفة سودان أنلاين بتاريخ ٩ يناير ٢٠٠٥م، حيث قال: "فلنطرح هذه النقاط وليناقشها من يناقشها في أطار ظرفها التاريخي، وبموضوعية، بعيداً عن العواطف، وإسقاط الحاضر على الماضي:

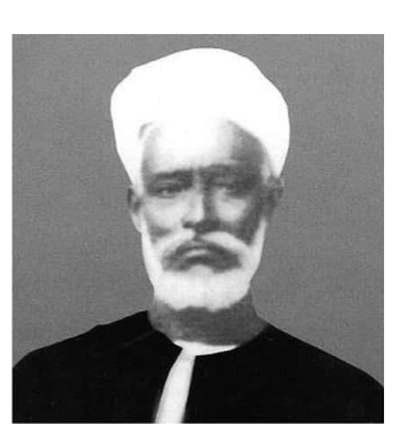
هل ما تم من الخليفة تجاه أهل المتمة من نساء وأطفال ومدنيين سليم؟
وأيهما كان مخطئا الخليفة عبد الله أم عبد الله ود سعد؟
من كان محقا؟ – السلطان على دينار الذى زج به الخليفة في الحبس، أم الخليفة نفسه؟ وهو الذى هرب عشية كرري إلى الغرب؟
ما رأيكم في اغتيال مادبو الكبير زعيم الرزيقات بواسطة دولة المهدية الوليدة؟ وفي اغتيال التوم ود فضل الله ابن زعيم الكبابيش (ثم لاحقا الشيخ صالح) بواسطة قوات المهدية؟
وما هو رأيكم في خرق الخليفة لاتفاق الصلح الذى رعاه على ود حلو والذى كان يقضي بتسليم الأشراف سلاحهم مقابل العفو عنهم؟
وما رأيكم في إعدام ما يقارب ٢٠٠ رجل من البطاحين بواسطة الخليفة في صباح يوم واحد؟
يقضي بتسليم الأشرافِ سلاحَهم مقابل العفو عنهم؟
وما رأيكم في حبس محمد أحمد أبو سن (الحاردلو) وقيادات الشكرية بواسطة الخليفة؟
وما رأيكم في غزو الحبشة في وقت كان ملك الحبشة فيه يدعو للتوحد ضد الأوربيين؟
وفي دعوة وتهديد الخليفة لحكام العالم بالحرب والغزو، إن لم يتبعوا فهمه للإسلام والمهدية؟" – انتهى.

وعوداً على بدء ما ذكرنا في مستهل هذا السرد لوقائع الجعليين، يتساءل الكثيرون عن الكتُّاب الذين يدافعون عن مسلك الخليفة عبد الله، بل عن أي مسلم قابض على دينه، يتساءلون: لو كان أحدهم في مكان الأمير عبد الله ود سعد، وطلبَ مِنْه أيٌّ من كان، أن يخرج من بلده، ويترك ما وراءه لإستباحة الغزاة الأعراض ولتخدمهم حرائره وحرائر قومه من أمهات وزوجات وبنات وأخوات وعمات وخالات، ما ذا كان فاعلاً؟؟ ... هل كان غيوراً مدافعاً عن عرضه، ومستشهداً دونه، كما فعل الجعليون، امتثالاً لقول النبي صلَّى الله عليه وسلم كما ورد في الصحاح – "من مات دون عرضه فهو شهيد ..." أكان كاسباً أجراً ومسجلاً عزاً وفخراً باقياً؟ ... أم كان ديوثاً فاراً تاركاً أعراضه تُنْتَهَب وكاسباً ذنباً ومسجلاً خزياً وعاراً وشناراً باقياً ما بقي التاريخ في الذاكرة؟

وبهذا الصدد، تجدر الإشارة إلى أن ضعف الغيرة علامة على سقوط الرجولة، بل وعلي ذهاب الدين. وأشرفُ الناسِ وأجدُّهم وأعلاهم هِمَّةً هو من كان أشدَّهم غيْرَةً على نفسه وخاصته وعلي عموم الناس. ولذلك كان النبي صلَّى الله عليه وسلم أغيرَ الخلقِ على الأُمّة، والله سبحانه أشدُّ غيرةً منه، كما جاء في صحيح الحديث. وقد قال صلَّى الله عليه وسلم كما ورد في الصحاح "ثلاثةٌ قد حَرّمَ اللهُ – تَبَارَكَ وَتعالى – عليهم الجنةَ: "مُدْمِنُ الخمرِ، والعاقُّ، والدّيّوثُ الذى يُقِرُّ في أَهْلِهِ الخُبْثَ". والدَّيُّوْث كما ورد في «الصحاح في اللغة» هو «القُنْذُعُ، وهو الذي لا غَيرةَ له». وفي الثقافة الصينية، ترمز «القبعة الخضراء» للديوث، وفي معظم لغات العالم يوجد مقابل لهذه الكلمة. وعدم الغيرة موجود عند قليل من الأحياء من بشر وحيوان وطيور وأسماك. وقد نزع الله الغيرة من فصيلين من الحيوانات ذوات الثدي – القرود والخنازير، ومسخ على خصلتيهما تلك عدداً من البشر كما جاء ذكره في القرآن الكريم.

وللمرءِ أن يعجب من كل ذلك التزييف الذى جرى، والتستر الذى يجري عن تلك الحقب المظلمة من تاريخ الأمة، والتى تركت أحداثُها جروحاً غائرة، لا يمحوها التجاهل والتجهيل، وهي أحداث عرف أهوالها معظم "قبائل البحر"وبخاصة قبائل الجعليين.

ما بعد "كتلة المتمة"


إبراهيم بيك محمد فرح
ناظر عموم الجعليين 1898-1926

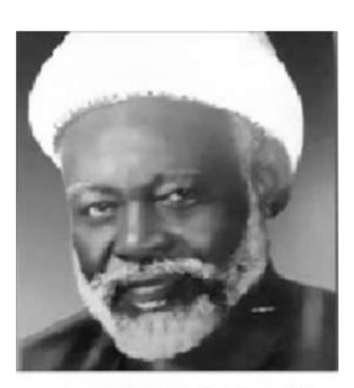
تغير الوضع بعد "كتلة المتمة" التى هجر الجعليون بسببها ديارهم مرة اخري. فهاجر العوضية للجزيرة وهاجر العدلاناب لدنقلا وهاجر السعداب للبطانة. وتألبوا كلهم ضد الخليفة عبد الله، كما تألبت قبائل كثيرة ضده بسبب ما وقع عليهم من جوره وبطشه. فشارك الجعليون ومعظم قبائل وسط السودان، شاركوا القوات الغازية في إنهاء حكم الخليفة. وبعد موقعة كرري وسقوط دولة المهدية رجع الجعليون جميعا لديارهم، بعد أن عين كتشنر الشيخ ابراهيم محمد سليمان فرح ناظراً لعموم الجعليين (١٨٩٨–١٩٢٦م)، الذى عمل علي استرداد حقوقهم من المهدية، وصارت الديار آمنة في عهده، وتولي النظارة بعده في عام ١٩٣٣م إبنه حاج محمد (١٨٩٨–١٩٥٩م)، ثم آلت إلي حفيده إبراهيم حاج محمد (١٩٥٩–٢٠٢٠م). وتم تعيين صلاح إبراهيم حاج محمد ناظرا لعموم الجعليين، خلفا لوالده، وكان ذلك بتوافق مشائخ وعمد وأعيان القبيلة في مطلع ٢٠٢٠م. وكان في عام ١٩٦٩م أن ألغي الرئيس جعفر نميري الإدارة الأهلية.

يتناول الفصل التالي العلاقة بين الجعليين وآل المهدي.



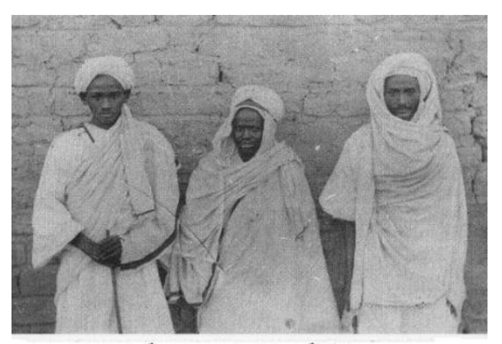
الفصل الخامس

التقارب بين الجعليين وآل الإمام المهدي


السيد عبد الرحمن المهدي
1885-1959م

كان الجعليون، ولا زالوا حتى يومنا هذا، يُكِنّون وداً حميماً لآل المهدي وأنصاره. ومن أجمل آيات الوفاء، ما كان من لقاءات السيد عبد الرحمن المهدي المتكررة وحفاوته البالغة بناظر الجعليين حاج محمد إبراهيم فرح وإخوانه، رحمهم الله. وقد حضر مؤلف هذا الكتاب، وهو طالب في الثانوي، بعضا من تلك اللقاءات، في معية عمه الحاج محمد،.

ولد السيد عبد الرحمن بأم درمان بعد وفاة والده الإمام محمد أحمد المهدي ببضعة أسابيع. وحفظ القرآن الكريم في سن باكرة، ولعب دوراً بارزاً في حركة "مؤتمر الخريجين"، والتف حوله عدد من الخريجين والمثقفين. وكان يدفعهم، في أيام الإستعمار، نحو مطلب الاستقلال التام.


صورة لثلاثة من ابناء المهدي الاربعة عام 1898
في الوسط عبد الرحمن والاثنان الآخران هما الفاضل والبشري

أسس السيد عبد الرحمن صحيفة "حضارة السودان" في عام ١٩١٩م، وصحيفة "النيل" في عام ١٩٣٥م. وأسس حزب الأمة الذى كان شعاره "السودان للسودانيين" في عام ١٩٤٥م. وقد عارض الدعوة إلى الاتحاد مع مصر، والدخول تحت التاج المصري. كان متحمسا للتعليم بشقيه الديني والنظامي وتعليم البنات، وظل يعمل بقوة في سبيل الاستقلال حتى اتفق مع الاتحاديين علي ذلك، وتم إعلان الاستقلال في ١٩ ديسمبر ١٩٥٥م، وتم جلاء الإنجليز عن السودان في أول يناير عام ١٩٥٦م. وقد ذكر الشيخ الفحل، في كتابه عن السيد عبد الرحمن المهدي قائلا: "فله فضل السبق والثبات على مبدأ "السودان للسودانيين". وكفاه شرفاً كلمته الخالدة: "لا شيع ولا طوائف ولا أحزاب. ديننا الإسلام ووطننا السودان".

"رحم الله الأمام عبد الرحمن الذى ضمد جراحات تلك الفترة" ... (كمال عباس).

زيارة السيد عبد الله الفاضل للمتمة


السيد عبد الله الفاضل
1896-1966

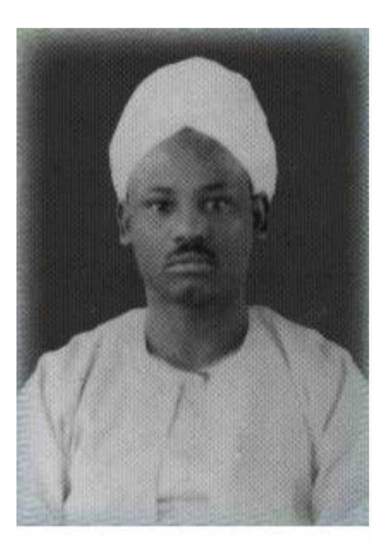
ومن أجمل آيات الوفاء، ما كان من الاحتفاء الكبير بالسيد عبد الله الفاضل المهدي (أكبر أحفاد الإمام المهدي، والذى كان عضواً في المجلسين الثالث والرابع لرئاسة السودان) عندما زار نظارة الجعليين في المتمة في عام ١٩٤٣، وما قدمه للسيدة فاطمة بنت حمد سالفة الذكر، وأرملة الأمير عبد الله ود سعد. وما تبادله مع عدد من أكابر الجعليين، من عزاء للطرفين. وكان ذلك في لقاء مؤثر ذرفت له الأعين، وأجهش هو فيه بالبكاء وكثير ممن حضر، على ذكر تلك النكبات، التى أصابت الطرفيين، في عهد حكم الخليفة عبد الله، بعد وفاة الإمام المهدي. ثم ما تلقاه السيد عبد الله الفاضل من حفاوة بالغة، من الأرباب سعد ابن عبد الله ود سعد، بالمتمة.


صورة نادرة للخليفة محمد شريف وأحد أتباعه وهما مقيدان (1898)

وكان العزاء أيضا فيما أصاب آل المهدي من نكبات لا تقل فداحة بعد سقوط دولة المهدية عام ١٨٩٨م، وذلك حين أعدم كتشنر، في العام نفسه في قرية الشكابة، ابني المهدي – البشري والفاضل (والد السيد عبد الله الفاضل) وكذلك الخليفة محمد شريف ابن عمهما، وصهر الإمام المهدي. أعدموا رميا بالرصاص. وكان معهما السيد عبد الرحمن الذى أنجاه الله من الموت. وقد قيل إنه جرح وأُخْفي ثم تعافي. وقبل ذلك استشهد محمد بن المهدي في معركة كرري، واستشهد بعد ذلك الصديق بن المهدي في

أم دبيكرات. وكان الإنجليز يتخوفون من قيام تجمعات جديدة حول من تبقي من رموز الثورة المهدية.

وفاء السيد الصديق المهدي لناظر الجعليين

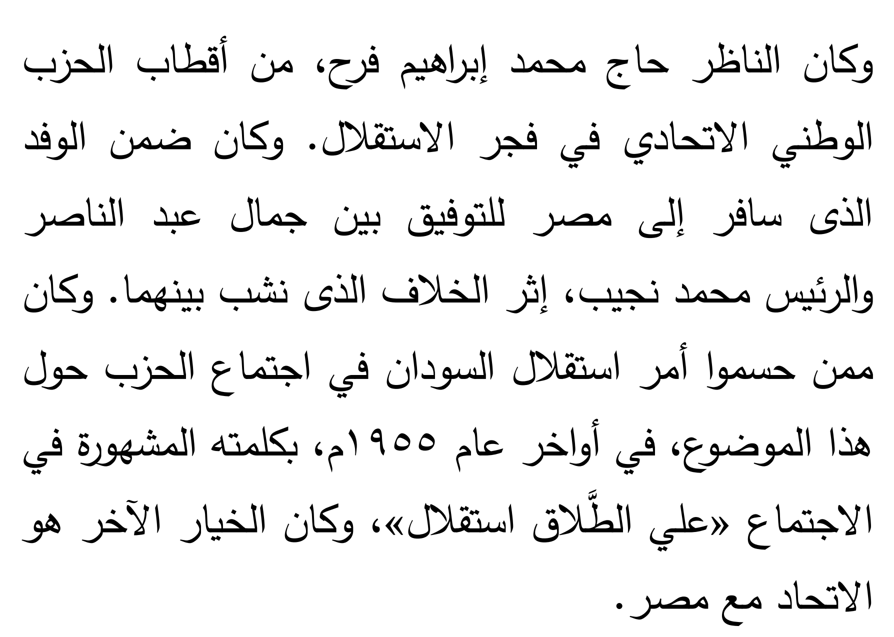


الصديق عبد الرحمن المهدي
1961-1911

ومما لا ينساه الجعليون، ما كان من السيد الصديق المهدي، حين أمر في حفاوة بالغة، بنقل جثمان ناظر الجعليين حاج محمد إبراهيم فرح، على ظهر الباخرة "الطاهرة" إلى المتمة بعد وفاته في مستشفي الخرطوم في سبتمبر عام ١٩٥٩م. وكان الكاتب ضمن عدد كبير ممن أقلتهم الباخرة مروراً بقرى الجعليين التى خرجت في مواكب حزينة، تشييعا لفقد زعيمها وشاكرة لآل المهدي.



الناظر حاج محمد إبراهيم فرح
1898-1959م



وكان الناظر حاج محمد إبراهيم فرح، من أقطاب الحزب الوطني الاتحادي في فجر الاستقلال. وكان ضمن الوفد الذى سافر إلى مصر للتوفيق بين جمال عبد الناصر والرئيس محمد نجيب، إثر الخلاف الذى نشب بينهما. وكان ممن حسموا أمر استقلال السودان في اجتماع الحزب حول هذا الموضوع، في أواخر عام ١٩٥٥م، بكلمته المشهورة في الاجتماع «علي الطَّلاق استقلال»، وكان الخيار الآخر هو الاتحاد مع مصر.

ومما يُذْكَرُ عن السيد الصديق المهدي، أنه بويِعَ إماماً للأنصار في ٢٥ مارس ١٩٥٩م، بعد وفاة والده الإمام عبد الرحمن المهدي. ومن التاريخ المشرق له في تلك الفترة قيادته معارضة النظام العسكري قومياً، حيث كان بيت الأمة، هو مركز

المعارضة، "مجمع بيت الإمام المهدي". وبادر بكتابة العديد من المذكرات: حتى اعْتُبِرَت وفاته بحق ضربة أساسية لحركة المعارضة للحكم العسكري.

ومن أجمل ما كتب السيد الصديق عن الروح القومية للأمة وصيته التى أملاها وهو على فراش المرض، وبحضور الأطباء وعدد من الشهود، بعد أن طلب أن يمثل أمامه نجله السيد الصادق المهدي، فقال: "إننا لا نكن عداء خاصاً لأحد. وليس لنا مطلب خاص. وإن مطلبنا هو مطلب البلاد قاطبة، في أن تحكم بالشورى والديمقراطية. وأن يعطى الناس الحريات الأساسية فاحرصوا على تحقيق هذه المطالب مهما كلفكم الحرص". وقال في الشأن الأنصاري: "بعد وفاتي يتألف مجلس شورى برئاسة السيد عبد الله الفاضل المهدي، وعضوية السادة: الهادي، ويحيى، وأحمد والصادق (ابنه)، ويرعى هذا المجلس شئوننا الدينية والسياسية، بكلمة موحدة، حتى تنقضي الظروف الحالية في البلاد. وعندما تلتفتوا لأمر اختيار الخليفة الذى يكون إماماً، يكون ذلك عن طريق الشورى بقرار الأنصار".

ويا لها من وصية تضاهي في عظمتها شعار السيد عبد الرحمن "السودان للسودانيين". وهذه النظرة الأبوية الحادبة على أبناء الوطن جميعا هي خصلة من أجَلِّ سمات العظماء. وقد كان الشيخ زائد بن سلطان آل نهيان مثلاً لذلك. وهي خصلة من الفطرة السليمة، وهى أكثر ما تجلت في صحابة رسول الله صلَّى عليه وسلم وخلفائه الرشدين. فكان الواحد منهم راعياً لكل الأمة، ومسئولاً عنها. ومن أحسن ما قيل في ذلك بعد الحديث الشريف، قول الشاعر الأموي، ابن بيض، في مدح الأمير خالد بن عبد الله القسري، أحد أمراء الدولة الأموية، وكان أميراً غريب الأطوار، قال فيه:

قد كان آدم قبل حين وفاته ... أوصاك وهو يجود بالحَوْبَاءِ

ببنيه أن ترعـاهم فرعيتهم ... وكفيتٍ آدَمَ عَيلَةَ الأبْـنَاءِ

والحوباء هي الروح. وقد ورد ذكر هذين البيتين من الشعر في طرفة أدبية[٥٢]. إذ دخل الشاعر ابن بيض، على ذلك الأمير فقال "إني مدحتك ببيتين قيمتهما عشرة آلاف درهم، فأحضر الدراهم حتى أنشدهما. فأمر الأمير بإحضار الدراهم فأنشده البيتين. فدفع إليه الدراهم. وأمر أن يُضْرَبَ أسواطاً، ويناَدَى عليه: هذا جزاء من لا يعرف قيمة شعره. ثم قال: إن قيمتهما مائة ألف". أما كتاب "سرح العيون في شرح رسالة بن زيدون" الذى ورد ذكره آنفاً فهو تحفة في قمة روائع الأدب العربي[٥٣].

تسامح الجعليين

وفي ختام هذا الفصل نذكر أنه، رغماً عن كل تلك المآسي التاريخية التى حلت بالجعليين، فإن واحدة من خصالهم لم تتغير، وهي التسامح عما مضى، وعدم أخذِ أحدٍ بجريرة غيره. ونوثق لذلك بقصة يرويها الإداري السيد عبد الله على جاد الله، الذى سبق ذكره، وهو حفيد الأمير حاج علي ود سعد، والوزير سابقاً على عهد الرئيس نميري. قال إنه في السبعينيات من القرن الماضي ذهب لعزاء السيد عبد السلام الخليفة (ابن الخليفة عبد الله التعايشي) في وفاة ابن أخ له. وذكر أن السيد عبد السلام كان رجلاً في غاية التهذيب ودماثة الخلق. وقد حكى



عبد الله علي جاد الله
1924 ...

له أنه عندما كان في السلك الإداري في أوائل الثلاثينيات من القرن الماضي، أنه نُقِلَ مأموراً لمركز ود حامد (حاليا محلية ود حامد جنوب محافظة المتمة). وكان يوجد في تلك الأيام، في كثير من أنحاء السودان، مراكز صغيرة مساعدة للمراكز الرئيسة، كمركز شندي، ومراكز كل من الدامر وبربر وود مدني وغيرها. وقد أغلقت جميع تلك المراكز

[٥٢] كتاب "سرح العيون في شرح رسالة بن زيدون"– ص٢٩٥

[٥٣] لمزيد عن ذكر بعض أحداثٍ هامة في التاريخ الإسلامي انظر الملحق الثاني.

الصغيرة بسبب تداعيات الأزمة العالمية الكبرى على أوروبا، وعلى باقي دول العالم عقب "الكساد الكبير أو الانهيار الكبير" الذى ضرب أمريكا في عام ١٩٢٩م، والذى كان يعد أكبر وأشهر الأزمات الاقتصادية في القرن العشرين.

قال الأستاذ عبد الله، إن السيد عبد السلام بن الخليفة عبد الله، أخبره أنه عند ذهابه للعمل في مركز ود حامد كان متخوفاً من ردود فعل الجعليين تجاهه. إذ أن أحداث عهد والده الخليفة عبد الله، وبخاصة واقعة المتمة، لم يمضِ عليها إلا حوالي بضع وثلاثين سنة. ولم تكن ذكراها غائبة عن أذهانهم، وأن كثيرا منهم كانوا ممن حضروا أهوالها وأصابهم منها ما أصابهم من قروح. ولكنه ذهل، رغماً عن تلك الذكريات المؤلمة، من الحفاوة والإكرام الذى لقيه من عامة الجعليين، ليس في بلدة ود حامد وحدها بل في كل المنطقة. وهل هنالك أصدق من مثل هذه الشهادة فيما ذهبنا إليه في القول عن تسامح الجعليين؟

وقدعلق عالم الكيمياء محمد إبراهيم عمر خلف الله بقوله: "أن تلك الأحداث في تاريخ الجعليين توضح مدي قوة مقاومتهم ومقدرتهم على البقاء والعطاء، وأن سيرتهم لم تندثر رقم الصعوبات التى واجهوها عبر مسيرات شاقة في تاريخهم. وعسى أن يكون في تلك السيرة تحفيراً لشباب الأجيال الحديثة للرجوع إلى قيم وتقاليد أسلافهم والتمسك بها، إذ أن تلك القيم والتقاليد هي التى حفظت كينونة أسلافهم عبر حقب تاريخية محفوفة بالمخاطر، وجعلتهم يقدمون عطاءً وفيراً لكثير من قبائل السودان".

ويتناول الفصل التالي مسيرة السودان خلال القرن التاسع عشر.



الفصل السادس

مسيرة السودان خلال القرن التاسع عشر

(١٨٢١- ١٨٨٩م)

السودان قبيل العهد التركي

في مقارنة موجزة للحقب التاريخية خلال حوالي قرن ونصف من الزمان (١٨٢١-١٩٥٥م)، أي من قبل الغزو التركي إلى نهاية الحكم الثنائي (الاستعمار المصري البريطاني)، نجد باتفاق كل المصادر أن السودان في وسطه وشماله وغربه، كان قبل الغزو التركي دويلات قبلية متفرقة ومعزولة عن بعضها البعض، ولكل دويلة منها ملكها (أو مكَّها) الخاص بها. والذى عادة ما يرث زعامتها عمن قبله ممن ارتضته القبيلة زعيماً لها. ولكن رغماً عن ذلك، كان يجمع بين تلك القبائل في الإطار العام، كان يجمع بينها الدين الإسلامي وقيمه، والإرث العربي، من مثل حميدة وتقاليد ومصاهرة. وقد كان هناك رابط ضعيف يربط معظم تلك الدويلات مع المملكة السنارية وهو ولاؤها الإسمى لتلك المملكة. ثم جاء في عام ١٨٢١م الغزو التركي، وكان له هدف واحد وهو الحصول على الثروات من ذهب وعاج وريش ورقيق، فقضى على كل تلك الدويلات وقضى على المملكة السنارية نفسها، ثم استمر متسلطا على البلاد لمدة ستين سنة، كانت وبالاً على معظم أهل السودان. ولم يُعْرَفْ لذلك العهد عطاء في أى منحى، فكرياً كان أم اجتماعياً أم اقتصادياً، ذي فائدة مقدرة. ولم يذكر التاريخ عنه شيئاً غير أخذه الجبايات المجحفة، واتسامه بالقتل والتعذيب والتنكيل بالناس، كما ورد ذكره في الفصول السابقة من هذا الكتاب.

دولة المهدية في عهد الإمام المهدي

(١٨٨٠-١٨٨٥م)

كان من تداعيات عهد الحكم التركي البشع أن هبت ضده الثورة المهدية في عام ١٨٨٠م، واشتعلت في معظم أنحاء البلاد، بمناصرة كل القبائل المسلمة في أواسط

وغرب السودان. وكان السبب في نصرة تلك القبائل للثورة المهدية ما حاق بها من ظلم الحكم التركي والاكتواء بنيرانه. ولم تكن نصرتهم لها بسبب ظهور المهدي المنتظر كما يظن البعض، إذ كان بين أهل السودان علماء وفقهاء، كثير منهم أزهريون، يعلمون حق العلم ما جاء عن النبي صلَّى الله عليه وسلم (في أحاديث الساعة التى وردت في صحاح كتب الحديث عن علامات الساعة الكبرى) عن أن ظهور المهدي المنتظر من آخر العلامات الكبرى للساعة، وأن وقته لم يكن قد حان. إذ أن المهدي سيظهر ويبايعه الناس في مكة المكرمة، بعد أن يؤمها نفر من الناس ويغادرونها ثم يخسف الله بهم، ثم يظهر في أيامه المسيح الدجال. ويُنَزِّلُ اللهُ في أيامه المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، ويصلِّي عيسى خلف المهدي، إلى آخر ما ورد من خبر طويل في الأحاديث الشريفة. والمسيح الدجال لم يظهر بعد. وعيسى عليه السلام لم ينزل حتى يومنا هذا. وبعد سقوط الحكم التركي كان كثير من العلماء وزعماء القبائل يتطلعون إلى دولة سودانية إسلامية موحدة، على غرار الدولة السنارية أو ما يشابهها. وبينهم من كان يطمح أن يتم ذلك تحت راية مسيرة قائدها مثل الإمام المهدي. إلا أن دعوته بأنه هو المهدي المنتظر قد أربك تلك المسيرة.

وكان كثير من الناس يأملون في أن يَعْدِلَ المهدي عن تلك الدعوة التى رفضها وراجعه في عدم صحتها كثير من علماء عصره. والتى أفتى الأزهر الشريف ببطلانها، بسبب النصوص الدينية البينة في شأنها. وقد أجمع معظم علماء المسلمين على أن نبي الله عيسى عليه السلام ينزل من السماء إلي الأرض في آخر الزمان. قال الله تعالي: (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عليهِمْ شَهِيداً) {النساء:٥٩}، وقال تعالي: (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) {الزخرف:٦١}. والمعنى[٥٤]: أن عيسى عليه السلام آية من آيات الساعة. وما من أحد من أهل الكتاب، النصارى واليهود، إلا سيؤمن بعيسى عليه السلام عندما ينزله الله إلي

[٥٤] كتاب *(البحار:٥٣٠/١٤)*.

الدنيا ويرونه ويرون آياته. قال الإمام الباقر رضي الله عنه: (ينزل عيسي قبل يوم القيامة إلي الدنيا، فلا يبقى أهل ملة يهودي ولا نصراني إلا آمن به قبل موته، ويصلَّى خلف المهدي).

ثم تبددت تلك التطلعات نهائياً بوفاة المهدي في منتصف عام ١٨٨٥م ولما تمض عدة شهور على اندحار ما تبقي من قوات الأتراك بسقوط آخر حامياتهم العسكرية في مدينة بربر، وعلى صد الكتائب البرية في معركة "أبو طليح" والتى كانت تتجه إلى الخرطوم، في محاولة فاشلة لإنقاذ غردون باشا كما ذكرنا في الفصول السابقة.

وقد عُرِفِ الإمام المهدي بالزهد والورع، وقد كتب عنه الشيخ الفحل، الذى كان يافعاً، وقت دخول المهدي أمدرمان وقد شاهده فيها. كتب عن نسب الإمام المهدي(٥٥):

"أما عن الإمام المهدي وما خصه الله به، فالشمس طالعة تغنيك عن زحل. فإن والده السيد عبد الله ابن السيد الفحل جاء من جزيرة الأشراف بدنقلا إلى شندي، وكان يعلم القرآن بحلة الشقالوا الجعليين، أولاد العباس عم رسول الله صلَّى الله عليه وسلم – وتزوج زينب بنت نصر عبد السلام، ولد أبو جميل الشقلاوي الجعلي العباسي. ولذلك قال الامام المهدي في منشور النسب، فإنة لي صلة بالعباس عم الرسول صلَّى الله عليه وسلم، فإن أمي من أبيها وأمها عباسية"، فأولدها ابنه السيد محمد وأخذها إلى جزيرة الأشراف، وهناك وضعت الامام محمد أحمد المهدي... اما عما خص الله به الامام المهدي فلا أستطيع أن أكتب عنه، لأنه كثير. وله فتوحات عديدة، ومواقف شريفة، وصبر وجهاد وزهد في الدنيا لأجل ربه. وقد ملكها وهو في بيته جائع طاوٍ حتى لَقِيَ ربه. وكفاه شرفا أنه حرر بلاد السودان من استعباد المصريين والأتراك والإنجليز، بقتل الطاغية غردون وهكس وولسلي وسندرس وغيرهم. وأعاد إلى البلاد شرف الاستقلال. واستقلالنا اليوم من يده البيضاء لأن دول العالم اعترفت أننا دولة قائمة قديمة. فجزاه

---

(٥٥) *(تاريخ وأصول القبائل العربية بالسودان – الفحل الفكي الطاهر).*

الله عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء" – انتهى.

عن وفاة الإمام المهدي

"تفقد المهدي مدينة الخرطوم في آخر يوم من شعبان ١٣٠٢هـ (يونيو ١٨٨٥م) في آخر زيارة لها قبل وفاته، "فازعجه ميل بعض الانصار عن التقشف والزهد وإيثارهم لحب الدنيا وسكناهم في قصور أعيان الخرطوم وباشواتها من المستعمرين ... فخطب خطبة الجمعة الاخيرة في مسجدها وقرع ذلك المسلك تقريعا عنيفا ... وتلي قوله تعالي (وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ). ... الآية ٤٥ – سورة ابراهيم ... وكانت تلك اخر صلاة له بمسجد مدينة الخرطوم([٥٦])" ...

توفي المهدى فى ثامن ايام رمضان ١٣٠٢ هجرية الموافق ٢٢ يونيو ١٨٨٥م، ولم يتجاوز عمره الثانية والاربعين عاماً، ودفن في ذات الحجرة التى توفي فيها ... وهي التى بني عليها ضريحه الحالي والمعروف بـ "قبة المهدي". وكان لخبر وفاته صدي في الأحداث العالمية كتبت عنه كبري الصحف البريطانية، واحدي كبريات الصحف الروسية. وفي الذكري الخامسة عشر لوفاة المهدي كتبت صحيفة "يورك هرالد"، واسعة الانتشار مقالا خلصت فيه إلى أن المهدي كان رجلا عظيما ... كما اشارت الي انه لم يُهزم في معركة قط طوال حياته.

وتناول الخبر المؤرخون البريطانيون، فكتب ونستون تشرتشل رئيس وزراء بريطانيا الأسبق .,. في تقييمه لأحداث الثورة المهدية والتى عاصر أحداثها كمراسل حربي ومؤرخ، وعن إنجازات المهدي في آخر سنوات حياته الأربعة بقوله: "مهما قيل عن المهدي، فيجب ان لا ننسي انه القائد الذي بث روح الحياة والامل في قلوب بني وطنه. لقد كان هو الزعيم الذي حرر بلاده من الحكم الأجنبي وحول شعبه من حياة بائسة بلا

([٥٦]) *أوراق السيد علي المهدي، نسخة بخط يد الشيخ سليمان اديب، ص ٨٩، دار الوثائق السودانية.*

أمل الي حياة مفعمة ومليئة بالروعة[٥٧]".

كما علق أستاذ التاريخ البريطاني البروفيسور ثيوبولد على انجازات المهدي في حياته القصيرة، قائلا: " كانت شهرة محمد احمد المهدي كفيلة بان تحفظ اسمه للأجيال القادمة من بني وطنه ... في خلال أربع سنوات ... صنع مجده من العدم ... وانتصر انتصاراً كبيرا على قوتين دوليتين تفوقانه عدة وعتادا (بريطانيا وتركيا) ... قام بوضع أسس الدولة الوطنية الجديدة ... كما قام بدعوة إصلاحية استهدفت إصلاح ما فسد من دين شعبه القيم[٥٨]".

وقد علق أحد الكتاب قائلا: "وصفوة القول ان الامام المهدي قد عاش حياة قصيرة بحساب الزمن والارقام ... كما لم تتعدي فترته في القيادة الأربع سنوات إلا انها كانت حياة حافلة بالعديد من الوقائع والأحداث التى أسهمت بقدر كبير في تشكيل ملامح السودان الحديث .. ولم يخلف ورائه إرثا هائلا من الادبيات المكتوبة في الذاكرة الوطنية والغربية وحسب بل خلف ورائه دولة وطنية متكاملة الأركان ... كانت الدولة الوحيدة المستقلة في افريقيا القرن التاسع عشر ... وبقيت تقاوم الاستعمار البريطاني بشراسة حتى نقطة النهاية".

دولة المهدية في عهد الخليفة عبد الله

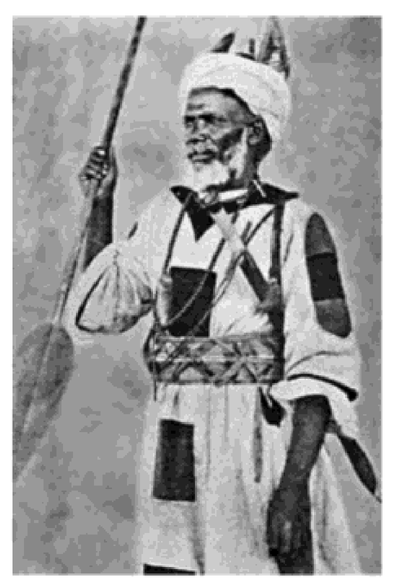
(١٨٨٥-١٨٩٨م)

بدأت غيوم المآسي والأحزان تتجمع وتتلبد بكثافة فوق سماء الخرطوم، منذ أول يوم لسقوطها، بدخول الثوار الأنصار فيها واستباحتهم لأهل المدينة، من المصريين والسودانيين والأجانب، من موظفي القنصليات وغيرهم، قتلاً وسلباً للأموال، واستباحة للعروض، وسبياً للنساء، وتعذيب الكثيرين حتى يُظْهِروا أموالهم. وكان كل ذلك بدعوي

[٥٧] *ونستون تشرتشل، حرب النهر، نسخة الكترونية بتاريخ ٢٠١٣هـ، ص ٥٢-٥٣).*

[٥٨] *ا. ب. ثيوبولد، (المهدية: تاريخ السودان البريطاني المصري)، لندن، ١٩٦٥م، ص ١٣٠.*

أنهم كلهم كفار لم يستجيبوا لدعوة الإمام المهدي. ولم ينج من تلك الأهوال إلا قلة ممن شردوا أو ممن أُلْقِي بهم في السجن، أو ممن أُبْقِي عليهم للعمل في مصنع البارود والخرطوش، الذى صار فيما بعد العامل الأساسي، في دعم جيوش الخليفة واستقوائها بالأسلحة النارية علي كل القبائل التى ناوأت حكمه، والتى لم تكن تنقصها العزيمة ولا الرجال بل فقط السلاح المكافئ. ولا طائل من ذكر تفاصيل تلك الأحداث التى تزخر بها كتب المصادر الأولية لتاريخ تلك الحقبة والتى كتبها الذين حضروها[٥٩] من بداياتها، من أمثال سلاطين باشا الذى هرب في سنة ١٨٩٥م بعد عشرة سنين من الأسر. وأمثال الأسيرين الأب أورهالد، والأمريكي بايرن فارويل مؤلف كتاب "اسير المهدي"، اللذين أخرجا من السجن بعد سقوط دولة المهدية في سنة ١٨٩٨م.


صورة للخليفة عبد الله

لقد أجمع عدد من الرواة على أن الإمام المهدي، قبيل حين وفاته في سنة ١٨٨٥م، أبدى تراجعاً عن دعواه أنه المهدي المنتظر. وقد ذكر البعض أن بوادر ذلك التراجع لم تَرُقْ للخليفة عبد الله ود تورشين، الذى استلم الحكم بعد وفاة الإمام محمد احمد المهدي، وبوصية منه بأن تؤول الخلافة إليه من بعده.

وقد ظل الخليفة عبد الله، منذ بداية عهد حكمه يَدَّعِي انه يأتمر بأوامر النبي صلَّى الله عليه وسلم، ويتلقى الأوامر في "الحضرة النبوية"!! وقد أنكر العلماء ذلك الإبتداع المختلق الذى كان قد جاء به بداية الإمام المهدي نفسه، وتمادى فيه الخليفة عبد الله

---

[٥٩] *كتاب (السيف والنار) سلاطين باشا – ص ١٦٣ - ١٦٤.*

كتاب (السودان بين يدي وغردون وكتشنر) – إبراهيم فوزي باشا – الجزء الثاني ص ١٦ – ٢٣.

تماديا بعيدا، ومارس به أعمالاً بشعة، قوامها التنكيل، وقتل خصومه المستنكِرِين لحكمه.

والحضرة النبوية عند عدد من الصوفية، تعني مجالسة النبي صلَّى الله عليه وسلم، وتَلَقِّي القول منه يقظة. إلا أنه من منظور الفقه الإسلامي، فإن مثل ذلك الادعاء قد لا يكون صحيحا، لقوله صلَّى علية وسلم في الصحاح (البخاري ومسلم وغيرهما) "أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة" وكذلك الادعاء بمشاهدة الخضر (العبد الصالح) الذى آتاه الله من لدنه علماً، علَّمَ بعضاً منه نبي الله موسى عليه السلام {سورة الكهف: ٦٥ –٨٠}، ولِمَا ورد عن النبي صلَّى الله عليه وسلم من أن الخضر لو كان حياً لجاءه وأسلم برسالته. والنبي صلَّى الله عليه أول من تنشق عنه الأرض في أول يوم للقيامة، وبعد النفخة الثانية في الصور، حين يقوم الناس لرب العالمين. وقبلها كان قد هلك كل حي حين نفخ فيه النفخة الأولي، لقوله تعالى "وَنفَخ في الصُّورِ فَصُعِقَ مِن في السَّمَوَتِ والأرْضِ إلّا مِن شَاءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فيه أُخرَى فإذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُون" [٦٠] (الزمر: ٦٨). وقد روى أبو داوود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَأَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ)[٦١]، وصححه الألباني في "صحيح سنن أبي داوود". وقال علماء اللجنة الدائمة للإفتاء: "أول من تنشق عنه الأرض نبينا محمد صلَّى الله عليه وسلم، وهو أول من يفيق من الصعق" – انتهى.

وهكذا جاء عهد حكم الخليفة عبد الله، الذى تم فيه اختزال ثورة الإمام المهدي (دكتور أبو سليم) واجهاضها كلياً من مبادئها وصفاتها وتطلعاتها.

[٦٠] *علماء اللجنة الدائمة للإفتاء – المجموعة الأولي – (٣/٤٥٨).*

[٦١] *صحيح سنن أبي داود – (٤٦٧٣) وصححه الألباني.*

النظام العشائري واستقرار الحكم

من المآسي الكبرى التى تكررت كثيرا في التاريخ، أن يتولي الحكم من ليس هو من طينة المحكومين، أو من هو جاهل بتاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم وتوافقهم في إدارة شئونهم. وقد كان ذلك الحال جليا في العهد التركي. ثم تكرر عند الخليفة عبد الله، الذى أثبتت مجريات الأحداث قصور فهمه في إدارة شؤون الدولة أو في تجاه حكم رشيد، وضعف فهمه لأمور الدين. والدليل على ذلك أن عهده الذى امتد ثلاث عشرة سنين لم يترك أثراً يستفاد منه في التعبد، كالذي تركه الإمام المهدي، من كتاب للدعاء "الراتب" استخلصه من الكتاب والسنة. ولا يزال أتباعه يدعون به في عبادتهم. ولم يترك أثراَ معروفاَ في تنمية البلاد. بل على النقيض تماماً. فكان هدفه الوحيد، ورغبته الجامحة هي البقاء في الحكم. وغَنِيٌ عن القول، أن مثل تلك الرغبة كثيراً ما يترتب عليها مآسي وجور كالذي طال معظم قبائل السودان في عهد حكمه. وحتي قبيلته في كردفان، وبعض القبائل، التى كانت موالية له في غرب البلاد، لم تسلم من طائلة جوره عندما بدأت تعترض على سياساته. وقد أجمع على ذلك معظم المؤرخين، إن لم يكن كلهم.

وفي هذا المنعطف في عهد حكمه رأى الخليفة عبد الله أنَّ لزاماً عليه، من أجل البقاء في الحكم، أن يتخلص من كل منافسيه، فبدأ أولاً بتشريد آل الإمام المهدي نفسه، ووليِّ نعمته.

وكتب بابكر عباس الأمين في مقالته "حقبة التعايشي في الدولة المهدية"، ما هو متوافق مع ما جاء في كل المصادر المهمة في تاريخ المهدية. كتب: "ضاق الأشراف (آل المهدي) ذرعاً من استبداد الخليفة عبد الله، وإحتكاره للدولة المهدية. فعقدوا اجتماعاً في نوفمبر عام ١٨٩١م، في منزل أحمد شرفي، حضره علي ودحلو ومحمد شريف وأحمد علي، قاضي الإسلام، وقرروا الثورة على ذلك النظام. ثم كسروا أحد مخازن الأسلحة، وتسلحوا وتجمهروا حول قبة المهدي، قبالة بيت الخليفة ... أرسل الخليفة

رسالة لعلي ود حلو يدعوه للتوسط لحل الأزمة. وتم الاتفاق بين الطرفين علي أن يقوم الخليفة برد الاعتبار لمحمد شريف، وتنصيبه في مجلس الدولة. وإعادة الراية التى نزعها منه عام ١٨٨٦م، واستلام معاش شهري، هو وأبناء وأرامل المهدي. وفي المقابل، يسلِّم الأشراف أسلحتهم، والخضوع لسلطان الخليفة، ويصدر الخليفة عفواً عاماً لمن حملوا السلاح.

ولكن وبعد أقل من شهر، بعد أن تأكد الخليفة أنه تخطي الأزمة، جرَّد الأشراف من السلاح، وأمر بحبس سبعة من أعيانهم، منهم أحمد سليمان، أمين بيت المال، ومحمد عبد الكريم، عم المهدي بتهمة تخطيط التمرد، وأرسلهم إلى فشودة. وهناك قام الزاكي طمل بتعذيبهم وتصفيتهم جسدياً. أما الخليفة محمد شريف فقد كان مصيره السجن، وظل فيه مكبلا بالقيود طيلة حكم الخليفة عبد الله. ثم قاد الخليفة عبد الله حملة للفتك بكل من رفع السلاح، ووقف في صف الأشراف، كدناقلة الجزيرة. وعندما سُئل الخليفة عن نكوصه بالعهد، قال كعادته في تبرير أعماله: "حصلت لي حضرة اجتمعت فيها بالنبي والمهدي، فقال لي المهدي دعك من استنكار أهل الظاهر لفعلك، إن الحق معك وأهل الباطن معك." أي في عبارة أخري، أن المهدي أيَّد الخليفة علي قتل أهله (أي أهل المهدي)". إنتهى.

بدأ الخليفة عبد الله حملته ضد من شك في رضاهم عنه، بقتل الزعماء أمثال مادبو، زعيم قبيلة الرزيقات. وقتل ولد الشيخ فضل الله، زعيم قبيلة الكبابيش. (وكلاهما قتل بواسطة الخليفة في حياة المهدي). وقبيلة الرزيقات كانت من أهم القبائل التى ساهمت في تصفية الوجود التركي في الغرب وذلك بقيادة شيخها مادبو (الذي كان قد هاجر مع المهدي إلى قدير). ثم أجج عداءاً قديماً بين قبيلتي الكبابيش ودار حامد، وجر الأخيرة لحرب مع الأولي، انتهت بقتل الشيخ فضل الله زعيم الكبابيش. وبعد القضاء علي تمرد الأشراف، وفي سعيه لتوطيد حكمه، اتجه الخليفة للأقاليم، لتأديب كل من كان يشك في ولائه من أفراد أو قبائل. ثم أعقب ذلك بالنيل والتنكيل بقبائل كثيرة في وسط وشرق

وغرب البلاد، ممن قاوموا أو اعترضوا على سياساتة. فقتل حاج علي ود سعد زعيم قبائل الجعليين الذى كان معارضاً لبطشه بآل المهدي. وقتل أبا عنجة، وكثيراً من العلماء، أمثال الشيخ عرمان، والشيخ الهِدَيْ، والشيخ حمد النيل الذى مات مكبلاً في أغلاله، وكثيرا ما يروي أتباع الشيخ حمد النيل، حتى اليوم، أنه أوصى أن تدفن معه الأغلال ليحاجِّ بها عند ربه. وترك الشيخ طاهر الحمادي مكبلا في القيود، التى ما انفك منها إلا بعد سقوط دولة المهدية، عقابا له لإعتراضه على قتل الشيخ حمد النيل. وتوفي الشيخ الحمادي في عام ١٩٠٠م وكان قد أوصي ايضاً أن تدفن قيوده معه كما يذكر أحفاده.

وقد سجن الخليفة كثيراً من قادة الثورة المهدية بعد تجريدهم من أموالهم، أمثال إلياس باشا أم برير، الذى مات في سجن الخليفة (الساير)، وهو الذى كان قائد قوات جيوش المهدي التى أبادت حملة هكس باشا وحاصرت مدينة الأبيض وأسقطتها من أيدي الأتراك. وسجن الخليفة زعيم منطقة دنقلا الشيخ حمد الملك (والد الناظر الزبير حمد الملك) الذى سبق ذكره. وقتل أعداداً كبيرة من البطاحين، والعبابدة والجعليين، وكثيراَ غيرهم. كان كل ذلك في مجازر بشعة، استمرت قرابة ثلاث عشرة سنة، كما ورد ذكره في فصول سابقة. وهلك خلال تلك السنين خلق كثير من الناس بسبب البطش، ثم بسبب مجاعة عام ١٣٠٦هـ (حوالي سنة ١٨٨٨/٧م) والتى عرفت بـ "مجاعة سنة ستة" والتى تقدم ذكرها. وكأنَّ كل ذلك كأنَه رجز من السماء، أنزله الله تعالى بسبب الظلم الذى تفشى.

وهنالك واقعتان من الوقائع الشهيرة والتى وثق لها عدد كبير من المؤرخين. ولخص عدداً من أحداثهما الكاتب بابكر عباس الأمين في مقالته (حقبة التعايشي في الدولة المهدية)، آنفة الذكر. كانت إحداهما مذبحة العبابدة (المليكاب) في سنة ١٨٩٥م بعد هروب سلاطين باشا، وبسبب إخلاصهم للحكومة المصرية.

أُحْضِرَ العبابدة أسري رجالاً ونساءً من بربر وأبو حمد إلى الخرطوم بالمراكب. وكان اللواء محمد التجاني ممن ولدوا في واحدة من تلك المراكب في طريقها إلى أمدرمان – كما ذكر ذلك للمؤلف أخوه بابكر التجاني. وقد نفاهم الخليفة عبد الله إلى بحر الجبل. منهم ٣١ رجلا من قادتهم "وقد كبلوا بالحديد وتوفوا كلهم بالمنفي ما عدا كبيرهم الشيخ حسن محمد خليفة، الذى عاد إلى أمدرمان بعد سقوط دولة المهدية بأيام قلائل، وتوفي بعد وصوله بسبعة أيام".

أما المذبحة الثانية، فكانت مذبحة البطاحين، حيث يقول الكاتب[٦٢]:

"كان الخليفة عبد الله قد طلب من البطاحين، قبيل مذبحة المتمة، إرسال المزيد من المتطوعين للانخراط في جيش الأمير محمود ود أحمد. إلا أنهم رفضوا، فأرسل عليهم حملة قتلت كثيرا منهم. ثم أُرسل العديد من الأسري للعاصمة، حيث أمر بتوزيعهم لقسمين: أُعدم الجزء الأول شنقاً، وتم عقاب الجزء الآخر بالقطع من خلاف. وتمت عمليتا الشنق والبتر أمام زوجات وأطفال الضحايا. وكان خليفة المهدي ينظر بمتعة إليهم، ثم قال لشيخهم عثمان ود أحمد، وهو يشير إلى الجثث والأيدي والأرجل: (بامكانك الآن اصطحاب الذين بقوا من قبيلتك معك)." – إنتهى.

وهكذا لم تكن للخليفة سياسة لتوطيد حكمه غير التنكيل والحبس لخصومه وتصفية زعمائهم بالقتل، كما ورد ذكره من أمثلة سابقة. وليس هنالك أشد وبالاً على أي حكم من شئ كالقتل، وذلك لما يورثه من أحقاد رهيبة، وعداوات مستفحلة، خاصة إذا طال القتل زعماء القبائل، الذين هم عزة العشيرة. ويزيد الأمر سوءاً، إذا لازم البطش والقتل معاً، افعالٌ مستبشعة ومنكرة، من انتهاك العروض، وذبح الأطفال والنساء والشيوخ، مما يؤجِّجَ في صدور الناس غضباً عارماً، وبغضاً عميقاً، وكراهية متناهية للحاكم الذى

[٦٢] *المصدر: كتاب (في الصحراء الشرقية وشرق السودان) – العبابدة وقبلئل أخري –١٩٩٠م) لمؤلفه حسن أحمد حسين خليفة العبادي المأمور بحكومة السودان سابقا.*

يجترح مثل تلك الأفعال الآثمة. وسرعان ما يترتب على مثل تلك الأفعال انتهاجُ المظلومين كل مسلكٍ معادٍ للحاكم، واتباع كلِّ وسيلة للإطاحة به، والتخلص من حكمه. وهذا ما حاق بالخليفة عبد الله وحكمه، وأثبته المؤرخون. إذ تحالف ضده كثير ممن ذاقوا وبال حكمه، وحارب كثير منهم في صفوف الجيش الغازي، مؤملين أن يكون حكمه أخف وطأة، وأقل وبالاً عليهم، مما كانوا فيه.

وفي خلاصة القول يتضح بما لا يدع مجالا للشك، من توثيق المؤرخين أن الخليفة عبد الله، في عهد حكمه، بطش بكثير من القبائل السودانية، بسفك دماء كثير من رجالها، وقتل زعمائها، وتشتيت شملها، بعد أن توحدت صفوف تلك القبائل في بداية الثورة المهدية، التى ناصروها بالنفس والنفيس، والتى أرسوا قواعدها بدحر قوات الحكم التركي في كردفان والخرطوم وبربر، وبالهزيمة التى ألحقوها في "ابو طليح" والمتمة بالكتائب البريطانية والمصرية، التى جاءت في محاولة لإنقاذ غردون باشا، ولم يتحقق لها ذلك.

ويواصل الكاتب: "لم يكن الخليفة يثق في أولاد البلد البتة (قبائل البحر وشمال وشرق السودان). لذا أمر قبيلته بالهجرة إلى العاصمة، فأصبح أتباعه (ممن هاجروا معه وهم قلة من القبيلة) عبئاً بعد أن كانوا منتجين في مناطقهم.[٦٣] كما أن وضعهم المميز الجديد، وإغداقه عليهم بالامتيازات جعلهم انصرافيين؛ وأصابتهم نزعة تسلطية، وحسبوا أنهم أفضل القبائل، حسب تعبير كانوا يرددونه: "التعايشة أولاد عيسى، والجعلي ما أكتر حديثه، والدناقلة أكالين ن الفطيسة، وأولاد الريف عين الكديسة، والشايقية شرابين المريسة". ورغم سيطرة هذه القلة من أتباع الخليفة علي المناصب المهمة، إلا أنهم لم يخدموا غرضه في أن يصبحوا صفوة جهاز "بيروقراطي" يدير به الدولة. ومن جانب ثان، فقد أدت هجرتهم الكثيفة إلى تقليص نفوذ بقية القبائل، أو في لغة معاصرة، تهميشها. بيد أن القلة من التعايشة ممن جاء بهم الخليفة، قد سئموا، بعد حين من

[٦٣] *بابكر عباس الأمين – حقبة التعايشي في الدولة المهدية – ونعوم شقير ومصادر أخرى كثيرة.*

الدهر، حياة العاصمة والاستقرار، فعاد معظمهم إلى ديارهم، بل أن العديد منهم قد ترك المهدية. إلا أن الخليفة لم يتوان في إرسال غارة عليهم، قادها قريبه عثمان آدم، وقُتل فيها غزالى أحمد، واستسلم أعيانهم وأرسلهم لأمدرمان" مع رأس غزالى.

وهكذا، وبكل ما أشارت إليه الأدلة، وأكد عليه المؤرخون، رسم الخليفة عبد الله صورة قاتمة لتلك الفترة من تاريخ السودان بنهاية الثورة المهدية. ولم يترك أثراَ واحداً ولا محمدة تشفع له في صفحات تاريخ هذه الدنيا، وأما في الآخرة فحسابه عند ربه.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن الثورات، خلال حقب مختلفة من التاريخ، كثيرا ما كانت تنتهي بالفوضي واختزال السلطة. ففي عهود الممالك الرومانية كانت تقام احتفالات صاخبة، يبتهج فيها القياصرة ونساؤهم وجماهير الشعب التى تشربت بروحهم ودانت بدينهم. كانوا كلهم يبتهجون في تلذذ وصخب شديد بمشاهدة الأسرى لديهم، من المسيحيين وغيرهم، يتصارعون ويتبارزون بالسيوف ليقتل بعضهم بعضاً.

وكان فرعون من قبل، من أدل الأمثلة على التسلط والتمادي في الغي والفساد والإفساد إلى أن ادعي التَّأَلُّه على الناس، كما جاء في القرآن الكريم "قَالَ فِرْعونُ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَي" – النازعات – ٢٤، و"يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي" – القصص – ٣٨.

وأما الثورة الفرنسية، فقد أكلت قادتها بعد اندلاعها بأشهرٍ قلائل، وقُصِف فيها رؤوسُ زعمائها أمثالِ روبسبيرو، وغيرهم في احتفالات جماهيرية صاخبة، وبذات المقصلة التى قَصَف بها أولئك القادة رؤوسَ وأتباع العائلة المالكة التى كانت تحكم البلاد، الملك لويس السادس عشر وزوجته الملكة ماري أنطوانيت وباقي أفراد أسرته. فعمَّت الفوضى وغرقت البلاد في حمامات من الدماء. حتى اضطر الفرنسيون إلى إعادة الحكم الملكي من جديد.

وقد اندلعت الثورة البلشفية (الشيوعية) في روسيا في أواخر عام ١٩١٧م قبيل نهاية الحرب العالمية الأولي، ضد ظلم وفساد القياصرة. وتحت شعار العدالة الاجتماعية من

منظور الفكر الشيوعي، الذى يتنافي أصلاً مع الفطرة البشرية. ولكن سرعان ما تحولت تلك الثورة إلى حركة دامية استَحَرَّ فيها القتل. ولم تمض بضع سنين على وفاة لينين مؤسس دولة الاتحاد السوفيتي الشيوعية حتى تم اختزال السلطة في شخص ستالين وبطانته. فبدأ عهد دامٍ اتسم بالإعدامات والنفي الجماعي إلى سيبيريا وغيرها من السجون. وقد قدر المؤرخون المعاصرون عدد الضحايا الذين قتلوا في عهد ستالين بستة ملايين نسمة من الذين عارضوا أو حاولوا الانقلاب على النظام الشيوعي. وذلك بجانب حوالي ثلاثة ملايين نسمة ماتوا بسبب المجاعة التى أعقبت عصيان المزارعين "الكولاك" واعتراضهم على انتزاع الشيوعيين أراضيهم غصباً. ولم يكن البطش يحيق بالمعارضين داخل روسيا فحسب، بل جرت ملاحقة كثير منهم خارج البلاد. وكان بعضهم من مفجري الثورة نفسها ومفكريها، أمثال تروتسكي الذى طالته يد الاغتيال في أمريكيا اللاتينية، التى كان قد لاذ إليها فراراً من البطش. ومن المقولات الشهيرة في الفكر الشيوعي ما مفاده (الَّا ضَيْر أن يهلك ثلثا الأمة، ليهنأ بالعيش الثلث الباقي!!).

ثم جاءت الثورة النازية بقيادة أدولف هتلر، الذى كان أسوأ مثال للشر في تاريخ البشرية كافة. وهو الذى اختزل السلطة في شخصه في عام ١٩٣٣م، وابتدع الحركة النازية البغيضة في ألمانيا في منتصف ثلاثينيات القرن الماضي. ثم أشعل الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩– ١٩٤٥م) التى كانت أكبر كارثة في تاريخ العالم. ومات هتلر، منتحرا هو وعشيقته، بنهاية الحرب العالمية الثانية، وهو ملطخ بدماء أكثر من ٨٠ مليون نسمة من البشر، من ألمانيا وكثير من دول العالم، بحسب الإحصائيات الرسمية لقتلي تلك الحرب الدامية.

وهكذا لم تخرج ثورة الأمة السودانية ضد حكم الأتراك، بقيادة الإمام المهدي، عن هذا المسار النمطي. خاصة بعد أن آل الحكم إلى الخليفة عبد الله، الذى اختزل السلطة في شخصه وفي أيدى عدد من المتفلتين من عشيرته، وأيدي نفر قليل من قبائل أخرى، كما ورد في مجمل الحديث سابقاً.

النظام العشائري وزعامات القبائل
وأهميتها في استقرار المجتمعات

لم يكن للخليفة عبد الله سابق دراية بأسس الحكم، وبخاصة الحكم العشائري، إذ أنه لم يمارس مطلقاً حكماً من قبل. ولم تكن له دراية بنظام الزعامة العشائرية وأهميتها في تماسك القبائل، وإرساء العدالة فيها. كما كان علمه بالعالم الخارجي ضعيفاَ أو معدوماَ. فهو لم يكن يوماً زعيماً لقبيلته، ولا لأي قبيلة أخرى. ونظام زعامة القبائل نظام دقيق، يتوارث الزعامة فيه كابر عن كابر، حيث يحظى الزعيم أو الشيخ أو الملك باحترام كل افراد القبيلة. وهو نظام ليس فيه طمع أو اغتصاب للسلطة. بل أن من يسلك ذلك المنحى تنقلب عليه القبيلة من فورها، وتنحيه، لدرءِ فتن قد تشق صفوفها، وتوردها المهالك. وتلك قواعد ترسخت بين القبائل عبر التاريخ وعلى مدى قرون متعاقبة. بل كان ذاك هو نمط التعايش البشري منذ العصور الغابرة، والذى توافقت عليه القبائل من جنسيات مختلفة في كل بلاد العالم على اختلاف ألوانها وأعراقها، وعلى ما حظيت به من تفاوت في العلم والحضارة. ومن خلال ذلك التوافق ظلت المجتمعات القبلية تعالج القضايا بين أفرادها بأعرافٍ توارثتها، وعملت بمقتضاها للتصالح ثم التسامح فيما بينها، مهما كبرت خلافاتها. وفي معظم الحالات كانت تحسم القضايا بواسطة "الأجاويد"، أو بالتحكيم أو الوعظ أو التأديب، او بالمقاطعة أو الطرد من بيت الأسرة أو القبيلة إذا اقضي الأمر.

وقد كان ذلك هو النهج الذى جعل القبائل متماسكة في داخلها، مهما قست عليها طبيعة العيش، من قحط أو ما أصابها من نكبات من جراء قلاقل من الداخل أو اعتداءات من الخارج.

وتعايش القبائل بسلام فيما بينها أمر تحكمه الأعراف، من قيم مشتركة، ومن تمسك بمكارم الأخلاق واحترام حسن الجوار. ويعضد من ذلك التعايش المسالم، كما ذكرنا في

فصل سابق، التصاهر بين القبائل، خاصة بين أسرها الحاكمة، وأسر علمائها وأعيانها. وذلك لأن سراة القوم (وهم الملأ من القوم أي أكابرهم الراشدون والعقلاء) هم الذين يهدون الناس إلى جادة الطريق السوي، ويصلحون ما ينشنب بينهم من خلاف. وذاك عرف راسخ قدي.، ومن قبل، قال في ذلك الشاعر الجاهلي، "الأفوه الأودي" الذى عُرِفَ بالحكمة، قال:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم .. ولا سراة إذا جهالهم سادوا
تهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت .. فإن تولت فبالأشرار تنقاد

والأمثلة كثيرة لتلك التصالحات، ونذكر منها، على سبيل الاستدلال، حادثتين مهمتين من التاريخ القبلي. كانت واحدة منهما بسبب التطلع إلى السلطة. والثانية بسبب التفلت الأمني. وكادت اولاهما أن تقود إلى كارثة داخل القبيلة، وكادت الأخرى أن تقود إلى حرب طاحنة، بين قبيلتين كبيرتين.

كانت الحادثة الأولى في بداية القرن التاسع عشر، (حوالي سنة ١٨٠٢م)، بسبب تطلع المك نمر، في مدينة شندي، بتحريض من عمه، سعد بن محمد بن نمر، إلى انتزاع زعامة الجعليين، المتوارثة، من ابن عم أبيه المك المساعد، الذى كان مقره بمدينة المتمة، علي الضفة الغربية من نهر النيل. ونشب أثر ذلك خلافات كبيرة أدت إلى بدايات اقتتال دموي بين بيتي الزعامة، واصطف الجمعان للقتال في منطقة "العاوليب" الواقعة شمال مدينة شندي، وعلى بعد بضعة كيلومترات جنوب مدينة كبوشية.

وقبل بداية القتال أرجز شاعر النمراب (جماعة المك نمر) قائلاً:

قولوا للفكج المبني * نحن في العاوليب نزلنا
والداير يعرف نفلنا * يركب الخيل يصلنا
إمَّا جبنا التار قدلنا * وإمَّا فد مرة انغسلنا

و"الفكج" تعني الأوز و"المبني" تعنى السمين – وذلك قول الشاعر مخاطبا المك المساعد الذي كان فيما يبدو مكتنز الجسم.

وبدأت مناوشات وقتال، ولكن سرعان ما تدخل سراة القوم من الطرفين، وعلماؤهم، وأصلحوا بين الفئتين، على أن تقتسم الزعامة بينهما بأن يبقي المساعد مكاً في مقره بالمتمة في الضفة الغربية، ونمر مكاً بمقره في شندي بالضفة الشرقية. وقد ذكرنا جانباً من تلك الأحداث في الفصل الثاني من هذا الكتاب. ومهما كان من أمر، فقد كان الخلاف داخل القبيلة، ولم تكن الدوافع تطلعات لإخضاع قبائل أخري، أو السيطرة عليها، كما كان عليه الحال عند الخليفة عبد الله، بعد توليه الحكم بعد الإمام المهدي.

أما الحادثة الثانية فكانت في حوالي عام ١٨١٨م وذلك قبيل الغزو التركي للسودان بحوالي ثلاث سنوات. وكان المك نمر أيضاً أحد أطرافها ولكن بصورة مختلفة. وهي قصة حرب كادت أن تدور رحاها بين قبيلتين كبيرتين هما قبيلة الشكرية (الدِّرِيشاب) وقبيلة الجعليين، ولسبب مستصغر من الشرر. وذلك عندما قتل "طه ود حسين"، وهو فارس من قبيلة البطاحين، عندما قتل "حمد ود دكين"، وهو فارس من قبيلة الشكرية (الدَّرِيشاب في جهة نهر عطبرة)، بعد مبارزة بينهما بالسيوف. وكان سبب الخلاف بينهما أن حمداً أراد ان يخطب "ريَّا بت عبد الله أبو كِبِسْ"، رغم علمه بأنها مخطوبة لابن عمها طه ود حسين.

كانت هذه الواقعة بالقرب من مدينة شندي. وبعدها واصل طه مسيرته، ومعه بنت عمه "رَيَّا"، إلى تلك المدينة، تحسباً لتعقب الشكرية له، واحتمى بالمك نمر الذى أجاره ولم يسلمه للشكرية، على عادة القبائل في حماية المستجير. فأثار ذلك غضب الشكرية (الدِّرِيشاب)، فتأهبوا وخرجوا لقتال الجعليين، وأوشكت أن تشتعل بينهما حرب ضروس. وكانت زوجة المك نمر، "شَمَّة بت محمد ود دكين"، من قبيلة الشكرية (الدِّرِيشاب)، ومنطقتهم بجهة الستيت بأعالى نهر الأتبرة (نهرعطبرة)، والقتيل هو عمها أحمد ود دكين. فأدركت أن مصيبتها ستكون أعظم إذا التقى الجمعان. فجيش الشكرية يقوده

عمها عبد الله ود دكين، ومعه أخ لها، وقد جاءوا لمقاتلة الجعليين، الذين يقود جيشهم زوجها المك نمر وأولاده منها، وهم عمارة وأحمد وخالد. فبذلت مالا كثيراً من أجل الصلح الذى توسط فيه شاعر النمراب "ود النعيسان"، والعلماء وأصلحو بين القبيلتين. والشاعر ود النعيسان شاعر المك نمر هو جعلي جبلابي من أحفاد العقاد بن إسماعيل بن الحسن بن المعز بن جبل بن عرمان. هذا ولم تمض إلا حوالي ثلاث سنوات على ذلك الحدث، حتى جاء الغزو التركي، وما تبع بداياته من المآسي والنكبات المعروفة، التى فرَّقَت قبائل الجعليين شذر مذر في ربوع البلاد. ثم ما كان من قسوة وجور ذلك الحكم طيلة فترة بقائه.

وقد صور تلك الواقعة الشاعر الأديب إبراهيم أحمد بابكر العبادي في مسرحيته الشعرية الشهيرة "المك نمر" (١٩٢٦م). وقد أضفي على القصة إضافات أدبية رائعة مما جعلها تخلد في تاريخ التراث الأدبي السوداني، رغما عن تناسي التاريخ لسببها الحقيقي.


إبراهيم أحمد العبادي
1894-1981م

ويتبين من المثالين سالفي الذكر، عن قضايا القبائل، أن التصالح يمكن أن يتم بين الأُسَر داخل القبيلة الواحدة. وكذلك بين قبيلة وأخرى مهما كبرت الخلافات. وذلك لأن علماء القوم وعقلاءهم يدركون تماما أن في الصلح مندوحة عن القتال، لقوله تعالى (وإِنْ طَائِفَتَانِ مِن المُؤْمِنِينَ اقْتَتَلوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا) – (سورة الحجرات – ٩)، وكان الزعماء ورعاياهم يتقبلون النصح والإرشاد، تجلة لمقام العلماء، ورفعة لمنزلة الزعماء، وتقديراً واحتراما لحقوق الرعية.

وفي الفصل التالي سنورد نماذجَ من مساهمة الجعليين في نهضة السودان الحديث، وعما قدمه عدد من عظمائهم من عطاء كبير في المجالات الإجتماعية، والعلمية والأدبية والسياسية والاقتصادية.



الفصل السابع

مساهمة الجعليين في نهضة السودان الحديثة

في آفاق السياسة والقضاء والأدب والصحافة

في سياق لمحات تاريخية عن مناقب الجعليين، نذكر أسماء قليل من كثير من أفذاذهم، الذين ساهموا في كل المجالات السياسية والأدبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية في تاريخ السودان الحديث. ولنبدأ برجال العلم والدين والقضاء في السودان. فنذكر منهم الشيخ أبا القاسم هاشم، الذى أسس المعهد العلمي بأم درمان عام ١٩١٢م (والذى تطور لاحقاً إلى جامعة أمدرمان الإسلامية) والشيخ أحمد الطيب هاشم أول رئيس للقضاء الشرعي في السودان.

الشيخ محمد خير الدوش

هو جد الأستاذ السيد عوض الكريم الدوش، أستاذ اللغة العربية بجامعة إفريقيا العالمية، رحمهما الله. كان في زمانه من أجل علماء الفقه الإسلامي، وكان يفتي علي المذاهب الأربعة. وكانت له خلوة يدرس فيها القرآن ولا تزال باقية بالمتمة. وكان قد دَفَن في تلك الخلوة كتبه وكتب أستاذه السيد محمد المختار التجاني الثرة حفظاً لها، وكان ذلك بعد فتوي المهدي بإبطال المذاهب الأربعة، وحرق جميع الكتب الدينية. وبعد سقوط المهدية وُجِدَ أن الكتب قد أكلتها دابة الأرض (الأرضة). قتل الشيخ محمد الخير الدوش رحمه الله في واقعة المتمة في أول يوليو ١٨٩٧م عن عمر كبير.

الدرديري محمد عثمان حاج خالد (١٨٩٦-١٩٧٧م)

ومن أفذاذ الجعليين العمراب، القاضي الدرديري محمد عثمان حاج خالد من سلالة الشيخ حامد أبو عصا، وقد كان أول قاضٍ سودانيّ في المحكمة العليا – ١٩٥٢م. وعضو أول مجلس سيادة للسودان المستقل (١٩٥٦م). وقد تم انتخابه لذلك المنصب الرفيع بإجماع أول برلمان سوداني. وهو حفيد حاج خالد محمد سليمان "كروم"، أكبر أمراء المهدية. وابن أخ خلف الله حاج خالد، أول وزير دفاع للسودان بعد الاستقلال.

كان جده حاج خالد أول المناصرين للإمام المهدي، والباذلين أنفسهم في سبيل الله والوطن. وكان أكثر التجار ثراءً في مدينة الأبيض، حين استسلمت، بعد أن حاصرتها جيوش الإمام المهدي. وقد بذل كثيراً من العطاء في نصرة الثورة المهدية، حتى كان المهدي يكنِّيه بـ "عثمان بن عفان" تشبهاً بما كان من أمير المؤمنين عثمان، رضي الله عنه، في البذل والإنفاق على جيوش المسلمين على عهد النبي صلَّى الله عليه وسلم. وكان والده محمد عثمان حاج خالد أحد زعماء الحركة المهدية وأمرائها وسياسييها العاملين.



الدرديري محمد عثمان
1977-1896

والمجال لا يسع هنا لذكر مآثر الدرديري محمد عثمان ومواقفه العظيمة التى نادراً ما تجتمع في رجل واحد. والتى منها، كما يذكر الدرديري نفسه في مذكراته، مشاركته في الوساطة بين اللواء محمد نجيب وجمال عبد الناصر في أزمة مارس ١٩٥٤م، ودوره في اللقاء الشهير بين السيدين – السيد على الميرغني والسيد عبد الرحمن المهدي، رحمهما الله. وكانت السياسة البريطانية تعتمد آنداك في بقاء الحكم الاستعماري في السودان على التناقضات وفي مقدمتها الخلاف التقليدي بين طائفتي الختمية والانصار، وبين زعيمي هاتين الطائفتين. وعندما خرج البريطانيون من السودان كانوا يظنون انهم وضعوا "قنبلة زمنية" سرعان ما تتفجر، (كما وضعوا مثل تلك القنابل الزمنية قبل مغادرتهم كثيراً من المستعمرات)، بسبب ذلك الخلاف الطائفي الذى كانوا يعتقدون انه عميق الجذور. وقد جاء في مذكرات الدرديري قوله:

"... ومن هنا استطعت في الساعة المناسبة أن أنجح في تقريب الشقة بين السيدين ووفقني الله أن أجمع بينهما في ذلك اللقاء التاريخي العظيم الذى غَيَّرَ إلى حد كبير مجرى الحوادث في السودان، ووجهها وجهة لم تكن في حسبان أكثر المراقبين دقة.

حتى قال بعض الساسة الانجليز الذين كانوا بالسودان: لقد تحققت إحدى المعجزات في السودان بالتقاء السيدين".

ومن مواقف الدرديري الشهيرة ما رواه في مذكراته: "أن الشيخ محمد الامين تِرِكْ (ناظر عموم الهدندوة فيما بعد) جاءني في حالة اضطراب، وقد لاحظت بجبهته ضربة يسيل الدم منها، تدل على أنه قد أُعْتُدِىَ عليه. وقال (إن المستر هوبلز قد ضربني). فأرسلت لمستر هوبلز ورقة حضور للمحكمة، كالإجراء المتبع في مثل تلك الحالات. وقد رفض هوبلز الخضور بحجة أنه مشغول. وعندئذ ارسلت جنديين من البوليس للمجيء به، وإذا رفض فعليهما استعمال القوة معه، وبعد قليل جيء به مقبوضاً عليه. وبعد وساطات تم الصلح. ولكن الدرس أن هوبلز والبريطانيين الآخرين في منطقة القاش عرفوا أنه ليس هناك رجل فوق القانون."

وفي ذكر واقعة أخري في حياته قال الدرديري "كنت قاضِيَ مركز بورتسودان وجِيء ببحار إنجليزي اقترف جريمة السرقة وثبتت التهمة عليه. وقد رأيت أن سِجْنَهُ، والباخرة على أهبة السفر، قد يلقي العقوبة على غيره وهم اصحاب الباخرة. والغرامة لا تجوز في السرقة، وكان عمره يبيح، حسب القانون، استعمال الجلد. فحكمت بجلده ونفذ (الحكم) أمامي. وكان لهذا الحكم صدى واستحساناً كبيرا بين المواطنين، ولكن من ناحية أخرى أدى إلى امتعاض البريطانيين. وقاطعني الإنجليز عاماً كاملاً. لقد أحسوا بأن كرامة الجنس الإنجليزي قد مُسَّتْ، فكان يقابلني منهم من يقابلني بوجه عابس حتى رئيس القضاء".

ومن أولئك الأفذاذ من الجعليين في عالم الأدب الشاعر المجيد عبد الله عمر البَنَّا وأبوه الشاعر الفحل محمد عمر البنا أمير شعراء المهدية الذى له القصيدة ذات المطلع الشهير:

الحـرب صبر واللقاء ثبات ** والموت في شأن الإله حياة
الجبن عار والشجاعة هيبة ** للمرء ما أقترنت به العزمات

ومن أفذاذ الجعليين ود ضيف الله، مؤلف كتاب "الطبقات" الشهير، والدكتور يوسف فضل حسن، الذى حقق ذلك الكتاب، وهو الذى له صدي واسع وعطاء كبير في تأليف وتحقيق والتقديم لعدد كبير من الكتب المهمة عن تاريخ السودان. وسيأتي ذكره في القسم التالي من هذا الفصل. ومنهم الشاعر الفذ التجاني يوسف بشير، من الكتياب، صاحب ديوان الشعر الشهير "إشراقة".


التجاني يوسف بشير
1912 - 1937م

ومنهم السيد علي محمد البرير الذى سيأتي ذكره لاحقاً، والأستاذ أحمد محمد صالح عضو أول مجلس سيادة للسودان وهو الشاعر المرموق الذى جارى الشاعر المصري الشهير علي الجارم بك، بعد غارات الفرنسيين على دمشق بالطائرات في أربعينيات القرن الماضي. جاراه معبراً عن حزن وأسى الامة العربية بقصيدته الرائعة التى جاء في مطلعها:

صبراً دمشـق فكل طـرف بـاكى ** لما استبيح مع الظلام حمـاك
جرح العروبة فيك جرح نازف ** بكـت العـروبة كلها لبكاك
جزعت عُمَانُ ورُوِّعَتْ بـغداد ** واهتزت ربا صنعاء يوم أساك
وقرأت في الخرطوم آيات الأسى ** وسمعت في الحرمين أَنَّةَ شاكي
والروضـة الفيحـاء رُوِّع رُكْنُـها ** لما تعفر بالثـرى خداك
ضـربوك لا متعففين سـفاهة ** لم تأت إثما يا دمشق يداك
ورمـاك جـبار يتـيه بحـوله ** شُلّتْ يمين العلج حين رماك

وأين نحن اليوم، ودمشق تُدَكُّ دكّاً، بيد أبنائها، قبل أعدائها، والعروبة تلعق جراحاتها الجديدة وتنكأ جراحاتها القديمة؟؟.


محمد المهدي المجذوب
(1982-1919)

ومنهم قطب اللغة العربية د. بروفسير عبد الله الطيب الذى سيأتي لاحقاً المزيد من ذكره. ومنهم أستاذ اللغة العربية د. أحمد الطيب، والأديب النابغة معاوية محمد نور. ومنهم من الشعراء المجيدين محمد المهدي المجذوب (الدامر ١٩١٩-١٩٨٢م) الذى "يعد من المجددين في الشعر العربي والسوداني، ومن جيل ما بعد رواد النهضة الشعرية السودانية والعربية مباشرة". ومنهم الأستاذ عبد القادر كرف وعبد القادر تلودي وعكير الدامر. ومن الأدباء الدكتور منصور خالد محمد عبد الماجد، الكاتب والمؤرخ ذو الأسلوب السلس والفكر الموسوعي، ووزير الخارجية الأسبق، وسياتي المزيد من الحديث عنه لاحقاً في هذا الفصل.

ومن العلماء الدكتور التجاني الماحي، أبو الطب النفسي في إفريقيا، وعضو ورئيس مناوب لمجلس سيادة السودان في الستينيات من القرن الماضي، وسيأتي مزيد من ذكره. ومنهم الدكتور النذير دفع الله إلياس باشا أم برير، وأخواه المهندس إلياس دفع الله، والإداري حسن دفع الله، مؤلف كتاب "قصة تهجير أهالي حلفا (هجرة النوبيين)"، وهم أحفاد إلياس باشا أم برير. وقد سبق ذكر إلياس باشا ام برير، الذى كان كبير قادة جيوش الإمام المهدي، وما لحق به من نكبات بتجريده من أمواله، وحبس الخليفة عبد الله له ولأولاده، عدا واحد منهم، في سجن الساير الذى ظل فيه إلى أن عَمِيَ ومات. وكما ورد في فصل سابق كان سجنه بسبب أنه أسكن ابن عمه الأمير عبد الله ود سعد معه في منزله. وقد تم تحرير أبنائه من الحبس بعد سقوط الخرطوم. وكان حفيده الدكتور النذير دفع الله واحدا من أَجَلِّ العلماء المشهود لأبحاثهم عالمياً في مجال الطب البيطري.


الريح الأمين حاج أحمد
1918-1985م
رئيس القضاء 1967-1969م

ومن رجال القضاء الريح الأمين حاج أحمد، رئيس القضاء سابقاً، والسيد مهدي الفحل، نائب رئيس القضاء سابقاً، وابن المؤرخ الشيخ الفحل الفكي الطاهر، مؤلف الكتاب الشهير "تاريخ وأصول العرب بالسودان".

أحمد عثمان القاضي[٦٤]

ومن رجال الصحافة أحمد عثمان القاضي (١٨٨٣–١٩٦١م)، الذى ولد بالمتمة وتخرج من كلية غردون مدرسا في اللغة العربية والحساب والتاريخ والجغرافيا، وتعلق منذ شبابه بالتحدث باللغة العربية الفصحي، ومعاشرة الأدباء والشعراء البارزين في المجتمع. وعرف بلباقته وتميز بألاناقة في ملبسه.
ونقتبس مما كتبه عنه الأديب محجوب عمر باشري، في كتابه الرائع، "رواد الفكر السوداني":
كان أحمد عثمان القاضي يكتب في صحيفة "الحضارة" (١٩٢٤م). وهو "أول من وضع أسس اللغة الصحفية ونقلها من القالب الأدبي والأسلوب الخطابي .... وابتعد عن الأسلوب المثير، وبسَّط العربية وخاطب بها التجار والعاملين في المهن الحرة، وأغفل المتعلمين والمثقفين، وصب مقالاته في كلمات مألوفة، وجمل قصيرة، ومعاني واضحة، في منبر يتحدث منه إلى رجل الشارع وليس إلى رجل المكتب، مما جعل صحيفة "الحضارة" تنتشر في المدن السودانية والقري، وتشترك فيها رسمياً مكاتب الحكومة والمدارس. وكان من مبادراته، اول ما ظهر في سنة ١٩١٧م، أن كاتب كل الموظفين السودانيين، وشرح لهم الحالة الإقتصادية، وما يجب أن تقدم لهم الحكومة من إهتمام لمجابهة الغلاء الذي طرأ في السوق من جراء الحرب العالمية الأولي". انتهي

[٦٤] *المصدر كتاب "رواد الفكر السوداني" – محجوب عمر باشري – ١٩٩١م.*

وهنالك الكثيرون من عظماء الجعليين الذين ساهموا في نهضة السودان الحديثة، ولا يسع المجال لذكر لمحات عنهم في هذا الكتاب.

مساهمة الجعليين في نهضة السودان الحديثة

في مجال التعليم وعلم التاريخ



سر الختم الخليفة الحسن
1919 - 2006م

ومن كبار رجال التعليم الأستاذ عبد الرحمن على طه، والتجاني علي أبو لول، والأستاذ سر الختم الخليفة الحسن، رئيس وزراء السودان بعد ثورة أكتوبر ١٩٦٤م، والدكتور يوسف فضل حسن، وهنالك الكثيرون غيرهم.

السيد علي محمد البرير

ومن أفذاذ عظماء السودان السيد علي محمد البرير الذى قدم خدمات جليلة للتعليم في السودان خلال القرن الماضي. وهو سليل أسرة البرير الشهيرة التى تنحدر من قبيلة الجباراب، وهم فرع من فروع الجعليين أبناء جبر بن عرمان الموصول نسبه إلي إبراهيم جعل جد قبيلة الجعليين ويسمون أيضا جبراب ومنطقتهم غرب المكنية وتسمي الجابراب[٦٥].

وللسيد علي البرير تاريخ حافل ومعروف لدي اسرته، ومدون في سير التاريخ الحديث للحركة السياسية والإجتماعية في السودان.

ومن أفضل ما ذُكِرَ عن السيد / علي محمد البرير هو ما كتبه عنه الأديب / محجوب عمر باشري في كتابه القيم "رواد الفكر السوداني". .... وهنا نشير إلى أن ذلك الكتاب، قد يكون أهم كتاب حوي تنويراً جيدا وبأسلوب رائع، عن سيرة نحو مائة من

---

[٦٥] *موسوعة الأنساب والقبائل في السودان – د. عون الشريف قاسم.*

عظماء السودان، من رواد الفكر والعطاء في مختلف المجالات، من أدب وعلم وتاريخ وسياسة في تاريخ السودان الحديث، خلال القرن العشرين. وقد حوى الكتاب، في سياق تلك السير، لمحات عن مئات الشخصيات السودانية من المبدعين في الفنون والغناء وبعض المناشط الأخري، ممن عرفوا في الحياة الإجتماعية.

كتب الأديب محجوب عمر باشري:

"نشأ السيد علي محمد البرير في أسرة معروفة تعمل في تجارة الماشية، وتلقى تعليماً اولياً، ثم عمل بالتجارة في أم درمان، ثم استقر منذ مطلع الاربعينيات بالقاهرة، واتصل بالبيوت التجارية ورجال الاعمال المصريين. وجمع كلمة السودانيين، وتعاون معهم في تأسيس أول نادٍ للسودانيين بالقاهرة، ألا وهو "النادي السوداني" بميدان سليمان باشا. .... وبعد ذلك، بدأ يعمل على توفير كل سبل الطمأنينة والاستقرار للطلبة السودانيين في مصر، إذ كان أغلبهم يدرس في مدارس خاصة ولا تقدم لهم الحكومة المصرية أيَّ عون. .... ولم تكن هنالك بعثات مخصصة، أو منح تقدم للسودانيين، بل كانت المساعدات تقدم فرديا....



السيد/علي البرير
1905 – 1973م

وفي عام ١٩٣٧م تم قبول أول فوج من الطلبة السودانيين في المدارس الثانوية المصرية بعد تتويج الملك فاروق الأول، وفتحت الجامعة المصرية أبوابها للطلبة السودانيين منذ تلك السنة، وأصبح للسودانيين نسبة خاصة، في المدارس الثانوية في القاهرة. كما أن بعضهم كان يقبل في مدارس أسيوط وسوهاج والمنصورة......

رأت حكومة السودان (الحكم الثنائي آنذاك) ان هذا التدفق والانفتاح على الثقافة والتعليم في مصر سيضر بمصالح البريطانيين في السودان. فقامت الفتن والاختلافات في أول الأمر في النادي السوداني، وتنحى علي البرير عن عضويته ومن رئاسته، ورجع

للسودان ومكث فيه فترة، ثم عاد إلى مصر في عام ١٩٤٠م، ووهب وقته وماله لتنظيم إلحاق الشبان السودانيين بالمعاهد والجامعات المصرية. فازدادت أعدادهم في كل المعاهد، ووفر لهم كل سبل السكن والإعاشة والمعونات. وأسس بيت السودان للطلبة الجامعيين......

ويعد العمل الذى قدمه السيد علي البرير، انتصاراً للسودان، ونجاحاً للقدرات السودانية لتتعلم وتلتحق بالمدارس والجامعات المصرية. إذ أن عدد المتخرجين من الجامعات المصرية في تلك الفترة كان أكثر من المتخرجين من الجامعة السودانية والجامعات البريطانية......

إن دور السيد علي البرير في الفكر السوداني هو دور الفاتح الغازي المنتصر". إنتهى.

الأستاذ الدكتور يوسف فضل حسن(٦٦)

ولد الدكتور يوسف فضل حسن الحاج يس، في بلدة المحمية بولاية نهر النيل. وأكمل تعليمه الثانوي بمدرسة وادي سيدنا، ونال البكالوريوس من كلية الآداب بجامعة الخرطوم في عام ١٩٥٦م. ويعد عميد المؤرخين السُّودانيين، لما له من صدي واسع، وعطاء كبير، في تأليف وتحقيق وتقديم عدد كبير من الكتب المهمة عن تاريخ السودان. وله اسهامات كبيرة في دراسات تاريخ السودان. وقد نشر عدداً كبيراً من الرسائل كباحث، ومؤرخ. وشارك في عدد كبير من الندوات الأدبية والعلمية. وله من المؤلفات عدة كتب في تاريخ السودان من أهمها:


الأستاذ الدكتور يوسف فضل

- مقدمة تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي – في ثلاثة أجزاء.

(٦٦) *أنظر الملحق الثاني لمزيد من تفاصيل السيرة الذاتية للدكتور يوسف فضل.*

- دراسات في تاريخ السودان.
- تحقيق كتاب "طبقات ود ضيف الله" وهو من أهم أعماله.
- تحقيق كتاب "كاتب الشونة"

ومن أفضل ما كُتِب عن الأستاذ الدكتور يوُسُف مقالةَ الدكتور أحمد إبراهيم أبو شوك في صحيفة السودان، ٢٩ ديسمبر ٢٠١٤م، بعنوان "الأستاذ الدكتور يوسف فضل حسن، وجائزة العز بن عبد السَّلام". وفيما يلي نقتبس الجزء الأهم من تلك المقالة:

"تكريم العلماء بجوائز تليق بمقاماتهم العلميَّة إسماً ومعنى فيه تقدير لقيمة العلم وعطاء العلماء. فالعز بن عبد السَّلام (ت ١٢٦٢م) عالم فذ من فضلاء الأمة الإسلاميَّة وتأسيس جائزة بإسمه، لأصحاب القدم الراسخ في الثقافة والعلوم والآداب العربيَّة والإسلاميَّة والإفريقيَّة، فيه تقدير لمكانته العلميَّة الشامخة، وتثمين لمساهمات العلماء البارزين. .....

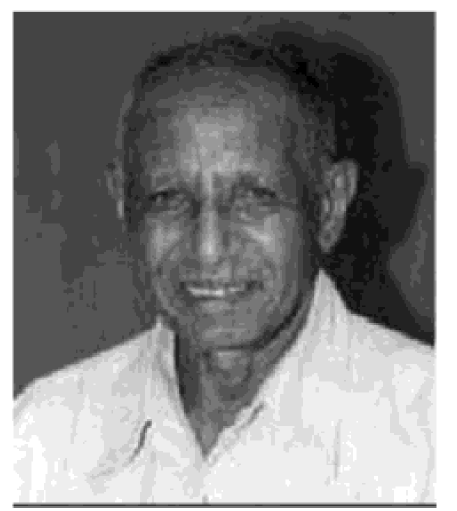
نال الأستاذ يوُسُف فضل حسن بكالوريوس الشَّرف في تاريخ الشرق الأدنى والشرق الأوسط في معهد الدراسات الشرقيَّة والإفريقيَّة بجامعة لندن عام **١٩٥٩**م. ونال درجة دكتوراه الفلسفة في التاريخ الإسلامي في الجامعة نفسها عام١٩٦٤م، ورقِّيَ إلى درجة الأستاذيةَّ في التاريخ بجامعة الخرطوم في أول يوليو **١٩٧٢**م. وبهذه الخلفيَّة الأكاديميَّة المتميزة، درسَّ مقررات تاريخ العرب، والخلافة العباسيَّة، والخلافة العثمانيَّة، وشمال إفريقيا في العهود الإسلاميَّة، والممالك الإسلاميَّة في السُّودان، والإسلام في إفريقيا، والديانة المسيحية في إفريقيا. كما قام بتحقيق بعض المخطوطات العربيَّة. وأشرف على وناقش العديد من أطروحات الماجستير والدكتوراه في جامعات محليَّة وإقليميَّة وعالمية، وفي موضوعات شتى ذات صلة بمجال تخصصه".

مساهمة الجعليين في نهضة السودان الحديثة

في علم اللغة والأدب العربي

البروفسور عبد الله الطيب (١٩٢١-٢٠٠٣م)

ومن أعلام الجعليين في قمة التفوق في الأدب وعلم اللغة العربية البروفسور عبد الله الطيب، الذى اشتهر بعلمه الغزير وكتبه الشهيرة في العالم العربي، والتى أشهرها كتاب "المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها" في خمسة مجلدات. ومن أشهر وأجل إنجازاته ما تركه من علم ينتفع به، وهو تفسير القرآن الكريم الذى ما زالت الإذاعة السودانية تبثه على الهواء منذ عام ١٩٥٤م.



بروفيسر عبد الله الطيب
2003-1921

ولد البروفسور عبد الله الطيب في قرية التميراب غرب مدينة الدامر، وجده الأكبر هو الشيخ محمد المجذوب صاحب المقام الشهير بمدينة الدامر (دامر الجذوب).

ومن طريف ما يذكره المؤلف، ما كان من زيارة البروفسور عبد الله الطيب لنا في الكويت قبيل الغزو العراقي لذلك البلد ببضعة أشهر (١٩٩٠م) وكان مؤلف هذا الكتاب وقتها يعمل خبيراً بالصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي.

ألقى الدكتور عبد الله الطيب كعادته عدة محاضرات في الكويت في ضروب شتي من الأدب وعلوم اللغة العربية. وفي لقاء له ممتع مع نخبة من العاملين بالمنظمات والمؤسسات العلمية بالكويت بمنزل الدكتور مأمون الحاج على إبراهيم، ذكرنا له أننا أنشأنا جمعية خيرية لمساعدة المرضى القادمين للعلاج بالكويت. وأن الجمعية لها بجانب ذلك اهتمام بالمساعدة في نشر أعمال بعض الأدباء والشعراء السودانيين الذين لم يحظو بعون فى مجال لنشر. فطلب منا أن ننشر له كتيِّبَ "ذكرى صديقين" – وهما

الأديبان معاوية محمد نور وجمال محمد أحمد. وفي أثناء إعداد الكتيب للطباعة والنشر، راسلته بالبريد أستأذنه في أن نخصص جزءا من عائدات بيع كتيب "ذكري صديقين" للمساعدة في نشر أعمالٍ لأدباء سودانيين آخرين لم تنشر لهم أعمال من قبل. فرد علي بخطاب لطيف قال فيه إن الفكرة جيدة وأنه لا يمانع في ذلك ولكن، من باب الطرف الأدبية، سيكون مَثَلَه:

كمفردةٍ جناحَها على بيض أخرى ** وتاركةً بيضَها في العراءِ

وقد قمنا بطباعة كتيب "ذكرى صديقين" وساعدنا بعض الشباب في توزيعه على بعض المكتبات بالكويت التى يرتادها كثير من السودانيين لشراء الصحف والكتب. وبعدها بعدة أيام غادرت الكويت للسودان لمناسبة زواج ابني، وبعد ساعة من وصولي الخرطوم استغرقت في نوم عميق، وقبيل منتصف الليل أفاقوني من النوم ليخبروني بأن الأخبار بالتلفزيون تتواتر بأن الجيش العراقي قد اجتاح الكويت. ولم تكن قد مضت بضع ساعات منذ أن غادرتها!! ولما عدت للكويت بعد شهرين، جواً عن طريق بغداد، ومن هناك براً عن طريق البصرة، لأخذ متاعي وجدت كثيراً من أغراضي قد انتهب كحال الكثيرين غيري. ومن بين تلك الأغراض حقيبة كان فيها عدة نسخ من كتيب "ذكري صديقين" وخطاب دكتور عبد الله الطيب.

الأديب معاوية محمد نور


معاوية محمد نور
1941-1909

وفي رحاب ذكرى الدكتور عبد الله الطيب وكتيِّبِهِ الرائع، نتتقل مع ركب أدباء الجعليين لنصل إلى سيرة النابغة السوداني الأديب معاوية محمد نور (١٩٠٩-١٩٤١م) الذى بدأ وكأنه كوكب لاح ضياؤه في الأفق ثم اختفي. نشأ معاوية في أمدرمان في كنف ورعاية جده لأمه الدرديري محمد عثمان الذى تقدم ذكره، وأكمل تعليمه في الجامعة الأمريكية ببيروت، ويقول الدرديري في مذكراته:

"إنه اعتنى عناية خاصة بابن أخته الناقد والأديب معاوية محمد نور بعد ان توسم فيه نبوغاً مبكراً واستعداداً أدبياً ممتازاً. وحصل على بكالوريوس آداب من جامعة بيروت الأمريكية (عام ١٩٢٨م) وكانت كتاباته الرائعة القوية تنشر بالعربية في مجلة السياسة الاسبوعية وبالإنجليزية في مجلة "الأجيشيان غازيت"، وما أكثر ما هزت مقالاته دار المعتمد البريطاني في مصر ودوائر حكومة السودان. ولمع اسمه ونال الإعجاب والتقدير من رجال الأدب والسياسة في مصر وفي مقدمتهم الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد.

كانت الآمال فيه كبيرة، ولقد كان كثير القراءة، دائب الاطلاع وجيد الإنتاج. يشكو من انه يفهم أسرع مما يجب. وكان، لو امهله القدر، مرجواً أن يؤدي خدمات جليلة لهذا البلد. لولا أن عاجله الموت في عمر الزهور فذهب مبكياً على شبابه ونبوغه وطموحه، وهو في يداية العقد الرابع من عمره. فقد جاء قبل أوانه وذهب قبل أوانه ... اسكنه الله فسيح جنانه." انتهى.

وقد كتب المعلق على مذكرات الدرديري:

".... خرجت أعمال معاوية بعد كتابة الدرديري هذه المذكرات. ولكن المقالات الانجليزية من الأجيشيان غازيت، والتى أشار إليها السيد الدرديري لم تنشر بعد .... أما كتاباته في الادب العربي والإنجليزي، فتملأ مجلداً لعل الظروف تتيح جمعها واصدارها في كتاب خاص". انتهى. وقد علم المؤلف مؤخراً من الدكتور متوكل محمود متوكل، حفيد الدرديري محمد عثمان، أن أسرتهم تسعى لجمع ونشر هذا التراث الأدبي الرائع الذى تركه النابغة معاوية محمد نور خلال عمره القصير.

والجعليون في وسط وشمال السودان هم أكثر القبائل اهتماماً، ومنذ عهد بعيد، على تنشئة أبنائهم على حفظ ما تيسر من القرآن الكريم وإحياء شعائر الدين. وليس أدل على ذلك من كثرة دور القرآن (الخلاوي) التى لا تكاد تخلو منها قرية واحدة في مناطقهم. وكثير من هذه الخلاوي كانت عبر مئات السنين يفد إليها الطلبة من أقاصي بقاع

السودان لحفظ القرآن. ومن أشهر هذه الدور خلاوي الشيخ الجعلي في كدباس. وهي التى لم تنطفئ فيها أبداً نار القرآن منذ قرون. وخلاوي الشيخ حامد أبو عصا في المكنية والتى يقوم حاليا على إحيائها أبناء الشيخ سليمان الخليفة وعلي رأسهم الأستاذ عبد المنعم وأخواه الطيب وبشير سليمان الخليفة، عليهم رحمة الله. ومنها خلاوي الشيخ جابر الشهيرة، وخلاوي الشيخ محمد صغيرون في بلدة "قوز المطرق" جنوب شندي والتى كانت تعرف كذلك بـ "قوز العلم"، وهي من أقدم الخلاوي في السودان. وممن تلقى العلم فيها عن الشيخ صغيرون، الشيخ فرح ود تكتوك، وهو "من البطاحين العبادلة، والعالم الزاهد المتواضع صاحب الأمثال والحكم وتلميذ الخطيب عبد اللطيف البغدادي، والذى من حكمه أشعاره التى يحض فيها على طلب العلم:

العلم نور لا يماثله ضياء ** والجهل ليل أسود مثل الفحم

وهو صاحب القصيدة المشهورة التى مطلعها:

يا واقفا عند أبواب السلاطين ** ارفق بنفسك من هم وتحزين

والبطاحين ينتمون إلى جدهم محمد جديد الملقب بأبطح وهو من ولد قحطان ولد سميرة ولد الأمير سرار ولد السلطان حسن كردم الذى ينتهي نسبه إلى إبراهيم جعل الجد الأكبر لكل المجموعة الجعلية. وأولاد الأمير سرار هم: سمرة وسميرة ومسمار.

مساهمة الجعليين في نهضة السودان الحديثة

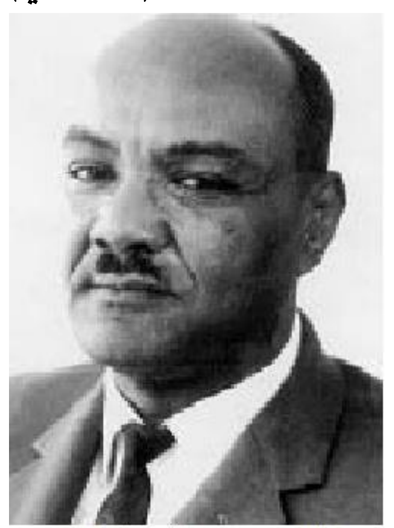
في مجال العلم والفكر السياسي

الدكتور التجاني الماحي (١٩١١-١٩٧٠م)

ذكرنا في الفصل السابق أسماء قليل من كثير من أفذاذ الجعليين الذين ساهموا في كل مجالات السياسية والأدبية والعلمية والاجتماعية في تاريخ السودان الحديث. وهنا نذكر لمحات يسيرة عن أخبار آخرين منهم.

وهنا أبدء بقصة طريفة. وذلك بأن حظيت (المؤلف) في مستهل حياتى، بلقاء عابر مع أحد هؤلاء المشاهير ترك في نفسي، إلى هذا اليوم، انطباعاً رائعاً عن جانبٍ من عظمة أولئك الرجال.

كانت تلك القصة في أوائل خمسينيات القرن الماضي حين كنت طالبا بالصف الثاني بمدرسة وادي سيدنا الثانوية. وكان حينذاك يُسْمَحُ للطلبة بالخروج من الداخليات والذهاب إلى ذويهم بالعاصمة مرة كل خمسة أسابيع – يخرجون ظهر الخميس ويعودون عصر الجمعة. وكانت غاية المتعة في تلك الأيام، والتى كنت أتحرق شوقا إليها، الذهاب – صباح الجمعة من أمدرمان – لقضاء ساعتين أو ثلاثة في مكتبة "سودان بوكشب" بالخرطوم، أتصفح خلالها الكتب وأشتري أربعة أو خمسة منها، خاصة كتب "البنجوين والبليكان" الإنجليزية، التى كان سعر الواحد منها سبعة قروش. وكانت توجيهات إدارة المكتبة، حفظاً للنظام، أن يترك الزائر الكتب التى لا يود شراءها على الطاولات ليعِيدُها الموظفون للأرفف فيما بعد. وفي واحدة من تلك الزيارات كانت المكتبة تعج بعدد من الرواد، إذ كان قد وصلتها كمية كبيرة من الكتب الجديدة. فكان ذاك يوم عيد بالنسبة لي. فأخذت أتجول لعدة ساعات بين الرفوف وأتصفح الكتب والمجلات. وأخيراً أخذت خمسة كتب، كعادتي، وتوجهت نحو الصراف، (مصطفي) الذى كان يعرفني جيداً كزبون، لأدفع قيمتها. وفي طريقي أدركت أنِّي لم أحضر معي المبلغ الذى كنت عادة أدخره من مصروفي الشهري، البالغ جنيهاً، لشراء الكتب (بحوالي ٧٠ قرشا)، فتركت أربعة من الكتب الخمسة على الطاولة، وأخذت واحداً، ثم تصفحت عدداً من كتب أخرى ومجلات.


الدكتور التجاني الماحي
1970-1911

وعندما وصلت للصراف لأدفع قيمة الكتاب وجدت أمامه الكتب الأربعة التى تركتها ورائي على الطاولة. فاعتذرت

له عن عدم مقدرتي لشرائها، ففاجأني بقوله إن قيمتها قد دفعها "عمك الواقف هناك". فذهبت لذلك الرجل لأشرح له أنني لم أتمكن من شراء تلك الكتب لظرف طارئ. وبعد أن تعرَّف علي قال لي كلاما خلاصته: يا ابني كنت الاحظك تتصفح الكتب على بصيرة من أمرك. فتقبل هذه الكتيبات هدية مني، ولكن دع زملاءك يقرؤونها معك. فشكرته، ثم سألته عن اسمه وأنا مرتَبِكٌ نوعاً ما، فقال: أنا عمك التجاني الماحي !!

تخرج دكتور التجاني الماحي في مدرسة كتشنر الطبية، وكان أول سوداني يتخصص في علم الطب النفسي (١٩٥٩-١٩٦٩م)، وكان عضواً ورئيساً بالتناوب لمجلس السيادة الثاني (١٩٦٤-١٩٦٥م). ثم رئيساً لقسم الطب النفسي في كلية الطب بجامعة الخرطوم، حتى حين وفاته في عام ١٩٧٠م.

وقد جاء في خلاصة سيرته من مصادر متعددة ما يلي:

"يعد دكتور التجاني الماحي أبو الطِّب النفسي الإفريقي، وهو من مؤسسي جمعية الطب النفسي الأفريقية. وله دراسات رائدة حول السحر والزار وغيرها وعلاقتها بالصحة النفسية. وفي بحوثه حول الثقافة الأفريقية كان يدرس الآثار والحضارات الإفريقية القديمة وله معرفة باللغة الهيروغليفية. وكان يعزف البيانو وله اهتمام بالفنون بأشكالها المختلفة. وكان موسوعة في العلوم والثقافة. وله مقالات متعمقة حول الطب النفسي والثقافة. وقد عبرت ملكة إنجلترا، الملكة إلى زابيث الثانية، التى زارت السودان عام ١٩٦٥م إبان فترة رئاسته للدولة، عبرت عن ذهولها بحصيلته الثقافية واللغوية والمعرفية". انتهى.

ولد الدكتور التجاني الماحي بمدينة الكوة. وينتمي من جهة أمه إلى العمراب من نسل الشيخ حامد أبو عصا. وهو خال الأستاذين بدر الدين وغازي سليمان. وقد وهب دكتور التجاني لجامعة الخرطوم مكتبة ضخمة بها كم هائل من المخطوطات النادرة، وقدر كبير من الكتب التى تحوي صنوفا وألوانا من العلوم والمعارف. وتوجد هذه المكتبة في قسم خاص بمكتبة جامعة الخرطوم يعرف باسم "مكتبة التجاني الماحي".

الدكتور منصور خالد محمد عبد الماجد (١٩٣١-٢٠٢٠م)

- **حول تطور الفكر السياسي في السودان**

وفيما يلي نتحدث عن واحد من أفذاذ الجعليين، والشخصيات السودانية، ممن لعبوا دوراً مهماً في تاريخ وتطور الفكر السياسي في السودان، في النصف الثاني من القرن العشرين، وهو الدكتور منصور خالد محمد عبد الماجد، الدبلوماسي والكاتب والمفكر السوداني الذى يري البعض أنه من رجال السياسة المثيرين للجدل، نسبة لآرائه حول قضايا مهمة، ولخطورة المناصب المحلية والعالمية التى تقلدها.



"عمل د. منصور خالد بالمحاماة بعد إكمال دراسته، ثم عمل بعد ذلك سكرتيراً لرئيس وزراء السودان عبد الله بك خليل (١٩٥٦-١٩٥٨م) وأنتقل بعدها للعمل بالأمم المتحدة في نيويورك، ثم منظمة اليونسكو بباريس. وعمل استاذاً للقانون الدولي، بجامعة كلورادو بالولايات المتحدة[٦٧].

وفي يناير ١٩٦٩م، نشر د. منصور عدة خالد مقالات في صحيفة الأيام، تنبأ فيها بزوال الحكم الديموقراطي- نسبة للمشاحنات الحزبية، والعداء الطائفي، وعدم احترام الأحزاب لمبدأ الديموقراطية واستقلالية القضاء. ولما تمض بضعة أشهر على تلك المقالات حتى صدق تنبؤه، وأطاح جعفر نميري بالحكم الديموقراطي في السودان في ٢٥ مايو ١٩٦٩م، وأتي بنظام ثورة مايو التى مهدت لذلك الزوال الذى عصف بالديمقراطية في مدارج الرياح حتى اليوم (مارس ٢٠١٨م).

---

[٦٧] *من مصادر متفرقة – ٢٠١٥م. أنظر الملاحق لنبذة عن الدكتور منصور خالد.*

تقلد د. منصور خالد بعد قيام ثورة مايو منصب وزير الشباب والرياضة والشئون الاجتماعية. وشهدت قطاعات الشباب إبَّان فترة وزارته، نهضة كبرى تمثلت في تفعيل الشباب في الخدمة الطوعية (صيانة الطرق، بناء المشافي والمدارس الخ)، وفي إنشاء مراكز الشباب، ومراكز التأهيل، ومحو الأمية. كما أنه قد أسهم في خلق علاقات قيمة ومفيدة مع (هيئة اليونسكو، ومنظمة العمل الدولية، وحكومات مصر والجزائر وكوريا الشمالية). وقد أقامت وزارته عددا من المهرجانات الشبابية وانشأت قصور الثقافة.

وفي أغسطس ١٩٧٠م استقال د. منصور من الوزارة، رغم اعتراضات الرئيس نميري وكثير من أعضاء مجلس الثورة. ولكنه أصر عليها، لأنه رأى أن الصراعات الأيدلوجية أنهكت النظام الذى كان يعيش في تلك الفترة بالموازنات الأيدلوجية اليسارية. ورغم الفترة القصيرة التى قضاها في الوزارة إلا أنها شهدت إنجازات ضخمة. وبعد استقالته من الوزارة عمل ممثلاً لمدير عام هيئة اليونسكو "رينيه ماهيو" ضمن برامج التعليم لهيئة غوث اللاجئين الفلسطينيين. وعاد بعد ذلك وعمل سفيراً للسودان بالأمم المتحدة. ثم تقلد مناصب عدة في السودان، منها وزير الخارجية، ووزيرة التربية، ومساعد لرئيس الجمهورية. وفي عام ١٩٧٨م استقال من المكتب السياسي وخرج من (نظام مايو) لأنه رأى أن الرئيس (نميري) تغول على المؤسسية في الدولة. ثم عمل كزميل في معهد ودرو ويلسون بمؤسسة اسمثونيان بواشنطن، عقب تركه السودان في عام ١٩٧٨م.

شغل د. منصور موقع نائب رئيس اللجنة الدولية للبيئة والتنمية، التى انشأتها الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٨٢م، ومقرها جنيف، وله اسهامات كبيرة في ذلك المجال أهمها تأليف وثيقة العمل التي هي أساس عمل اللجنة حتى اليوم. وألف عدداً من الكتب حول السياسة السودانية باللغتين العربية والإنجليزية، كما نشر العديد من المقالات في الحوليات الدولية، عن قضايا التنمية والسياسة في العالم الثالث (عن مصادر متفرقة – ٢٠١٥م).

تميزت كتابات د. منصور خالد بأسلوب أدبي سلس، رفيع المستوي، وحوت قدرت كبيرا من التوثيق العلمي الدقيقِ. ومن أهم كتبه كتاب "النخبة السودانية وإدمان الفشل" الذى يتناول في جزئين متكاملين أنظمة الحكم التى تعاقبت علي السودان منذ سقوط الحكم العسكري في أكتوبر ١٩٦٤م وحتي تاريخ نشر ذلك الكتاب عام في ١٩٩٣م. ومنذ صدور ذلك الكتاب وحتي اليوم (مارس ٢٠١٨م) لم يعد الفشل إدماناً للنخبة السودانية الحاكمة فحسب، بل صار نمطاً متسارعا في الهبوط إلى مستنقع التردي السياسي والإقتصادي والإجتماعي، وديدناً يحدو به الركبان في قوافل السخرية، إن صح التعبير. ورغما عن اختلاف الكثيرين معه في الرأي، إلا أن مؤلفات دكتور منصور لها أهمية خاصة. وهى عون للباحث عن تفاصيل مهمة عن مسيرة السودان السياسية، ومن أهم تلك المؤلفات:

- **حوار مع الصفوة**

وهو كتاب ضم عددا مقدرا من المقالات (كتبت عقب ثورة اكتوبر ١٩٦٤م) تحدث فيها الدكتور منصور عن مختلف القضايا الفكرية والثقافية والاقتصادية والسياسية والتعليمية.

- **لا خير فينا ان لم نقلها**

يتضمن هذا الكتاب مجموعة من المقالات أعدها الكاتب في الفترة ما بين ١٩٧٨–١٩٨٠م حول الوضع السياسي في السودان، لمعالجة بعض القضايا النظرية التى اوحت بها المصالحة الوطنية، مثل التوجه السياسي للنظام والنهج الإسلامي، ومناقشة بعض القضايا التى طرحها الرئيس نميري، وهو يتهم جميع اجهزته بالفشل، دون إشارة إلى مسؤولية نميرى الشخصية عن كل ذلك الفشل.

- **السودان والنفق المظلم**

الاسم الكامل للكتاب هو: (السودان والنفق المظلم – قصة الفساد والاستبداد). وهو كتاب في نقد نظام الرئيس نميري بصورة مصادِمَة – صدر في يناير١٩٨٥م أي قبل

أقل من ثلاث أشهر من سقوط نظام نميري، إثر انتفاضة الشعب السوداني في أبريل ١٩٨٥م. ويعد الكتاب سيرة ذاتية للدكتور منصور وللنظام المايوي إذ ذكر فيه كثيرا من دقائق الأخبار.

- **الفجر الكاذب: نميري وتحريف الشريعة**
- **النخبة السودانية وإدمان الفشل (في جزئين) – ١٩٩٣م**
- **السودان، أهوال الحرب ... وطموحات السلام (قصة بلدين)**

وهذا الكتاب الأخير سفر ضخم، جمع فيه د. منصور كل قصص الحرب الأهلية السودانية، كشمالي نافذ عمل مع الحركة الشعبية، وهى الفصيل الجنوبي المتمرد على السلطة المركزية وبقيادة جون قرنق. ولقد تنبأ في الكتاب (وهذا يظهر من الاسم – قصة بلدين) بانفصال الجنوب عن الشمال، وذاك ما حصل.

مساهمة الجعليين في نهضة السودان الحديثة

في مجال السلك الدبلوماسي

السفير عثمان عبد الله حامد موسي (١٩١٩ – ٢٠٠٣م)

من أهم إنجازات الجعليين العطاء المتميز الذى قدمه السفير عثمان عبد الله حامد في نهضة السودان الحديثة.



السفير عثمان عبد الله حامد موسي
2003 – 1919

ولد عثمان عبد الله بالمتمة في عام ١٩١٩م. وهو ابن عم الأستاذ المعلم علي محمد حامد وأخيه الإداري حسن محمد حامد وابن عم أولاد أبو حامد بالمتمة. وعمه وأبو زوجته هو السيد أحمد حامد موسي، الذى كان قد هاجر إلى مدينة القضارف في ثلاثينيات القرن الماضي، وأصبح من كبار أعيانها، ومن أوائل المستثمرين في النهضة الزراعية فيها.

وعثمان عبد الله هو ابن خال حاج علي إبراهيم بيك فرح، والد المهندس إبراهيم حاج علي والدكتور حسن والدكتور مأمون وأخوانهم. وقد تزوج ابنة عمه أحمد وأنجب منها أربعة أولاد وأربع بنات، منهم المهندس عبد الله والدكتور عمر، وعادل وعلي، عليه رحمة الله، والدكتورة حياة زوجة الطبيب الإختصاصي بطب الأطفال جعفر أبن عوف، والسيدة عفاف زوجة العميد (م) محمد المنير حمد سراج، وزوجة السيد صلاح محمد الحسن سعيد، من أقطاب الحزب الوطني الإتحادي ووزير التجارة (٢٠١٤م).

أكمل السفير عثمان عبد الله تعليمه الجامعي، في كلية الإدارة والبوليس بكلية غردون في عام ١٩٤٠م، وانخرط في العمل الإداري إلى نهاية عهد الحكم الثنائي. وفي مستهل تاريخ الإستقلال في يناير ١٩٥٦م تم تعيينه أول سفير للسودان في ألمانيا الغربية، حيث ظل في عاصمتها آنذاك بون حتى عام ١٩٦١م. ثم عُيِّن لاحقاً خلال الفترة ١٩٦٦ – ١٩٦٩م سفيراً للسودان في روسيا.

أنشأ السفير عثمان عبد الله بذكائه الفذ وحسن خطابه وطيب معشره وروحه المرحة، أنشأ علاقات متميزة مع الدول التى عمل سفيراً فيها مما كان لها أثرٌ كبيرٌ في أهم الإنجازات التنموية، التى حظيت بها دولة السودان الوليدة. وكان ذلك باستقطابه من حكومة المانيا الغربية، حين كان سفيراً فيها، تمويلِ مشروع سد الرصيرص (وسيأتي ذكر ذلك المشروع لاحقا في سيرة أحد عظماء السودان)، وتمويلِ مصنع سكر الجنيد – أول مصنع للسكر بالسودان – ومصنع الذخيرية، ومصنع سك العملة، وتلفزيون السودان. وكان من إنجازاته قبول مئات الطلاب السودانيين بالجامعات الألمانية، وإبرام بروتوكول يتيح لكل المواطنين السودانين والالمان السفر والتنقل بين البلدين من غير تأشيرات دخول. وكان للسفير عثمان عبد الله فضلاً كبيراً علي المؤلف حين كان طالباً بجامعة لندن بأن هيأ له، وقتها، الفرصة للتدريب أثناء العطلات الصيفية (في عامي ١٩٦٠ و ١٩٦١م) بشركة "سيمنز" بمدينة ميونيخ، عاصمة بافاريا بألمانيا.

وكان للمؤلف ذكري مع السفير عثمان عبد الله، تتعلق بما جاء في فصل سابق عن قيود سياسة التعليم في السودان أثناء فترة الحكم الثنائي. كان ذلك في عام ١٩٥٤م حين كان عثمان عبد الله مأموراً إداريا بالخدمة المدنية. وكان المؤلف حينذاك طالباً في السنة الثالثة بمدرسة وادي سيدنا الثانوية. وكان له هواية ورغبة شديدة في تعلم الكهرباء لدرجة أن عُهِدَ إليه، وهو طالب، مع طالب آخر هو محمد أبو العزائم الذى تخرج لاحقا مهندسا كهربائيا، عُهِد إليهما بتشغيل سينما المدرسة التى كانت تعرض أفلاماً للترفيه مرة في نهاية كل أسبوع. وكانت تلك السينما قد ورثتها المدرسة، بعد إرجاعها في عام ١٩٤٦م إلى مؤسسة تعليمية، وقد كانت من قبل مستغلة بواسطة وحدات من الجيش الأمريكي. وكانت تلك الوحدات قد اتخذتها مقراً مؤقتا لها في السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية التى انتهت في عام ١٩٤٥م.

كان في مكتبة مدرسة وادي سيدنا الثانوية، مجلات أدبية عالمية تصلها بإنتظام من وزارة المعارف (التربية والتعليم حاليا)، وكان في كثير من تلك المجلات إعلانات عن مكتبات تبيع كتب الكهرباء، منها مكتبة "فويلز" الشهيرة بلندن و"مكتبة أودلْز الكهربائية" بنيويورك. وكان ممكنا شراء الكتب منهما بالمراسلة عن طريق البريد العادي. وكانت خطوط الطيران في تلك الأيام تعمل من مطار وادي سيدنا الواقع جنوب المدرسة. وكنت (المؤلف) أشتري من أولاد تبيدي، الذين كانوا تجاراً للمشغولات العاجية وغيرها من "الأناتيك" التى تباع للسياح في المطار، كنت أشتري منهم قليلا من الدولارات (بواقع ٣٥ قرشا للدولار) ببعض ما أدخره من تصليح الراديوهات أثناء العطلات الصيفية. وقد أرسلت خطابين بالبريد العام بمظروف عادي في كل منهما عشرة دولارات إلى مكتبة "أودلز" بنيويوك. ووصلني منها بعد حوالي شهرين وبالبريد العام وعلي دفعتين، أربعة مجلدات في علم الكهرباء!!

ورجوعاً إلى ذكري المؤلف مع السفير عثمان عبد الله وقيود سياسة التعليم في السودان أثناء فترة الحكم الثنائي، فقد عنَّ لي أن اشتري كتباً بالمراسلة أيضاً من مكتبة "فويلز"

بلندن. ولكن كان ذلك يتطلب ارسال المبلغ بالجنيه الإسترليني، ولم أجد تلك العملة عند تجار "الأناتيك" بمطار وادي سيدنا. وكان السبيل الوحيد هو أن أحول المبلغ (عشرة جنيهات إسترلينية – تعادل آنذاك أقل من عشر جنيهات سودانية) بواسطة بنك باركليز (حاليا بنك الخرطوم) ولكن بتصديق من مصلحة المالية. فذهبت للأخ (إبن عمي في القربي) عثمان عبد الله حامد في مكتبه بالجناح الغربي بالمكاتب الحالية لوزارة المالية. وأخبرته بما أرغب فيه، فتعاطف معي، وأعجب كثيراً برغبتي في دراسة الكهرباء وأنا لم أزل طالباً في المدرسة الثانوية. فأعانني علي كتابة طلب باللغة الإنجليزية إلى مفتش بالمالية، الإنجليزي المسئول عن تصديق التحويل بالعملة الأجنبية. وكان مكتبه في الجهة الشرقية من المبني نفسه. فذهبت إليه فقرأ طلبي ثم طالعني ملياً من أعلي إلى أسفل، وكأنما فوجئ بهذا الطالب السوداني النحيف في ردائه المتهدل، والذى يود أن يشتري كتباً من لندن لدراسة الكهرباء!! – والكهرباء علم لم يكن يدرس في أي من المؤسستين الدراسيتين الوحيدتين في السودان آنذاك – كلية الهندسة بكلية غردون والمعهد الفني (حاليا هما جامعة الخرطوم وجامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا). وكان النذر اليسير من مبادئ علم الكهرباء يدرس للضرورة لطلبة البوستة (البريد والبرق) التى كان مقرها بجنوب شرق حي بانت بأمدرمان. ولم يزد مفتش المالية علي أن قال لي "أن هذا ليس مسموح به لك"، ثم كتب علي الطلب علي طوول الصحيفة وبالخط العريض "نُتْ أبروفد" – أي "غير مُصَدَّق"!!

ذهبت من بعد ذلك للمستر "هبرل"، مدير "مدرسة البوستة" بحي "بانت" بأمدرمان وكانت لي به معرفة عابرة بواسطة الأستاذ الخير هاشم، أستاذ الفنون بمدرسة وادي سيدناً وشقيق الصحفي الشهير الأستاذ عبد الحفيظ هاشم، مؤسس "صحيفة صوت السودان"، والذى كان من أوائل رواد الحركة الوطنية السودانية قبل الإستقلال. أخبرت مستر "هبرل" بما حدث لطلبي من مفتش وزارة المالية، عسى ان أجد منه عوناً، فلم يزد علي أن قال في تعاطف "أخشي انه لا أستطيع أن أفعل شيئاً".

وبعد هذه الحادثة بعام، في سنة ١٩٥٥م راسلت الأخ (البكباشي آنذاك) محي الدين أحمد عبد الله سعد، وكان مبتعثاً في إنجلترا من "قوة دفاع السودان"، فأرسل لي كتب الكهرباء التى كنت أحاول سابقاً شراءها من مكتبة "فويلز" بلندن.

ولتكملة قصة مسيرة التعليم، انتدبت في عام ١٩٥٧م بعد إكمال سنتي المرحلة المتوسطة بجامعة الخرطوم (كما ورد ذكره في فصل سابق)، انتدبت (المؤلف) من المعهد الفني لدراسة هندسة الكهرباء في جامعة لندن. وكان ذلك بترشيح من خالي المهندس يس عباس برقدار، رحمه الله، الذى كان أستاذاً بالمعهد الفني آنذاك. ومن لندن، وكما ذكرت آنفاً، أتيحت لي الفرصة للتدريب العملي في عطلتين صيفيتين مع شركة سيمنز في ألمانيا، بواسطة الأخ العظيم سعادة السفير عثمان عبد الله حامد، عليه رحمة الله ورضوانه. وفي تلكما الزيارتين لألمانيا تعلمت دروسا عظيمة حاولت في وقت متأخر إفادة البلاد بواحدٍ منها فلم أفلح. فعندما وصلت مدينة كولون في صيف ١٩٦٠م وأنا في طريقي للسفارة السودانية بمدينة "بون"، عاصمة ألمانيا الغربية آنذاك، استرعي إنتباهي أن ميادين العرض الرياضي والعسكري، وكثيراً من المباني الضخمة والمنشآت في مدينة كولون، وهي من أكبر المدن الألمانية، كلها ما زالت محطمة وخربة، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٥م، وقد مضى عليها حوالي خمسة عشر سنة من ذلك التاريخ. وبعد يومين في ضيافة سعادة السفير عثمان عبد الله، والقنصل الأستاذ حسان المصباح، سافرت بالقطار إلى مدينة ميونيخ للإلتحاق بشركة "سيمنز". وعند وصولي مدينة ميونيخ، أصابتني الدهشة مرة ثانية برؤية كثير من المباني والمنشآت الضخمة محطمة وخربة كما كان الحال في مدينة كولون. تعجبت كثيراُ أن يكون ذلك حال كبري المدن، وألمانيا في نهضة وتنامٍ متسارع – ولم أعرف السبب لتلك الظاهرة إلا بعد حين.

بعد يومين من وصولي مدينة ميونيخ، التحقت بمركز تدريب شركة "سيمنز"، الذى كان في مبني ضخم في طرف المدينة، وبداخله أكثر من عشرين ألفاً من العلماء

والمهندسين والمتدربين من مختلف الجنسيات. كان يعمل كل حوالي عشرة منهم في غرفة مختبر، يرأسهم أحد العلماء أو المهدنسين، ويعملون علي تطوير مكونات الأجهزة الكهربائية المختلفة. وبعد إكتمال التطوير ترسل المكونات إلى المعامل في القسم الخاص بالمبني ويُصَنَّعُ أنموذجٌ للجهاز. وبعد الإختبار الناجح يرسل الأنموذج للتصنيع التجاري، في مصانع الشركة، التى كانت موزعة في مدن صغيرة في مختلف أنحاء المانيا الغربية.

بعد الحرب العالية الثانية كان من أهم قرارات أول حكومة ألمانية أن تترك المدن الكبري علي حالها من الخراب لتُعَمَّر لاحقاً، ما عدا إصلاح البنية التحتية والمرافق العامة، وأن تتوجه الجهود إلى تعمير المدن الصغيرة والقري وإدخال وإنشاء كل الخدمات فيها وبناء المصانع حولها وذلك لكيلا ينزح المواطنون إلى المدن الكبري! وفعلا قد تحقق ذلك إذ أنه حتى الآن لم يصل عدد سكان أكبر مدينة في ألمانيا مليوني نسمة، وهي مدينة هامبورج. كان ذلك هو واحد من الدروس العظيمة الذى عرفتها عنها. وقد حاولت لاحقاً وخلال عدة عقود أن أوصل تلك الرسالة إلى المسئولين في دولتنا الحبيبة ولكن "أسمعت لوناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادي". بل إن ذلك درس لم تعيه كثير من الدول ناهيك عن السودان، الذى كان عدد سكان عاصمته، الخرطوم، أقل من مئاتي ألف نسمة عند الأستقلال في عام ١٩٥٦م، والآن عدد سكان العاصمة أكثر من عشرة ملايين نسمة، أكثرهم من النازحين من الأقاليم التى اندثرت فيها بل دمرت كل وسائل الإنتاج، مما أدى إلي تمدد المدن.

مساهمة الجعليين في نهضة السودان الحديثة

في مجال الإقتصاد

الشيخ مصطفي الأمين منصور (١٨٨٩ – ١٩٨٨م)

قصة نجاح باهر

وفي سياق ذِكْر مساهمة الجعليين في النهضة الاقتصادية في السودان نذكر سيرة أحد العظماء الذى كان مثالاً يحتذي في مجال النجاح في عالم الاقتصاد. وهو الشيخ مصطفي الأمين منصور، أحد الذين ساهموا في النهضة الاقتصادية للسودان الحديث، خاصة في النصف الثاني من القرن العشرين.

ولد الشيخ مصطفي في بلدة المتمة عام ١٨٨٩م، و"الشيخ" إسمه هو الأول وليس لقبا. ووالده مصطفي الأمين حفيد المك بشير ود عقيد من إبنته السرة، وهي عمة السيدة فاطمة بت حمد ود بشير ود عقيد، زوجة الأمير عبد الله ود سعد وجدة المؤلف، وقد تقدم الحديث عنها في ذكر أحداث المتمة.

كان والد الشيخ تاجراً في العهد التركي. جاب الآفاق داخل السودان وخارجه حتى وصل ميناء عدن. ثم عاد منها ووصل المتمة عشية يوم "الكتلة". وكان ابنه الشيخ يومها يافعاً دون الثامنة من عمره. وفي صبيحة يوم وصوله إمتشق مصطفي الأمين حسامه، وقاتل ببسالة مشهودة، إلى أن استشهد مع من استشهدوا من أهله في مذبحة المتمة.

نشأ الشيخ في بيت خاله عوض الكريم أبو نخيلة الذى تقدم ذكره في الحديث عن معركة أبو طليح التى حارب فيها، وأهل أُمِّهِ هم النخيلاب، وهم أحد بطون قبيلة الجعليين.

كان الشيخ متشبعاً بروحٍ وثَّابة وتوَّاقة للنجاح في الحياة. خرج من المتمة وهو في حوالي العشرين من عمره معلناً ومصراً علي أنه لن يعود للمتمة إلا بعد أن يُكوِّن نفسه. ولم

يأخذ معه غير ريال واحد (أبو عشرين قرشا) من والدته رافضاً ما عرضته عليه من حليها من الذهب.

عبر الفتى الشيخ النهر سباحة. وكان النهر فائضاً، وبدأ رحلة بطولية في عام ١٩٠٨م بمسيرةِ عمل شاقة ومثيرة. بدأها بالعمل اليومي "طلبة" في الخرطوم. حتى تكوَّن له بعد بضعة أشهر رأس مال صغير، فسافر إلى كردفان واشتغل بتجارة الحبوب الزيتية.

وقد حكي الشيخ نفسه للمؤلف (عام ١٩٧١م) أنه قام أولاً بتجوال طويل في أرياف مدينة الغبشة بكردفان بهدف التعرف على أهالي المنطقة. فعاشرهم وعرفهم وعرفوه (وكان ذلك منه بدهاء فطري بالغ). وبعد ذلك التجوال افتتح "وكالة" لشراء المحاصيل بمدينة الغبشة. فأقبل عليه الأهالي من كل حدب وصوب. وأودعوه محاصيلهم لبيعها بالحاضر والآجل كيفما أراد، ثقةً منهم بما عهدوه فيه من سابق معرفة وعشرة. وقد كانوا من قبل يذوقون الأمرين من تجار المدينة بالتسويف والمماطلة في سداد قيمة محاصيلهم. وفي وقت وجيز نمت تجارته نمواً سريعاً. وتفوق علي كل تجار مدينة الغبشة. فبادر بأنشاء معاصر للزيوت في مدينة الغبشة، (وكانت المعاصر آنذاك تدار بالجمال). وفي عام ١٩٢٥م عاد إلى المتمة بعد غياب سبعة عشر عاماً، وقد كون نفسه (رجَعت لمَّان بقيت راجل)، كما كان يقول، عليه رحمه الله.


الشيخ مصطفي الأمين
(1889-1988م)

بعد ذلك توسع الشيخ في تجارة الحبوب الزيتيه، إلى أن أصبح من أوائل المصدرين لزيوت الطعام إلى خارج السودان. وفي عهد الإستقلال أنشأ في بورتسودان أكبر مصنع لإنتاج زيوت الطعام في السودان. حتى أن إنتاجه من زيوت الطعام كان يُصَبُّ رأساً

من صهاريج التخزين في المصنع إلى صهاريج البواخر التجارية، التى كانت تأخذه مباشرة إلى مصر وأروبا.

وفي ثمانينيات القرن الماضي أنشأ الشيخ مصطفي مجمعاً ضخماً لإنتاج زيوت الطعام والصابون في منطقة الباقير الصناعية جنوب الخرطوم بتكلفة بلغت ٢٠٠ مليون دولار، وفقاً لما جاء في الصحيفة البريطانية عن اقتصاد الشرق الاوسط (١٩٨٦م). وكان إنتاج مصانع الشيخ مصطفي في تلك الفترة يكفي حوالي ٣٥% من حاجة السودان لزيوت الطعام و٤٠% من صابون الغسيل وصابون التواليت.

وقد روي قصة الشيخ مصطفي الأمين وكفاحه ونجاحه، بكثير من التفصيل، المؤلفان دكتور محمد سعيد القدال، ودكتور عاطف عبد الرحمن صغيرون في الكتاب الذى أعداه بعنوان (الشيخ مصطفي الأمين – رحلة قرن من الغبشة إلى هامبرج – لمحات من سيرته – يونيو ٢٠٠٤م). وقد حوي الكتاب معلومات أخري كثيرة وقيمة، وقد أعد بتوثيق جيد. وقد سمع المؤلف كثيراً من تلك السيرة من الشيخ مصطفي نفسه، في سبعينيات القرن الماضي.

انتقل الشيخ إلى رحمة الله في عام ١٩٨٨م، بعد مسيرة نجاح بطولية. وفي خلال العقدين الماضيين تدهورت صناعة الزيوت والصابون في السودان، إلى أن أصبحت مصانعها، وكانت تعد بالعشرات، أصبحت أثراً بعد عين كحال مصانع النسيج وغيرها. وكان ذلك بسبب عدة كوارث اقتصادية، كانت طامتها الكبري، تدهور ثم اندثار مشروع الجزيرة، الذى كان أكبر مصدر لإنتاج الحبوب الزيتية، من بذرة القطن، وأكبر مصدر للأقطان التى كانت قوام صناعة النسيج في السودان. وقد كان إنتاج مصانع النسيج سنوياً، أكثر من مائة مليون ياردة من القماش خلال ثمانينيات القرن الماضي. مقارنةً بما تنتجه اليوم مصانع صغيرة لا يبلغ إنتاجها السنوي مجتمعة مليون ياردة، وهي بدورها تترنح في طريقها للزوال.

مساهمة الجعليين في نهضة السودان الحديثة

عطاء متواصل في مجال التنمية

لقد تقدم في الجزء الثاني من هذا الفصل ذكر أحد عظماء السودان، السيد علي محمد البرير الذى قدم خدمات جليلة للتعليم في السودان علي مدي عدة عقود خلال القرن الماضي، وقد تقدم ذكر نسب آل البرير.

ومن أكبر العطاء المتواصل في نهضة السودان الحديث حتى اليوم عطاء أسرة محمد أحمد محمد البرير في مجالات التجارة والصناعة والتعليم. ومحمد أحمد البرير (وهو الإسم الشائع) هو الشقيق الأكبر، لأخويه علي محمد البرير والد الدبلوماسي الكبير السفير معتصم وأخوه فاروق. وأحمد محمد البرير والد رجل الأعمال الرشيد ود. أبوبكر البرير وعمر وعثمان وأخواتهم.

وأحمد البرير، جد آل البرير[٦٨] (من نسل عرمان، الجهبذ الشهير والعلم المنير، الشيخ محمد أحمد بن محمد بن أحمد بن علي الشهير بالبرير، كأمير وزنا ومعني والذى يتصل بجده جبر العلا. وإنما سمي بجبر لشجاعته وهو نجل عرمان بن الملك ضواب بن الملك غانم. ومنه يتصل عمود النسب إلي العباس رضي الله عنه).

محمد أحمد البرير

كان محمد أحمد وهو يافع، وقليل من ذويه، كانوا بعضاً ممن نجو من مذبحة المتمة في يوليو عام ١٨٩٧م. ويروي عنه أبناؤه أن محمد أحمد قاد أولئك الناجين سيراً علي

---

[٦٨] *كتاب "جامع نسب الجعليين" المسمي "النور الحصين المنيع البأس في إتصال إبراهيم جعل بأصله العباس") – عبد الله محمد الخبير.*

الأقدام إلى أن وصلوا واستقروا في أمدرمان في آخر سنة لحكم الخليفة عبد الله. وعاشوا فيها منذ ذلك التاريخ وحتى الآن.

بدأ محمد أحمد حياته التجارية في أمدرمان، في ثلاثينيات القرن الماضي. وفي بداية الأربعينات أنشأ هو والسيد كردمان، وآخران أول شركة صدرت الماشية إلى مصر. وكانت أول شركة سودانية بدأت تصدير الماشية.

توفي محمد أحمد البرير في عام ١٩٦٩م. وكان له من الأبناء محي الدين وصلاح وأخواتهم من زوجته الأولي من ذرية حاج خالد محمد سليمان "كروم"، وهاشم وإخوانه مأمون وهشام ومتوكل وعبد الملك وامير واحمد وفيصل وأختاهم سلمي وأميرة من زوجته خديجة بنت حمد البريقدار (وهم أبناء خالة والدة المؤلف). وله من الأبناء أيضا معاوية ومعتز وإخوتهم، من زوجته بنت الأمين حاج أحمد المقبول، شقيقة ميرغني، والريح واللواء مقبول الأمين وإخوانهم.



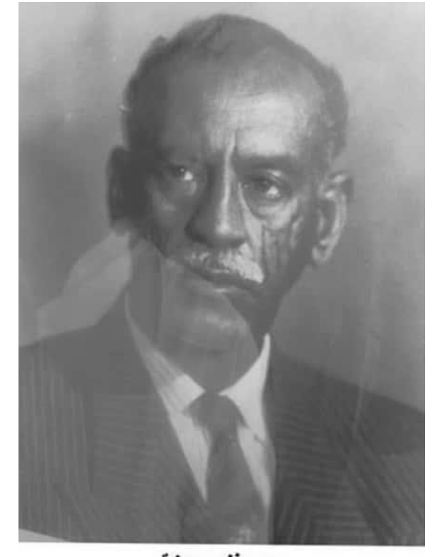
السيد / محمد أحمد البرير

خلف محمد البرير في إدارة العمل التجاري إبنه هاشم، الذى كان أول من تولي رئاسة الغرفة التجارية السودانية. وأنشأ ابنه مأمون محمد أحمد البرير، عدة مصانع تحويلية لصناعة الحلوي والمشروبات الغازية والصابون، وأنشأ معاوية، مجمعات صناعية كبيرة في صناعات الأغذية. وأنشأ شقيقه معتز وأخوانه بأمدرمان جامعة التقانة التى أصبحت صرحاً تعليمياً شامخاً ذا كليات متعددة. وكل هذه المنشآت لا تزال تعمل بنجاح كبير في خدمة نهضة الاقتصاد السوداني وتنمية البلاد.

أحد عظماء نهضة السودان الحديث

السيد ميرغني حمزة البلة (١٨٩٧ – ١٩٧٤م)

أوردنا في فصل سابق توثيقاً لميلاد السيد ميرغني حمزة البلة حمزة، تحت شجرة تَنْضُب[٦٩]، يوم خرجت والدته السيدة فاطمة (فانا) بنت الفقيه الشيخ إبراهيم سوار الذهب من بيتها هائمة علي وجهها، في ذهول من هول المذبحة الدائرة حولها في طرقات المتمة وأرجائها، وهي حبلي تعتصرها آلام المخاض.


ميرغني حمزة
1974-1897

والسادة السواراب هم أشراف دهمشية بديرية، جمعتهم المصاهرة مع العمراب، آل حاج خالد محمد سليمان كروم، وآل موسى جد عبد الله بك حمزة ود موسى الذى وُلِدَ بقرية "أبو حليمة" شمال الخرطوم، وهم عبدلاب. وكانت مهنتهم التجارة وكانوا يديرونها بين مصر والسودان. وكانت المتمة مقرهم من قبل العهد التركي. ولا تزال أطلال مساكنهم فيها. وكانت مدينة الخندق معبراً مهماً لتجارتهم. وقد أُطْلِقَ عليهم، من أجل ذلك، خطأً اسم "الخنادقة".

وآل عبد الله بك حمزة، لهم وجود عريق ومشهود في المتمة. ولهم مساهمات كبيرة في نهضتها الزراعية. وكان أول من بدأ البستنة في المنطقة الغربية لمركز شندي هو المأمور نوح عبد الله بك حمزة، الذى أنشأ أول بستان (جنينة) في المتمة في حوالي عام ١٩٤٣م. وكان ذلك بعد تقاعده من الخدمة المدنية. وقد خلفه في إدارة البستان من بعده ولداه عباس وكمال ثم أبناؤهم امد الله في أيامهم.

---

(٦٩) يوجد في قديم الأدب العربي طرفة عن شجرة التنضب – أنظر الملحق الثاني – نبذ عن بعض المراجع.

ذكرنا أن ميرغني حمزة نشأ في أم درمان. وتخرج مهندساً في كلية غردون التذكارية. وتدرج في الخدمة المدنية إلى أن ارتقى إلى منصب نائب مدير وزارة الأشغال (وكان ذاك أول منصب يشغله سوداني في عهد الحكم الثنائي)، ثم انخرط في العمل السياسي في بداية عهد الاستقلال وتقلد، في أول حكومة وطنية، منصب وزير "الأشغال والمعارف والري" وكانت ثلاثتها مجمتعة في وزارة واحدة. كان المهندس ميرغني حمزة سياسياً بارعاً تميز بالفكر الثاقب، وبعد النظر، في شئون تنمية البلاد. وكانت له



سد خزان الروصيرص (قبل التعلية)

مساهمات كبرى في تنمية السودان الحديث من أهمها إنشاء المعهد الفني (حاليا جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا) إيماناً منه بأن التعليم المهني هو قوام نهضة الأمم. ومن المؤسف أن المعهد الفني تحول إلى مؤسسة أكاديمية من غير أن ينشأ له بديل. وإهمال التعليم المهني كان وما زال من أكبر الكوارث التى عطلت مسيرة التنمية في البلاد. وذاك مبحث طويل لا مجال للخوض فيه في هذا الكتاب.

ومن أكبر إنجازات ميرغني حمزة التى دلت على بعد نظره، فكرة إنشاء مشروع المناقل الزراعي، وإنشاء خزان الرصيرص لريّه، مما ضاعف مساحة مشروع الجزيرة بنسبة ١٠٠%، اي بتوسعة قدرها مليون ومائة ألف فدان".

وفي مراحل التصميم الهندسي لسد الخزان (والمعروف بسد الدمازين)، طلب ميرغني حمزة من الشركة الاستشارية أن تشمل تصاميم السد تركيب توربينات مائية لتوليد الطاقة الكهربائية. فأشار الاستشاريون إلى أن ذلك سيزيد من تكلفة السد وأنه لا توجد

أحمال كهربائية في المنطقة تبرر تلك الزيادة في التكلفة. فأشار عليهم إلى نقل الكهرباء إلى الخرطوم. فوافقوا على ذلك، وأدرجوا التوربينات في تصاميم السد، وكذلك تصاميم الخط الناقل للكهرباء من الرصيرص إلى الخرطوم مرورا بمارنجان، والبالغ طوله ٥٢٥ كيلومترا. وتم تنفيذ المشروع في أوائل ستينيات القرن الماضي على عهد الفريق إبراهيم عبود، بتمويل من ألمانيا الغربية استقطبه السفير عثمان عبد الله حامد.

وكان سد الدمازين أكبر مصدر للطاقة الكهربائية التى ظلت البلاد تنعم بها على مدى أكثر من سبعين عاماً مضت. وبفضله عمَّت الكهرباء مدن وقرى الجزيرة، وتم ري مشروعي الرهد الزراعي والفاو، باستخدام المضخات الكهربائية. ووصلت إمدادات الكهرباء غرباً إلى منطقة المناقل والنيل الأبيض، وكل ذلك إضافة إلى توافرها في العاصمة القومية وامتداداتها.

وبعد إنشاء سد مروي، أصبح التوليد الكهرومائي من سد خزان الرصيرص ثانِيَ أكبر مصدر للطاقة في البلاد، خاصة بعد تعلية السد بنهاية عام ٢٠١٣م. ومن إنجازات ميرغني حمزة الكبرى إنشاء مصنع أسمنت ربك بشركة مساهمة عامة، ولم يكن يوجد بالسودان مصنع للأسمنت إلا مصنع عطبرة الذى تأسس في عام ١٩٤٨م خلال فترة الحكم الثنائي.

وفي الفصل التالي نذكر نبذة موجزة عن بعض أعلام الأدب وما كان لهم من دور في النهضة الأدبية قي السودان في أوائل القرن العشرين.



الفصل الثامن

من أعلام الأدب في السودان

فى أوائل القرن العشرين

علي ذكر المكتبات في فصل سابق، كانت المكتبة الثانية الرئيسية لبيع الكتب في العاصمة، وحتى ستينيات القرن الماضي، هي مكتبة النهضة (أو مكتبة أبو الريش) التى أسسها السيد محمد عباس أبو الريش، شقيق الأستاذ السني عباس والدكتور إبراهيم عاس أبو الريش وإخوانهم. ودكتور إبراهيم +هو الذى عرَّب كتابي النيل الأزرق والنيل الأبيض للمؤرخ ألان مورهيد، وقد تقدم ذكره. وقد كتب ابن أخيه السيد / ماضي أبو العزائم عباس أبو الريش في موقعه في الشبكة الإلكترونية (الإنترنت) "أن محمد عباس أبو الريش كان من أعلام الصحافة السودانية ومن أحد رواد مدرسة النهضة الأدبية. تخرج في كلية غردون من قسم الكتبة والمحاسبين. وعشق القراءة والبحث والمطالعة. وفي عام ١٩٢٩م افتتح مكتبة النهضة السودانية. وفي عام ١٩٣١م أصدر مجلة النهضة، فكانت (أول مجلة ثقافية صدرت في السودان)، وأول حيز فكرى إجتمع فيه المثقفون السودانيون. وظهر على صفحاتها محمد أحمد المحجوب، ويوسف مصطفي التني، ومحمد عشري الصديق، وإسماعيل عتباني، وعبد الله ميرغني، وأحمد يوسف هاشم. ويعد محمد عباس أبو الريش رائدا في مجال الصحافة الأدبية المتخصصة. فمجلته كانت تعد اساساً لكل المجلات التى صدرت بعد ذلك، وبخاصة مجلة الفجر التى تعد امتداداً لها. وتميز أسلوبه بالمخاطبة المباشرة للقراء. وقد توقفت مجلة النهضة بنهاية حياته عام ١٩٣٥م بعد صدور ثلاثين عددا منها". إنتهى.



محمد عباس أبو الريش 1908-1935
مؤسس مكتبة ومجلة النهضة 1931

وأسرة أبو الريش تنحدر من أصول محسية. وقد ربطهم التصاهر بآل باخريبة، التى تصاهر معها عدد من الأسر السودانية. نذكر منهم آل الخليفة محمد محمود، وآل

محمد أحمد فقيري، وآل مسعود أحمد السيد، وآل أبو شرف، وآل عبد الله عثمان العريفي، الإداري السابق، وآل مجذوب قاسم وغيرهم. وقد صاهر مؤلف هذا الكتاب، الدكتور إبراهيم عباس أبو الريش في عشرة هانئة، مضى عليها أكثر من خمس وخمسين عاماً.

والتصاهر، من خارج الأسرة أو من خارج القبيلة، في العالم العربي وفي أواسط وشمال السودان بصفة خاصة، لعب وما زال يلعب دورا مهما في تماسك القبائل المختلفة وتوادها، وفي حل النزاعات فيما بينها، وفي احتواء الخلافات أو التقليل من تفاقمها. وهو من العوامل المهمة في استقرار الأحوال الاجتماعية، بسبب تراحم الناس وتقاربهم وترابطهم الأسري، الذى يتجلي في تواصلهم في الأفراح والأتراح وغير ذلك من المناسبات.


محمد أحمد المحجوب
1976-1908

وقد برز في تلك الحقبة الزمنية المشرقة عدد من نوابغ الأدب في السودان. منهم محمد أحمد المحجوب الذى كان شاعراً ومؤلفاً ومهندساً ومحامياً وقاضياً، وقائداً لحزب الأمة ورئيساً لمجلس وزراء السودان مرتين. ولد المحجوب عام ١٩٠٨م بمدينة الدويم بولاية النيل الأبيض، ووالدته من الجعليين الهاشماب، وهو ابن خالة الدكتور عبد الحليم محمد، وتذكر المصادر، من أهله الهاشماب، أن أباه من أبناء قبيلة الشايقية. فرع العونية، وهو حفيد الشيخ باسبار السكري جد البسابير[٧٠].

ومن أولئك النوابغ في الأدب السوداني، الكاتب النابه عرفات محمد عبد الله (١٨٩٩–١٩٣٦م). وهو من نسب مختلط من بين مصر والسودان. وقد قال عنه الدرديري محمد

[٧٠] *المصدر: دكتور عبد الرحمن التوم زياد – من أحفاد الشيخ باسبار، صاحب المقام الشهير بقرية البسابير جنوب ود بانقا بولاية نهر النيل.*

عثمان، في مذكراته "كان عرفات محمد عبد الله شاباً سودانياً طموحاً، بعيد الآمال، كبير القلب وعميق الفكر .. وواسع الثقافة .. تنقل في الخارج حيناً، واختير ودرس ثم جاء إلى بلاده، واجتمع إلى نخبة من الخريجين، وكون صداقات اصبحت بمرور الزمن ذات أصالة وعمق. وكان هؤلاء الأصدقاء يشاركونه في الرأي والمنهج والاسلوب، وفي طليعة هؤلاء محمد احمد المحجوب ودكتور عبد الحليم محمد، والشاعر يوسف مصطفي التني" انتهى.

"وأسس الاستاذ عرفات محمد عبد الله "جريدة الفجر" عام ١٩٣٤م، مجلة نصف شهرية، مكرسة لخدمة الأدب والفنون والثقافة العامة، كما هو مكتوب على الصفحة الأولي منها، وتقع في ٥٢ صفحة وسعرها قرشان!!" وكتب فيها نخبة من المثقفين كان أبرزهم محمد أحمد المحجوب ويوسف مصطفي التني وعبد الله عشري الصديق فأصبحت المجلة، أول ناشرة للثقافة والفكر، صوتاً لقضايا الوطن.

مكتبات بالخرطوم

كان في الخرطوم، وحتى ستينيات القرن الماضي، مكتبتان كبيرتان لبيع الكتب، هما مكتبة النهضة ومكتبة "سودان بوكشب". ومكتبة النهضة كانت أكبر موزع لأمهات كتب ومراجع الأدب العربي التى كانت تستوردها من لبنان، بعد التطور الكبير بدخول تكنولوجيا الأوفست في عالم الطباعة، مما جعلها آنذاك قبلة الأدباء وتحفة القراء. وقد اندثرت تلك المكتبة، مع الأسف، في أواخر القرن الماضي بعد أن تحولت العمارة التى كانت فيها إلى سوق للمصوغات الذهبية، "سوق الذهب" الحالى جنوب مسجد الخرطوم الكبير. وكان للمؤلف حظاً سعيداً وذلك بأنه حصل من تلك المكتبة على مجموعة قيمة من المراجع الأدبية المهمة لمكتبة المعهد الفني في عام ١٩٦٤م، عندما كان محاضراً في قسم هندسة الكهرباء فى ذلك المعهد. وقد شملت تلك الكتب، فيما أذكر، مجموعة كتب الجاحظ وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (في ٢٤ مجلداً) وكتاب العقد

الفريد لابن عبد ربه، وكتاب الأمالى لأبي على القالى، والكامل للمبرد وبعض أمهات كتب الأدب العربي الأخرى.

من ذكريات الدراسة

كان من بين زملاء المؤلف في فصل الدراسة بمدرسة شندي الريفية الوسطي، الدكتور عبد الرحمن التوم زياد، الرئيس الأسبق للمجلس الطبي، والدكتور الشيخ محجوب جعفر وزير الصحة على عهد الرئيس نميري، والدكتور الجراح ميرغني سنهوري، واختصاصي الباطنية الدكتور بشير محمد عثمان أرباب، وكلهم كانوا أساتذة بكلية الطب بجامعة الخرطوم، أمد الله في أيامهم. واستمر تزاملنا معاً خلال فترة الدراسة الثانوية بمدرسة وادي سيدنا ثم بجامعة الخرطوم. ومن بين هذه النخبة، تميز الدكتور عبد الرحمن التوم زياد، منذ أن كان يافعاً، بمقدرات أدبية مرموقة. فقد حباه الله بموهبة أدبية في الكتابة منذ أن كان تلميذاً بالمدرسة الوسطي بمدينة شندي، ونمت تلك الموهبة نمواً ملحوظاً في اللغتين العربية والإنجليزية.



الدكتور عبد الرحمن التوم زياد

وقد حظي المؤلف بزمالته في فصل دراسي واحد خلال المرحلتين الوسطي والثانوية. وكانت موهبته هذه مثار إعجاب شديد لمدرسيه لدرجة أن موضوع "الإنشاء" الأسبوعي الذى كان يكتبه، خاصة باللغة الإنجليزية، كان يُقْرَأ علينا في الفصل طيلة سني الدراسة الثانوية. وكان يتناول في كتاباته مواضيع بعيدة عن مداركنا آنذاك، مثل كتابته عن "أبارثد"، أي التفرقة العنصرية في دولة جنوب إفريقيا (في أوائل خمسينيات القرن الماضي)، مما كان مثار إعجاب مدرس اللغة الإنجليزية "مستر أوتس"، بريطاني الأصل.

أُنْشِئت مدرسة شندي الريفية الوسطي عام ١٩٤٤م، وكانت هي المدرسة الوسطي الرابعة في عموم المديرية الشمالية سابقاً (حاليا ولايتي نهر النيل والشمالية) إذ لم يكن الإنجليز في ذلك الزمان حريصين على فتح المدارس إلا لضرورة مدِّ الخدمة المدنية بالموظفين. وكانت كل دفعتنا في تلك المدرسة تتكون من ثلاثين تلميذاً كانوا أوائل المدارس الأولية من البسابير جنوبا وحتى وادي حلفا شمالاً.

وفي سياق ما ذكرنا في حلقة سابقة عن الود والعلاقات مع آل المهدي، كان للدكتور الشيخ محجوب جعفر خبر طريف، فيما جرت به المقادير. كان والده عليه رحمة الله سر تجار كريمة وكان رجلا حلو المعشر ومن القلة، إن لم يكن الوحيد، من الموالين للأنصار في منطقة الشايقية، التى كان جل سكانها من الختمية، وكان محل تقدير السيد عبد الرحمن المهدي.

وفي زيارة للسيد محجوب جعفر لمدينة شندي، ونحن وابنه الشيخ آنذاك تلاميذ في المدرسة الوسطي، التقي فيها عمنا الناظر حاج محمد إبراهيم بيه بالمتمة. ومما يذكر عنه، قوله في جلسة أنس، أنه يتمنى لابنه الشيخ أن يتزوج يوماً ما واحدة من بنات السيد عبد الرحمن المهدى. وتمضي السنوات، ويكمل الشيخ دراسته بالمدرسة الوسطي بمدينة شندي، ثم بالمدرسة الثانوية بوادي سيدنا، ثم يدخل جامعة الخرطوم في عام ١٩٥٥م ويلتقي خلال دراسته فيها بالسيدة الفضلي "إنعام"، بنت السيد عبد الرحمن، التى كانت تدرس بالجامعة آنذاك، ويتزوجها ويرزقهما الله بنين وبنات قرة أعين نابهين.

كان مؤلف هذا الكتاب واحداً من أول دفعة قبلت بجامعة الخرطوم في فجر الاستقلال (يوليو ١٩٥٥م)، وسنة ١٩٥٥م كانت آخر سنة للاستعمار البريطاني للبلاد. وكان مجموع تلك الدفعة التى حظيت بالقبول بالجامعة في ذلك العام حوالي ٢٥٠ طالباً من كل المدارس الثانوية في السودان، والتى وكان عددها آنذاك سبع مدارس فقط: هي وادي سيدنا وحنتوب وخور طقت وأمدرمان الأهلية والأحفاد والمؤتمر، وقد بدأت الأخيرتان في عام ١٩٥١م، ومدرسة ثانوية واحدة في جنوب السودان هي رمبيك

الثانوية. وهي المدرسة التى قتل فيها، في أحداث تمرد عام ١٩٥٥م، عدد من خيرة شباب السودان ممن كانوا يعملون فيها بالتدريس.

وقُبِل من تلك الدفعة ثلاثون طالباً فقط بكلية الطب. كلهم كانوا من أوائل السودان في الشهادة الثانوية، «شهادة كمبردج الثانوية في عام ١٩٥٥م»، ومنهم من ذكرنا أسماءهم آنفاً. وآخرون منهم بروفيسور محمد يوسف سكر، وهو مؤلف كتاب الفيزيولوجي القيم الذى يدرس في بعض كليات الطب بالجامعات السودانية. ومنهم دكتور عبد الرحمن محمد موسى، الذى رأس المجلس الطبي، ودكتور الصادق الأمين حاج أحمد «ابن عم د. بابكر عبد السلام وقد تقدم ذكره في فصل سابق» ودكتور عاصم زكي مصطفي، ودكتور عثمان محمود حسنين، شقيق الأستاذ المحامي على محمود حسنين، ودكتور عبد الله الحاج موسى، شقيق اللواء عمر والأستاذ إسماعيل الحاج موسى.

يتناول الفصل التالي والأخير من الكتاب نبذة عن "الحكم الثنائى" للسودان خلال الفترة (١٨٩٩–١٩٥٥م)، وهي فترة الإستعمار البريطاني، وموجز عن الحركة الوطنية التى قادت إلى الإستقلال فى أول يناير من عام ١٩٥٦م.



الفصل التاسع

نبذة عن الحكم الثنائى

للسودان خلال الفترة (١٨٩٩-١٩٥٥م)

للمقارنة لمسيرة السودان في عهد الحكم الثنائى "الاستعمار البريطاني المصري"، على عدم قبوله كحكم أجنبي، فقد عم الهدوء في ذلك العهد معظم أنحاء البلاد وتوحد القطر بعد نهاية الدولة المهدية، وبداية عهد النهضة الحديثة.

خلفية تاريخية

جمهورية السودان الديمقرطية، كان اسمها "السودان الإنجليزي المصري" خلال فترة الإحتلال، بين عامي ١٨٩٩ و١٩٥٦م، وأطلق عليها أيضاً إسم فترة "الحكم الثنائي للسودان".

وبما أن كثيراً من الأجيال المعاصرة يتوق إلى الإلمام بموجز للتاريخ الحديث للسودان، ولكي تكتمل الصورة لدى القارئ، نورد في بداية هذا الفصل أحداثا سجلتها معظم كتب التاريخ عن تلك الفترة. وفيما يلي إقتباس من مقال فيه تلخيص جيد عن فترة الحكم الثنائي وما سبقها من خلفية تاريخية وأحداث أفضت إلى الإحتلال:

"شهدت تلك الفترة إرساء أركان الدولة الحديثة لجمهورية السودان الديمقرطية، وشكلت المشهد السياسي السوداني المعاصر إلى حد كبير. ومهدت للحرب الأهلية التى أدت لإنفصال الجنوب في ٢٠١١م.

التركية السابقة ١٨٢١-١٨٨٣م

في عام ١٨٢٠م، في عهد محمد على باشا والي مصر، قام الجيش المصري بقيادة إسماعيل كامل باشا، ابن محمد علي باشا، بغزو البلاد وانتهت الحرب في عام ١٨٢٢م بانتصار القوات التركية المصرية، وضمت كل السودان الشمالي، ما

عدا دارفور، للحكم الخديوى في مصر. وعرفت تلك الفترة عند السودانيين بالتركية السابقة.

إستكمل الخديو إسماعيل، أبن إبراهيم باشا بن محمد على باشا، فتوحات جده في السودان، واستطاع ضم المناطق الاستوائية حتى أوغندا بحلول عام ١٨٧٥م. وغزا الزبير باشا رحمة، حاكم بحر الغزال آنذاك، دارفور في عام ١٨٧٣م وضمها لأملاك الخديوي.

الثورة المهدية ١٨٨٠–١٨٩٩م

وفي العام ١٨٨٠م إندلعت الثورة المهدية في السودان، بقيادة الإمام محمد أحمد المهدي، وأنهت في عام ١٨٨٥م السيطرة المصرية على السودان.

كانت الأحوال في السودان سيئة في فترة حكم الخليفة عبد الله، الذي خلف المهدى في عام ١٨٨٥م، ودخل في حروب داخلية وخارجية كثيرة، كالحرب ضد الحبشة ومحاولة غزو مصر، التى كانت قد صارت في ذلك الوقت مستعمرة بريطانية بصورة رسمية، ولم تتمكن قوات الخليفة من هزيمة الجيش البريطاني.

إعادة احتلال السودان

في عام ١٨٩٦م أنشأت الحكومة البريطانية حملة عسكرية مشتركة مع مصر لإعادة احتلال السودان، وكان بقيادة اللورد هربرت كتشنر. وتقدمت الحملة حتى وصلت أم درمان وهزمت قوات الخليفة عبد الله في الثاني من سبتمبر سنة ١٨٩٨م وانهت حكم الدولة المهدية. وبنهاية عام ١٩٠٠م اكملت بسط السيطرة على كامل كردفان، وتركت دارفور تحت حكم علي دينار، الذي احتفظ بعلاقات طيبة مع الحكومة المركزية في السودان حتى قرب قيام الحرب العالمية الأولى".

حركات المقاومة

هبت منذ ١٩٠٠م عدة حركات لمقاومة الإحتلال في مناطق متفرقة من البلاد.

الجنوب

قتل دينكا أجار، فى جنوب السودان، ضابطاً بريطانيا عام ١٩٠١م، فأرسلت الحكومة قوات الجيش لتحرق القرى المشاركة، وقتلت سلاطينها وصادرت مواشيهم. وتمرد دينكا أتوات على نهر لاو في عام ١٩٠٣م، ثم في عام ١٩٠٧م ومجدداً عام ١٩١٠م ولم تستقر المنطقة إلا فيما بعد عام ١٩١٧م.

أما النيام نيام (الزاندي) فقد ثاروا عام ١٩٠٣م بقيادة السلطان ريكتا ابن سلطان يامبيو وهاجموا فصيلة من الجيش. وقُتِلَ السلطان نفسه سنة ١٩٠٥ إثر هزيمته من جيش الحكومة. وأُلْقِيَ القبض على ابن السلطان سنة ١٩١٤م، وأبعد إلى الخرطوم حيث توفي سنة ١٩١٦م.

وتمرد الشلك سنة ١٩١٥م، والنوير في سني ١٩١٣ و١٩١٤ و١٩١٧م. والأنواك سنة ١٩١٣م. ولم يستقر الجنوب إلا فى عام ١٩٢٦م حين أُخْضِعت قبيلة التبوسا.

جبال النوبة

ظل النوبة مستقلين في معظم تاريخهم، حيث لم تخضع إلا أجزاء محدودة من الجبال للأتراك ومن بعدهم للدولة المهدية، ولم يخضعوا للمحتلين إلا بعد لأي. حيث ثاروا في جبل الداير سنة ١٩٠٣م. وفي جبل براني قرب تلودي في سنة ١٩٠٨م ثم في سنة ١٩١٧م، وفي رقيق سنة ١٩١٠م و١٩١١م، وفي هيبان سنة ١٩١١م، وفى توقوي سنة ١٩١٠م، وثاروا في أعوام عديدة وحركات متكررة حتى سنة ١٩٢٩م.

حركات المقاومة المهدية

تحرك علي عبد الكريم من أسرة المهدي عام ١٩٠٠م في إمدرمان، وادعى المهدية

وسمى جماعته "عباد الله". وعرفت أيضا بجماعة ‘ود الكريم‘. وحكم عليه وأتباعه السبعة وعشرين بالإبعاد. وسجن بحلفا حتى مات بعد الحرب العالمية الأولى، وسبقه من قبيلة البرنو الفكي محمد الخزين سنة ١٩٠٢م، وقد إدعى المهدية وأعدم.
ثم ثار عبد القادر ود حبوبة سنة ١٩٠٨م في الحلاوين بالجزيرة، وأعدم في ١٧ مايو ١٩٠٨م في سوق الحلاوين الرئيسي بحلة مصطفى. ثم ثار أحد أتباعه الفكي عكاشة أحمد بكردفان سنة ١٩١٢م وقبض عليه وأعدم.
ثم قبض على عبد الوهاب بجزيرة تنقاسي سنة ١٩٠٨م، وهو يخطط لإعلان المهدية أيضاً. ودعى الفكي نجم الدين الأهالي في سنار للثورة على أسس دينية في سنة ١٩١٠م، وأعدم أيضاً.

النبي عيسى

بعد هزيمة المهدية حاول الكثيرون البناء على إرث الثورة المهدية. فإدعى العديدون أنهم نبي الله عيسى الذي أرسل لقيادة المؤمنين بعد المهدي. فقد أعلنها محمد ود آدم في سنار، وهاجم قوة للبوليس أرسلت للقبض عليه. فقتل منها وقُتِلَ هو نفسه في الاشتباك. وبنفس الدعوى قام الشريف مختار ود الشريف، سنة ١٩١٠م، من الشنابلة وقبض عليه وأعدم. وهي السنة نفسها الذي إدعى فيها فكي مدني، بالنيل الأبيض ذات الدعوة. ثم أعلن أحمد عمر من الفلاتة من سوكوت بدارفور الدعوى نفسها، وأعدم سنة ١٩١٥م. ثم أدعاها ابن اخت المهدي، محمد السيد حامد، في مديرية الفونج سنة ١٩١٩م، وأعدم أيضاً.

ثورة ١٩٢٤م وانحسار النفوذ المصري في السودان

بعد فشل ثورة عام ١٩١٩م في مصر غير السلطان لقبه إلى "ملك مصر" بدلا عن "ملك مصر والسودان" في دلالة رمزية على إسقاط مطالباته بالسيادة على السودان

بضغط بريطاني.

وبعد اغتيال السير لي ستاك الحاكم العام للسودان في القاهرة سنة ١٩٢٤م أمهلت بريطانيا مصر ٢٤ ساعة لسحب قواتها وموظفيها من السودان. وأخمدت الحركة العسكرية السودانية التى قامت بها الكتيبة الحادية عشرة السودانية وهي الأحداث التى عرفت في السودان بثورة ١٩٢٤م(٧١).

وبعد هذه الثورة في عام ١٩٢٤م لم يعد لمصر إلا نفوذا إسمياً يمثله رفع علمها في السودان، خصوصا بعد تكوين قوة دفاع السودان في ١٧ يناير ١٩٢٥م لتحل محل القوات المصرية في الدفاع عن السودان. وانحصر تمثيل مصر في السودان بمكاتب الري المصري لإدارة خزان جبل أولياء وجمع البيانات عن النيل.

فترة الحكم الثنائى للسودان خلال الفترة (١٨٩٩-١٩٥٥م)



إتسمت هذه الفترة بإنجازات مهمة في البلاد في كل مجالات التنمية الضرورية لتحديث الأوضاع في السودان، خاصة في مجالات الإدارة والتعليم والصحة والري والزراعة وخطوط السكك الحديدية. وأرسيت قواعد الخدمة المدنية، وأنشئ القضاء بشقيه المدني والشرعي.

(٧١) *توجد تفاصيل هذه الأحداث بتوثيق جيد فى كتاب تاريخ الحركة الوطنية فى السودان، محمد عمر بشير.*


حرم كلية غردون باشا (حاليا جامعة الخرطوم) – 1936م

وكان من أهم الإنجازات خلال فترة الحكم الثنائي إُنْشِاء كلية غردون التذكارية تخليداً لذكرى الجنرال تشارلز جورج غردون باشا. وافتتحت في ٨ نوفمبر ١٩٠٢م كمدرسة ابتدائية، ثم تحولت إلى مدرسة ثانوية في عام ١٩٠٥م، أي بعد سقوط الخرطوم بست سنوات، وأخيرا تحولت إلى كلية جامعية(٧٢) في عام ١٩٤٤م.

وأنشئت قوة دفاع السودان (حاليا القوات المسلحة) التى كانت أقوى جيش في الشرق الأوسط شارك في هزيمة الطليان والالمان في الحرب العالمية الثانية، ومؤخراً وبعد الاستقلال لعب الدور الرئيس في رد القوات العراقية على أعقابها، عندما أراد الرئيس عبد الكريم قاسم أن يغزو الكويت صبيحة استقلالها في عام ١٩٦١م، ويضمها للعراق.

وأُنْشِئَ في عام ١٩٠٥م مشروع الزيداب لزراعة القطن في السودان والذى كان النموذج الأول لمشروع الجزيرة. ثم أُنْشِئَتْ خطوط السكك الحديدية ووصلت أواسط وشرق السودان، وامتدت أخيرا حتى وصلت الأبيض، وهي ما زالت تعتبر أطول خطوط للسكك الحديدية في إفريقيا والشرق الأوسط. وأنشئت على امتدادها الخطوط السلكية للتلغراف والهاتف الآلى. فاتصلت كل مدن السودان الرئيسية ببعضها البعض، وارتبطت مناطق إنتاج المحاصيل الزراعية في غرب ووسط وشرق البلاد ببورتسودان – ميناء التصدير الرئيسي.

(٧٢) *لمزيد من المعلومات عن تاريخ جامعة الخرطوم انظر الملاحق.*

وتم بناء خزان سنار، وأنشئ مشروع الجزيرة في منتصف العشرينيات من القرن الماضي، وهو أكبر مشروع زراعي في العالم تسقى أراضيه بالري الفيضي. وأُنْشِئَ مشروع طوكر لزراعة القطن، وأنشئت المشاريع الزراعية التى تسقى بالري الآلى على ضفاف النيلين الأبيض والأزرق، وعلى نهر النيل من الخرطوم وحتى وادي حلفا. وتم تطوير الترع لزراعة الأحواض بالري الفيضي. وأُنْشِئَ خزان جبل الأولياء في الثلاثينيات من القرن الماضي، وانشئت كباري عطبرة والخرطوم وأمدرمان وكوستى. وأُنْشِئَتْ الصروح التعليمية بفتح المدارس الأولية والإبتدائية والثانوية للبنين والبنات والمدارس الصناعية في كافة أنحاء البلاد، وأُنْشِئَ المعهد العلمي بأمدرمان والمعهد الفني بالخرطوم (حالياً جامعة السودان).

وأُنْشِئَتْ خطوط الترام في العاصمة وأدخلت الكهرباء والإذاعة في البلاد. وأُنْشِئَ النقل النهري وورش النقل الميكانيكي والخطوط الجوية السودانية (١٩٤٥م) وميناء بورتسودان وغير ذلك من البنيات التى نهض عليها السودان الحديث. وقد بقي من تلك البنيات ما بقي، وتدهور منها الكثير. وكثير منها، مع الأسف، في طريقه إلى الزوال ما لم تداركة قوى وطنية أمينة.

وبعد أن تحقق الأمن والاستقرار في البلاد، وادخلت المواصلات الحديثة، وتزايد الإنتاج الزراعي، وشُيِّدَ ميناء بورتسودان، نشطت التجارة بسبب ارتفاع الطلب على المنتجات الزراعية لسد حاجة الجيوش والصناعات في بريطانيا. واهتم البريطانيون بتنشيط التجارة، فأدخلوا النظم المصرفية. وكان بدايتها افتتاح فرع لبنك "باركليز لما وراء البحار" في الخرطوم في عام ١٩١٣م – فارتبط السودان بالسوق الرأسمالية العالمية ارتباطاً وثيقاً.

"إهتمت حكومة العهد الثنائي بتطوير الإنتاج الزراعي لسببين أساسيين – الأول للتصدير والثاني لتفادي المجاعات التى يؤدى وقوعها إلى زعزعة نظام الحكم. .... وأدخلت الحكومة الزراعة الآلية أثناء الحرب العالمية الثانية لسد احتياجات جيوشها من

الغذاء، ثم توسعت فيها حتى ارتفعت مشاريع الزراعة الآلية من نصف مليون فدان في عام ١٩٤٣م إلي مليوم وثلث فدان في عام ١٩٥٢م"

وكانت كل صادرات السودان تتكون من القطن، ثم الصمغ والحبوب الزيتية، ثم الثروة الحيوانية. وكان للشركات البريطانية نصيب الأسد في تجارة السودان، كما ورد بكثير من التفاصيل في كتاب (الشيخ مصطفي الأمين – رحلة من الغبشة إلى هامبرج – د. محمد سعيد القدال ود. عاطف عبد الرحمن صغيرون – ٢٠٠٤م)[٧٣].

إلا أن حكم الإستعمار، كدأبه في المستعمرات الأخرى، لم يُنْشِئْ صناعات في السودان لأن في ذلك تعارضاً مع مصالحه التى من أجلها استعمر البلاد. ولكنه كان على درجة من الوعي بأن يدخل في مستعمراته قدراً من التطور والتعليم والتدريب بما يفيد تلك المستعمرات ويخدم مصلحته في آن واحد.

وكان أول ما فطن إليه البريطانيون لتعميم الهدوء في البلاد بعد سقوط دولة المهدية، هو إرساء قواعد الإدارة الأهلية. وذلك بإحياء حكم الزعامات العشائرية، الذى كان معروفاً من قبل ومتوارثاً عند القبائل السودانية. ولم يكن ذلك بالأمر الجديد على البريطانين، ولا على أي دولة في العالم، لما لمثل تلك الزعامات من جذور ضاربة في أعماق التاريخ البشري.

وقد كتب في هذا الشأن، الإداري السابق الأستاذ عبد الله على جاد الله (حفيد الأمير حاج علي ود سعد) عن تاريخ الإدارة الأهلية في السودان وبتحقيق وافٍ في كتابه "مع الإدارة الأهلية في مسيرتها" والذى نشر في عام ٢٠٠٥م. وهو كتاب قيم وغير مسبوق في تناول موضوع الإدارة الأهلية، وفيه تغطية شاملة وبتوثيق جيد عن مصادر أولية وسرد لوقائع عاصرها المؤلف نفسه بل وشارك في كثير منها.

---

[٧٣] *كتاب (الشيخ مصطفي الأمين – رحلة من الغبشة إلي هامبرج) – د. محمد سعيد القدال ود. عاطف عبد الرحمن صغيرون – ٢٠٠٤م}.*

وقد طبق البريطانيون نظام الإدارة الأهلية بنجاح في نيجريا، قبل أن يطبقوه في السودان[٧٤]. وفي كلا البلدين أدخلوا تحسينات على ذلك النظام، بأن منحوا زعماء القبائل من نظار ومشائخ وعمد قدراً كبيراً من السلطات القانونية التى تمكنهم من فض النزاعات والقضايا الصغيرة على كثرتها، وتمكنهم من تحصيل الضرائب والعشور، الأمر الذى كان سيرهق الدولة بنظم إدارية ضخمة ومكلفة، من محاكم وقضاة وشرطة وغير ذلك من التبعات. وقد أخطأ الشيوعيون خطأً كبيراً على عهد الرئيس جعفر نميري بأن ألبوه على إلغاء الإدارة الأهلية، مما كان له آثاراً سالبة على البلاد، من عدم الاستقرار الأمني فيها، وتكدس القضايا في المحاكم وغير ذلك من السلبيات، ثم استنزاف موارد مالية هائلة لإرساء نظم بديلة، ما زالت تتعثر حتى اليوم في إدارة شئون المواطنين.

″الطريق نحو الإستقلال

- في ١٩ يونيو ١٩٤٨م، وبعد مشاورات مع بعض المسئولين في شمال السودان، أعلن الحاكم العام في السودان عن إدخال مجموعة من الإصلاحات لإعطاء شمال السودان الخبرة في الحكم الذاتى وذلك لاتخاذ المتطلبات الأساسية للقرارات المتخذة بشأن الحالة السياسية النهائية للسودان وتم انتخاب مجلس الشعب الجديد "الجمعية التشريعية" في نوفمبر وقام المؤيدون للاتحاد مع مصر، بعد تأكدهم من عدم إمكانية النجاح، بمقاطعة الانتخابات في ديسمبر ١٩٥٠م. وفي العام ١٩٥١م طالب مجلس الشعب السوداني بريطانيا بإعطاء السودان استقلالاً تاماً.
- وفيما بين عامي ١٩٥٠ و١٩٥١م استمرت الحكومة المصرية في مطالبة بريطانيا بالانسحاب من السودان.
- في أكتوبر ١٩٥١م شجبت الهيئة التشريعية السودانية اتفاقية السيادة المشتركة بين مصر وبريطانيا ومعاهدة ١٩٣٦م. وفي نفس الشهر ألغي مصطفى

---

(٧٤) *كتاب (مع الإدارة الأهلية في مسيرتها) – عبد الله على جاد الله – ٢٠٠٥.*

النحاس معاهدتي ١٩٣٦م و١٨٩٩م من جانب واحد، ولم تعترف بريطانيا بهذا الإلغاء.

- استؤنفت المفاوضات المصرية والبريطانية بخصوص الوضع في السودان وذلك بعد تنازل الملك فاروق عن العرش بعد ثورة يوليو ١٩٥٢م في مصر.
- في ٢١ فبراير ١٩٥٣م وقعت الحكومتان البريطانية والمصرية اتفاقية يتم بمقتضاها منح السودان حق تقرير المصير خلال فترة ثلاث سنوات كفترة انتقالية، تطبيقا لبنود الاتفاق. وأجريت أول انتخابات نيابية في السودان في آواخر عام ١٩٥٣م، وتم تعيين أول حكومة سودانية في ٩ يناير ١٩٥٤م، وكانت في معظمها من الشماليين.
- في ١٩ أغسطس من عام ١٩٥٥م تمردت وحدات من الجيش السوداني الجنوبي، وتم القضاء على التمرد بواسطة الجيش السوداني.
- في ٣٠ أغسطس وافق البرلمان على إجراء استفتاء عام لتحديد مستقبل البلاد السياسى، وفي نفس الوقت وافقت وبريطانيا على الانسحاب من السودان في ١٢ نوفمبر ١٩٥٥م.
- في ١٩ ديسمبر من العام نفسه أعلن البرلمان السوداني، بعد إجراء الاستفتاء العام، أن "السودان دولة مستقلة". وقد أُعلِنَت "جمهورية السودان" رسمياً في الأول من يناير عام ١٩٥٦م. وأصبح السودان عضوًاً في جامعة الدول العربية في ١٩ يناير، وفي الأمم المتحدة في ١٢ نوفمبر من العام نفسه".



خاتمة

حوت فصول هذا الكتاب، في إيجاز، لمحات عن أحداث مهمة في تاريخ الجعليين نصرةً لدينهم ودمائهم وعروضهم، غير مفاخرين بقبَلِيَّةٍ منبوذة أو عرقية بغيضة. وكان أهم تلك الأحداث مساهمتهم في إسقاط مملكة علوة الصلَّيبية، ثم ما أصابهم في بداية العهد التركي وأحداثه الدامية بحملات الدفتردار الإنتقامية لمقتل اسماعيل باشا، ثم مذبحة المتمة، وما تبعها من تحطيم ديارهم. وهي أحداث تركت جروحاً غائرة في وجدانهم وقادت إلي شتاتهم في مختلف أنحاء البلاد. إلا أنه رغما عن ذلك فقد كان لهم من المثل والقيم ما جعلهم يصمدون أمام تلك العواصف الهوجاء من البطش والدمار. وكان لتلك المثل والقيم ما لم شملهم من جديد بعد كل حدث، وما قر أعين من عاد منهم إلى دياره. وكان لمن يعد منهم فضلا على غيرهم ممن استضافوهم في ديارهم، بما جاءوا به من علوم الدين والتجارة وما أبدوه من تقاليد حميدة، وما ضربوه من مثل رفيعة وتسامح. وتشهد لهم بذلك كل المناطق التى هاجروا اليها، مما كان له آثاراَ حميدة في ترابط النسيج الإجتماعي الذى لا يزال ديدن المجتمع السوداني. وقد تميزت كثير من قبائل السودان بتلك الخصال الحميدة، إلا أن الجعليين كانوا الأكبر أثراً أينما حلوا. وقد حوت بعض الفصول لمحات عن عطاء الجعليين في تاريخ السودان قديماً، وفي نهضته حديثاً.

وفي خاتمة الكتاب، يجب التأكيد على أن مستقبل هذا البلد، مما يعانيه من أزمات، يكمن في أخذ العبرة من الماضي، والتسامح والتعايش السلمي والتعاون والتعاضد في حاضر هذا المنعطف التاريخي الخطير.

ونسأل الله أن يطهر القلوب من الظلم والفساد، وأن يوحد صفوف أبناء الوطن، ويقِيهِم شر الفتن. وهو ولي ذلك والقادر عليه.

المراجع

المصادر

١. مسند البزار عن أبي هريرة، وعن مالك في الموطأ "بُعِثْتُ لأتَمِّمَ حُسْنَ الأَخْلاق".
٢. الفحل الفكي الطاهر، تاريخ وأصول القبائل العربية بالسودان، ١٩٧٦م.
٣. تحفة الأحوذي، شرح جامع الترمذي.
٤. محمود محمد على نمر ومحمد سعيد معروف، الجعليون، ١٩٤٧م.
٥. – سلاطين باشا، السيف والنار، ١٨٩٦م.
٦. ألان مورهيد، النيل الأزرق، ١٩٦٢م.
٧. رتشارد لسلي هل، أرشيف السودان، ومصر في السودان (١٨٢٠–١٨٨١م).
٨. جعفر ميرغني، المك نمر والحركة الوطنية الأولي، مقال.
٩. أحمد عبد الله حنقة، (المك نمر – نموذج الكبرياء الوطني) مقالة في صحيفة آخر لحظة بتاريخ ٦ مارس ٢٠١٣م
١٠. إبراهيم فوزي باشا، السودان بين يدي وغردون كتشنر – الجزء الثاني، ١٣١٩هـ.
١١. عصمت حسن زلفو، معركة أبو طليح.
١٢. ونستون تشرشل، حرب النهر،٢٩١٣م، نسخة الكترونية،
١٣. د. محمد أبراهيم أبو شوك، السودان السلطة والثروات، ٢٠٠٨م.
١٤. الدكتور حيدر وقيع الله، كلي، ٢٠١١م.
١٥. بابكر بدري، حياتي – الجزء الأول، مطبعة مصر، ١٩٦١م.
١٦. البشير سعيد أبو شعر، الموت غرقا أهون من العار، مقالة، ٢٠١٥م
١٧. دكتور منصور خالد، أهوال الحرب ومآلات السلام، ٢٠٠٨م.
١٨. شارلز نيوفَلْد، سجين الخليفة، ١٨٩٩م.

١٩. د. أحمد إبراهيم أبو شوك، مذكرات يوسف ميخائيل، التركية والمهدية والحكم الثنائي في السودان، ٢٠١٦م.
٢٠. علماء اللجنة الدائمة للإفتاء، المجموعة الأولي، (٤٥٨/٣).
٢١. أبو داؤود، صحيح السنن (٤٦٧٣) – تصحيح الألباني.
٢٢. بابكر عباس الأمين، حقبة التعايشي في الدولة المهدية، مقال، ٢٠١١م.
٢٣. حسن أحمد حسين خليفة العبادي، في الصحراء الشرقية وشرق السودان – العبابدة وقبائل أخري، ١٩٩٠م"
٢٤. جمال الدين بن نباتة المصري، سرح العيون في شرح رسالة بن زيدون، ١٩٦٤م.
٢٥. محجوب عمر باشري، رواد الفكر السوداني – ١٩٩١م.
٢٦. دكتور عون الشريف قاسم، موسوعة الأنساب والقبائل في السودان.
٢٧. دكتور محمد سعيد القدال، ودكتور عاطف عبد الرحمن صغيرون، الشيخ مصطفي الأمين، رحلة قرن من الغبشة إلى هامبرج – لمحات من سيرته، ٢٠٠٤م.
٢٨. عبد الله محمد الخبير، جامع نسب الجعليين، المسمي "النور الحصين المنيع البأس في إتصال إبراهيم جعل بأصله العباس.
٢٩. عبد الله على جاد الله، مع الإدارة الأهلية في مسيرتها، ٢٠٠٥م.
٣٠. ألآجري، كتاب الشريعة.
٣١. نعوم شقير، تاريخ وجغرافيا السودان
٣٢. مكي شبيكة، شعوب وادي النيل في القرن التاسع عشر.
٣٣. محمد فؤاد شكري، مصر والسودان، تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر.

٣٤. محمد عمر بشير، تاريخ الحركة الوطنية في السودان ١٩٠٠ – ١٩٦٩م، ترجمة هنري رياض ووليم رياض والجنيد علي عمر، الدار السودانية للكتب ١٩٨٠م.

٣٥. منصور خالد، قصة بلدين.

٣٦. فيصل عبد الرحمن علي طه، الحركة السياسية السودانية.

المراجع الشفوية

١. رواية السيدة فاطمة بنت حمد ود بشير ود عقيد، وزوجة الأمير عبد الله ود سعد، وجدة المؤلف.

٢. رواية السيد محمد الحبيب بابكر محمد أحمد (العمدة)، حفيد عبد الله ود سعد، عن جدته السيدة فاطمة بت حمد، وعن "خير السيد أبو شقة"، ياور الأمير عبد الله ود سعد، الذى كان آخر من تكلم معه قبل مماته في يوم مذبحة المتمة "الكتلة".

٣. رواية اللواء (م) البشير سعيد أبو شعر عن جدته، عن نجاتها يوم يوم مذبحة المتمة "الكتلة".

٤. رواية المؤلف عن جده السيد البشير محمد المختار التجانى، عن يوم مذبحة المتمة "الكتلة".

٥. رواية الدكتور منصور خالد عن السيد ميرغني حمزة، عن ولادته يوم مذبحة المتمة "الكتلة".

٦. رواية السيد يحيى النور عثمان النور الخبير، عن جدته السيدة فاطمة أبكر حمزة موسي، عن قصة ولادة ميرغني حمزة في يوم "مذبحة" المتمة، ٢٠١٥م.

٧. رواية الإداري السيد عبد الله على جاد الله، عن السيد عبد السلام الخليفة (ابن الخليفة عبد الله التعائشي)، عن تسامح الجعليين، ٢٠١٥م.

الملاحق

الملحق الأول

توثيق لبعض الروايات الشفوية

من السيد محمد الحبيب بابكر (١٩٤١ ...) سمعها من جدته لأمه، نفيسة بنت عبد الله ود سعد:

١. **رواية السيدة فاطمة بت حمد ود بشير ود عقيد** (حوالي ١٨٧٠-١٩٦١) – **زوجة الأمير عبد ود سعد.**

قالت السيدة فاطمة بت حمد:

"جينا امدرمان من المتمه بعد الكتلة، ونزَّلونا في بيت عباس ود رحمة الله عمدة الجعليين في امدرمان المورده وهو شعدينابي من الدامر، وبعد مده بسيطه حولونا في بيت خاص وأشرف علينا الأمير يعقوب أخو الخليفه عبد الله، اكَّلْنا وشرَّبْنا وكل معيشتنا كان مسؤول منها هو وكان راجل طيب، لايدخل علينا أي واحد الا إن كان معاه الامير يعقوب. وبعد سبعه يوم رسل لي الخليفه عبد الله، قال نادوا بت حمد زوجة عبد الله ود سعد، وانا ابيت امشي في الاول، وقلت للامير يعقوب الخليفه عاوز بي شنو بعد ما قتل راجلي وبشتن بلدي. ماني ماشيالو، وحنسني الامير يعقوب. قال لي امشي شوفيه داير شنو، ومشيتلو واقفه، قال لي اتفضلي اقعدي، ان شاء الله ما ناقصاكم حاجه، والامير ما قصر فيكم. قتليه جزاه الله كل خير، ما قصر في حاجه. قال لي سمح ما لو راجلك شُوطَن يا مَرَتْ الكِويفِر؟ قلت ليه شُوطَنْتُو إنتو ياعرب يا أكَّالين الفطايِس، راجلي واخوه حاج علي ضربوا بربر. وحاج علي كاتَلْ في ابو طليح وكان من الفرسان. وانتو بتعرفوا الكلام ده. لكن انتو الخِتِيتُوا عليهم، وبَدِيتوا بالشر. وقام واحد من الجهديه جنب الخليفه، سل سيفُو داير يقطع راسي بالسيف. الخليفه كورك بصوت عالى من هناك ... اضربوه ام اضان (صفعة علي الوجه). وضربوه لمن عينو قطرت مويه.

الخليفه قال: المَرَه محَرُورَه وراجلها فارس وقتل. احنا كنا عايزين عبد الله ود سعد يجينا هنا، ونتفاهم معاهو. ولكن ارادة الله غلبت، عبد الله مات واحنا ما عارفين نموت كيف".

٢. **قصة خير السيد أب شقة** – يرويها أيضا محمد الحبيب بابكر، وهي قصة معروفة لكل سلالة آل فرح، (كان خير السيد ملازم عبد الله ود سعد وحارسه الشخصي، وكان فارساً ضخماً – توفي في أربعينيات القرن الماضي).

قال خير السيد أبو شقة:

"عند بدايه كتلة المتمه في أب رماد، كان عبد الله ود سعد القائد ليها، وحوالينو جماعة من فرسان الجعليين. ولمن الجهدية ضربوا عبد الله ود سعد في رجله، تراجع لي وراء لأنه ما قدر إركب الحصان، وقعد في فروته في الواطة ومعاه سيفه وبندقيته ومصحف صغير. وجيت ليه وهزيت فوقه ولقيته ملتخ بالدم، وسالني وين أحمد ود عقيد؟ قت ليه كِتِل (قُتِل)، وسألني عن ود أب ورقه؟ وسألني عن ود أبشنقر وعن عبد الله ود توم وتانين؟، قلت ليه: كلهم كِتْلوا. وكانوا من الفرسان الجعليين. وسألني كيف حال أخواتك؟ قت ليه: وقعن البحر. ساقَتِنْ بت أبْشِنْقْر. قال لي الحمد لله حفظن شرفن. وقال لي: شيل السيف ده وارجع البيوت. فاطمة بت حمد، وفاطمه بت حاج محمد، وحوَّا بت ود أغَبَشْ (وهن زوجاته)، كان لقيتن ما وقعن البحر قطِّعْ روسينن حفاظاً علي شرفن. ورجعت البيت ووجدت أمي فاطمة بت حمد، وسألتني عن أخيها أحمد ود حمد قت ليها كِتِل. وسألتني عن راجِلَها عبد الله ود سعد. قت ليها مضروب في رجله، ولكن أداني السيف ده ووصاني الوصية. قالت لي وصيتو شنو؟؟ قت ليها قال: انتي وفاطمه بت حاج محمد وحوَّا، إن ما لقيتكن وقعتن البحر أَقَطِّعْ روسينكن. قالت لي: جاتني بت ابْشِنْقِرْ، وقالت لي إحنا بنات كتار، قربنا على المِيَّه، ماشات على البحر، وانْتَنْ نسوان كبار. ربّيتَن وليداتْكُن، وعشان كده ما مشيت، وقالت لي أبْدَ بي أنا بي قطع الراس، وكشفت شعرها. وقالت لي: بت حاج محمد مرقت لي برَّ على الكرو، وانا ماشيا عليها. كِدَي إيدِي رجفت والسيف وقع مني، ودموعي جَرَنْ. وقلت ليها: إنتي أمي ربيتيني،

كيف أقطع راسك؟ ومشيت وخليتها في حالتا، وفي الكرو (الأراضى بين البلدة والنهر) لقينا فاطمة بت حاج محمد ميته، ومتوسدة شعرها وهي حامل. (والرواية حكتها فاطمة بت حمد وأكدتها، وفاطمة بت حاج محمد هي شقيقة الناظر إبراهيم بيه).

رواية الشيخ بابكر بدري

بسم الله الرحمن الرحيم

(أصدق التاريخ ما كتب
فى زمانه وصدق فيه كاتبه
وصدقه معاصروه ــ فيما روى) - بابكر بدري

الشيخ بابكر بدري أحد رواد العظماء الذين قدموا خدمات جليلة في مجال التعليم في السودان، وأول من افتتح مدرسة لتعليم البنات في السودان في ١٩٠٧م. وهو مؤسس مدارس الأحفاد التى انبثقت عنها "كلية الأحفاد" في عام في عام ١٩٦٦م، والتى إرتقت فيما بعد وصارت "جامعة الأحفاد (١٩٩٥م). وهو بابكر محمد ولد بدري ولد حاج الصادق ولد الطيب ولد بدري من قبيلة الرباطاب، التى هي واحدة من البطون الرئيسية لمجموعة الجعليين الكبري (التي تشمل الجعليين في منطقة الوسط، علي ضفتي نهر النيل، ما بين حجر العسل ونهر عطبرة، والبطاحين والميرفاب والشايقية والمناصير وغيرهم من البطون). والرباطاب هم سلالة رباط أبو شملة، جد قبيلتهم[٧٥].

حادثة عجيبة[٧٦]

كتب الشيخ بابكر بدري: "فى يوم جاءنى موسى يعقوب، وأخبرنى ان مختار محمد العامل محموم، فقم معى لنزوره. فركبنا فلما وصلناه وجدنا معه ملازمية يعقوب، الأمير العظيم على أحمد فضيل، وآدم جديد الحريرى، ودودية بدوي، وداؤود الجامعيين،

---

(٧٥) كتاب (تاريخ وأصول العرب بالسودان) – الفحل الفكي الطاهر – ص ٨٣ .

(٧٦) كتاب (حياتي) – بابكر بدرى – الجزء الأول ص ١٦٥-١٦٦ .

وأمامهما سموار نحاس أصفر، فيه ماء لعمل الشاى. وبينما يتحدثون، اذ سمعنا صوت الوابور الآتى بنساء المتمة، المقتول أو المأسور ولاة أمورهن. اذ نهض داؤود قائما، وضرب جبته على وركه بيده نشطاً، وقال (بلفظه): "كب امشي لخليفة المهدى يدينى جعلية أسويها سريه". فما أتم كلامه إلا نهض مختار المريض. رمى ثوبه الذى كان مؤتزراً به، وقام بسرواله فقط، وضرب داود صفعة كادت تلقيه في الأرض، وضرب السموار برجله. وقال: كمان تشرب شاى في بيتى، تشرب سم. فقال داؤود: يامختار تضربنى. قال: وأقتلك. وهل خليقة المهدى يعمل الجعليات سرارى، وهل يقدر يعملهن إذا أمدرمان ما تقيد ناراً. خرج داؤود مغضبا، وخرج بعده موسى يعقوب فزعاً، وساد المجلس صمت عميق. ورجع مختار، وقد تدثر وصار يبكي. فنهض على أحمد فضيل واقفاً وقال: والله يامختار، خليفة المهدى ما يرضى يجعل الجعليات سرارى. والله لا يمكن أن يأمر بذلك. هاهم مثل هذا يؤجج الفتنة بيننا وبينكم. ثم خرجوا. فقلت لمختار: في مثل هذه الأيام وفي مثل هذه الحالة، تعمل مثل هذا العمل وتتكلم مثل الكلام. جلس على عنقريبه والتفت إليَّ مغضباً وقال لى: أنا عارفك جبان. ماذا يريدون أن يعملوا لنا أكثر من ذلك، وما قيمة الحياة بهذه الحالة؟ ثم هاضته الحمى، فرقد، وودعته وانصرفت مستعجلا لأدرك بيت المال، فأخرج بتول بنت ولد ضبعة، بنت أخت عبد الله بك حمزه، وأخت السيد الذى بلغنى انه قتل في المتمه، لعلى أقدم لعمى عبد الله بك يداً، وأساهم بواجبى للجعليين المأسورين. ولكنى لا أزال مشغول البال بما يحصل على مختار. سار داؤود من توه إلى الرجل العاقل الحليم الحكيم الأمير يعقوب، متهيجا. طبعا حكى له ما صار من مختار. فأرسل الأمير يعقوب في الحال للشيخ بان النقا موسى، وقال له: امش إلى خليفة المهدى يعفو عن نساء المتمة، ويسلم كل واحدة منهن معارفها قبل غروب الشمس. فسار بان النقا ودخل الباب وحكي لخليفة المهدي ما قاله مختار كمتبرئ منه، ومخطئ لمختار. وقال: فاستوي الخليفة جالساً، وقال: يا بان نقا، يعقوب عرف هذا الكلام؟ قال: نعم، وأرسلنى لخليفة المهدى أبلغه اياه. قال

الخليفة: وما رأى يعقوب؟ قال: اضطربت ولكني خفت ما يعود على من المسئولية، فقلت: رأى سيدنا فوق الجميع. قال بحدة: ماذا قال يعقوب؟ قلت: يفوض لخليفة المهدي، ويري ان تقسم هذة النسوة لمعارفها، قبل غروب الشمس. قال أمش من ساعتك هذه لبيت المال، وأعط كل امرأة لمن يعرفها أو تعرفه، وشجعوا الناس على دخول بيت المال، مختار جزاه الله خيراً. قال بان نقا: فانقلب خوفي أمنا، وجبنى شجاعة، وحزنى سروراً. ورجعت إلى سيدي يعقوب. اخبرته فارتاح ارتياحاً ظهر في أسارير وجهه، ونفذت أمر الخليفة في الحال.

قلت إني أردت ان أخرج بتول بت ولد ضبعه. فلما وصلت بيتي صرت أفكر في الطريقة التى تدخلنى على النساء. ويتردد فكرى في أنهن مسموح الدخول عليهن أم وضعن في سور مخصوص، عليهن خفراء يمنعون الدخول عليهن. ثم حزمت امرى، ومشيت، فوجدت بيت المال مفتوحا. فوالله ما وجدت امرأة حرة مطلقاً، فأحسن فيها. بل وجدت الشيخ بان النقا، وابراهيم رمضان بجانبة، ودِلَالة بيع الرقيق قائمة. فاشتريت خادمتين، احداهما رضاعة لأرضع فيها ابنتي آمنة الصغيرة، لاحجزها من لبن امها، والثانية كانت للقاضي ولد الخضر، كما سيجئ ذكرها.

جعل أهل الغرب عصيان عبد الله ولد سعد سببا لاستباحة أموال الجلابة، كما يسموننا، وهبط علينا كابوس مركب من الخوف والحزن، انسانا أنفسنا، على أنا مؤسسو دولة المهدية. فجرءوا علينا، وخضعنا لهم، حتى في مدينة أم درمان. واستدل على ذلك بثلاث حوادث حدثت لي نفسى"!



الملحق الثاني

نبذ عن بعض المراجع

١. ترجمة الشيخ الفحل الفكي الطاهر

هو الفحل بن الفقيه الطاهر بن الفقيه عمر. ولد بقرية "أم دوم" جنوب شرقي الخرطوم في أواخر القرن الهجري الماضي، فى سنة ١٨٧٨م وتوفي سنة ١٩٧٥م بمدينة أبي دليق بأرض البطانة. وهو ينتمي إلى قبيلة الجعليين (فرع النافعاب). دخل أمدرمان وهو يافع، ورأي الإمام المهدي عند فتح مدينة الخرطوم عام ١٨٨٥م. كان والد الشيخ الفحل من الذين يؤلفون، ويجتمع إليهم الخاصة، ويتحدثون في التاريخ بداره، وبدار إلياس باشا محمد عبد الله أم برير، العامرة بمجالس التقاة.

وفي أثناء عمله بالتجارة، زار الشيخ الفحل أغلب أقاليم السودان، فعرف بقاعه وسكانه، واتصل بكثير من العارفين بتاريخه. وقد خصص رحلات خاصة لجمع المعلومات التاريخية، من شفاه الرواة. كما جمع بعض الوثائق والمخطوطات، التى كان منها مادة كتابه المذكور، والذى يعد من أهم الكتب تفصيلا لتاريخ القبائل العربية في السودان. وقد أخذ الشيخ الفحل عن مصادر متسلسلة، أوصلته إلى السجل الملوكي في دار الأرباب إدريس ود الملك الفحل، وما جاء فيه من أخبار قبائل الجعليين، رجوعاً إلى جدهم إبراهيم جعل، وقيام أبيه الأمير إدريس من بغداد عام ٦٥٦هـ. وأخذ عن الشيخ التاي ود سعيد، شيخ خط الهلالية السابق، عن تاريخ الزبير ود ضوة الفونجاوي، وتاريخ رفاعة، وقبائل قحطان بالسودان. وقد اطلع الشيخ الفحل على تاريخ السمرقندي، وعن مذكرة، فيها تاريخ الجعليين، لدى الأرباب خالد ود المك عمر ود المك نمر. ومن مصادره، ما سمعه عن العلامة الفقيه الشيخ موسى ود الزاكي العباسي، عن أخبار الجعليين وأخبار قبائل قحطان. وما جمعه من الشيخ موسي ود إبراهيم الولالبابي الهدندوي، ناظر الهدندوة، والمؤرخ المطلع عن تاريخ البلو والبلين وتاريخ النابتاب.

٢. إبن خلدون

هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (١٣٣٢-١٤٠٦م) مؤرخ عربي تونسي، يعد مؤسس علم الاجتماع الحديث. ترك تراثاً ما زال تأثيره ممتدا حتى اليوم. توفي ابن خلدون في مصر ودفن قرب باب النصر بشمال القاهرة.

٣. ألان ماكري مورهيد

ألان ماكري مورهيد أسترالي الجنسية. كان مراسلا حربياً خلال الحرب العالمية الثانية ومؤلفَ كتبٍ تاريخية ممتعة تحري فيها دقة التوثيق، ومن أبرزها كتابين عن استكشافات النيل في القرن التاسع عشر، وهما: النيل الأبيض (١٩٦٠م) والنيل الأزرق (١٩٦٢م) وقد ترجمهما إلى اللغة العربية الدكتور إبراهيم عباس أبو الريش، وقد فقدت مسودة ترجمة الكتاب الأول قبيل وفاته ولم يتَسَنَّ له نشره.

٤. الدكتور إبراهيم عباس أبو الريش (١٩٠٨-١٩٧٤م)

كان د. إبراهيم عباس أبو الريش سادس خمسة أطباء تخرجوا في عام ١٩٣٤م في مدرسة كتشنر الطبية (حاليا كلية الطب، جامعة الخرطوم)، وهم الدكتور عبد الحميد بيومي والدكتور حبيب عبد الله، والدكتور أديب عبد الله، والدكتور سليمان بسيوني، والدكتور منصور على حسيب. وكان الدكتور إبراهيم أول مسجل للمجلس الطبي السوداني الذى تأسس في النصف الثاني من ستينيات القرن العشرين.

وكانت سياسة الإنجليز آنذاك ألا يفتحوا مجال التعليم إلا لعدد قليل جداً من السودانيين، وفقط لقدر حاجتهم لتسيير شئون الخدمة المدنية. وقد ظل الحال على ذلك المنوال حتى تاريخ استقلال السودان في عام ١٩٥٦م.

٥. رتشارد لسلي هل

كان رتشارد لسلي هل (١٩٠١-١٩٦٦م) موظفاً بالخدمة البريطانية، ومن طلائع عظماء المؤرخين للسودان الحديث.

كان محاضراً في تاريخ الشرق الأدنى بجامعة درم بشمال إنجلترا (١٩٤٩-١٩٦٦م). حيث أسس "أرشيف السودان"، الذى يعد واحداً من أعظم مبادرات أيٍ من الجامعات البريطانية. ومن مؤلفاته المهمة: قائمة مراجع السودان من العهود القديمة إلى سنة ١٩٣٧م، وقاموس قائمة مراجع السودان ١٩٥٢م، ومصر في السودان (١٨٢٠-١٨٨١م)، وسلاطين باشا، ١٩٦٥م، والنقل في السودان – تاريخ السكة حديد، وخدمات النقل البحري والنهري في جمهورية السودان، ١٩٦٥م.

٦. نبذة من تاريخ محمد علي باشا

كانت أسوأ حقب سلالة محمد على باشا، بالنسبة لتاريخ مصر السياسي، هي فترة حكم حفيده، الخديوي إسماعيل باشا (١٨٣٠-١٨٩٥م) الذى أُنْشِئَت في عهده قناة السويس، وذلك بسبب تبديده أموالاً طائلة في نزقٍ وترفٍ مبالغٍ فيه، وإدخال مصر في ديون مثقلة، مما هيأ الفرصة لبريطانيا لاحتلالها واستعمارها لعهد طويل، انتهى بعد هبوب الثورة المصرية بقيادة اللواء محمد نجيب وجمال عبد الناصر، واستقلال مصر لأول مرة عبر آلاف السنين.

زار محمد على باشا السودان في عام ١٨٣٨م، بعد ثمانية عشر عاما من بداية الغزو التركي، حين هدأت البلاد وخضعت لحكمه، وجاء، وفي معيته حاشية كبيرة فيها عدد من المهندسين الأوروبيين، بأمل تنفيذ عدد من المشاريع في السودان، كإزالة الشلالات من مجري النيل، وإنشاء خط سكة حديد، وآخر تلغرافي، يصلان حتى الخرطوم، وإدخال زراعة القطن، وزراعة النيلة (نبتة الصبغة الزرقاء) في السودان، وغير ذلك من المشاريع، التى لم يتحقق بعضها إلا بعد وفاته. وفي تلك الزيارة، خلع رتبة البيكوية على حمزة ود موسي، والد عبد الله بك حمزة الذى كان له ولوالده تجارة نشطة مع مصر. وخلع رتبة الباشوية كذلك على خشم الموس باشا الذى كان موالياً للأتراك منذ بداية الغزو التركي، وسلالته لاتزال باقية في قرية "قد الهبوب" شرق محطة ود بانقا. ويقال إن كلاهما كانا ممن تولوا دفن ابنه أسماعيل باشا في مدينة شندي. ثم افتتح

محمد على باشا "كِيرْخَانَتَيْ" المتمة وكبوشية، (وتعني كِيرْخَانَة باللغة التركية المصبغة). وهما مبنيان ضخمان من الطوب الأحمر والمونة الجيرية، تم تصميمهما هندسياً، وهما يعلوان عن سطح الأرض بضعة أمتار، وبهما قنوات تجر الماء إلى أحواض واسعة، تغمس فيها أعشاب النيلة، ويستخلص منها بودرة زرقاء، كانت تُصَدَّرُ إلى مصر، لصبغ الملابس (ثياب الزراق التى كان يلبسها النساء عندنا إلى عهد قريب). وقد حمل الأتراك، في ذلك العهد، الأهالي في تلك المنطقة على زراعة أعشاب النيلة، من أجل الحصول على هذه الصبغة، ولا تزال آثار كيرْخَانة المتمة باقية حيث يكاد المبنى يكون على هيئته الأصلَّية.

وقد زار تلك الآثار، في ثمانينيات القرن الماضي، "الدكتور اندرو بجوركيلو"، الباحث السويدي والمحاضر في جامعة بيرقن، في شئون الشرق الأوسط، وتاريخ إفريقيا الإسلامي. وقد أخذنا قدراً من المعلومات من كتابه "ما قبل المهدية" الذى نشر في عام ١٩٨٩م. وكان أصل ذلك الكتاب بحثاً قيماً عن "الفلاحين والتجار في منطقة شندي خلال الفترة ١٨٢١–١٨٨٥م". تقدم به المؤلف لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة كمبردج. وفي زيارة للمنطقة، جمع الدكتور أندرو كثيراً من المعلومات عن التجارة في تلك الفترة، من الشيخ سليمان عبد الله بك حمزة، الذى كان يحتفظ بعدد من الوثائق التاريخية والعقود التجارية الخاصة بذلك العهد، والتى آلت إليه من أبيه عبد الله بك حمزة. وقد دَلَّ المؤلف على ذلك الكتاب وأسلفه إياه من مكتبته الخاصة الأستاذ حمد النيل عبد القادر، النائب السابق لوكيل وزارة الطاقة والتعدين، وهو القارئ واسع الاطلاع وذو النشاط الثقافي المرموق. والمؤلف يزجي له في هذا السياق جزيل الشكر. وفي ذكري تبادل الكتب، هنالك طرفة عن الشيخ يَحْيى الشرفي الذى كان من أوائل المهاجرين من اليمن إلى السودان، ومن أوائل الذين انخرطوا في الكفاح السياسي ضد الاستعمار البريطاني في النصف الأول من القرن الماضي. وقد ونفاه الإنجليز مرة إلى السعودية. كان يسكن في مدينة ود مدني، وكانت له مكتبة ضخمة، فيها عدد كبير من

الكتب، وكثير منها مكتوب بخط اليد، بسبب ندرة الكتب المطبوعة آنذاك، وكان له شعار على لوحة كبيرة فوق أرفف المكتبة، مكتوب عليها "مغفلانِ، معير كتاب ومعيده". ونحن الآن فى عهد "العولمة" أصبحت الكتب، مع توافرها، أصبحت لمعظم شبابنا أسفاراً لا يطيقون حتى حملها، ناهيك عن قراءتها. وآمل أن يكون شعار اليوم على مكتباتنا الخاصة: "مُطَّلِعَان، قارئ كتابٍ ومُعِيرُهُ".

٧. الشاعر القومي الحاردلو (١٨١٠ – ١٩١٦م)

إستقدم الخليفة عبد الله الحاردلو وإخوانه، بدعوي التفاوض معهم. ثم احتجزهم رهائن لديه، إلى أن ينتهي من حروبه الخارجية، ثم يتفرغ لقبيلتهم (الشكرية) التى لم تستمل للثورة المهدية، وكان الخليفة يخشى ثورتها.

وكان أخوه الشيخ عوض الكريم أحمد أبو سن، زعيم الشكرية، مناوئاً للمهدية. وأُسِرَ في سنة ١٨٨٥م وعفا عنه المهدي قبيل وفاته. ثم حبسه الخليفة عبد الله في العام نفسه، وأودعه سجن الساير بأمدرمان، مكبلاً في الأغلال، هو وعدد كبير من أعيان الشكرية، بعد ان كاد يفني قبيلتهم. وكان ذلك بسبب عدم استجابة القبيلة لأمر الخليفة بالحضور لأمدرمان بماشيتهم. ومات الشيخ عوض الكريم صبراً سجن الساير سنة ١٨٨٦م. ومات كذلك كل أعيان الشكرية ممن سجنهم الخليفة. المصدر (جون أو يودال ومصادر أخري).

وكان الحاردلو شاعراً قومياً مجيداً ذائع الصيت، وقد تميز شعره بقوة اللفظ وسعة تصوره للأحداث، وجزالة اللفظ (فى اللغة العربية الدارجة لدي القبائل العربية النيلية). وأكثر ما تميز به شعره الغزل، على مدرسته وطريقته الخاصة به كما يقول النقاد.

وقد جاء في مقدمة كتاب "ديوان الحاردلو"، الذى شرحه وحققه حفيده الدكتور إبراهيم الحاردلو الأستاذ بجامعة الخرطوم سابقا، قوله:

"وعلي الرغم مما أصاب الشكرية عامة، وقادتهم خاصة، من أذى وتجريد أموالٍ وسجنٍ

في فترة المهدية (على عهد حكم الخليفة عبد الله) فإن الحاردلو كان يقدر المهدي حق تقدير، ويعترف له بفضله، قائداً عزيزاً قوياً. وهو القائل:

كانْ المهدي داكْ وَلَدَاً قَدَلْ فوقْ عِزَّة .. حَتْ ودْ البصيرْ سَوَّانا في ط... وِزَّة

وذُكر عن الدكتور عبد المجيد عابدين، أستاذ اللغة العربية سابقا بجامعة الخرطوم، أن الحاردلو كان أبلغ وصفاً للأسد من أبي الطيب المتنبي، في قصيدته الشهيرة في مدح بدر بن عمار، التى قال فيها:

(أمُعَفِّرُ الليثِ الهزبرِ بسوطه ... لمن ادخرت الصارم المصقولا
وردٌ إذا ورد البحيرة شارباً ... ورد الفرات زئيرُه والنيـلا)

وقال الحاردلو، عندما رأي شبلَ أسدٍ أُتِيَ به مربوطاً لبيعه في سوق القضارف:

(جابُوكْ للمُدُنْ كتْرَتْ درَادِرْ وُضِيعَة ... وأُمَّك مِي زَيْ الحريم سِمّيِعَة
ونَتْرَتْ ناسْ أبوك الّلقلوبْ لِوّيعَة ... وِتْ كانْ كِبِرْ جَنَبَاً تَقِلْبَ البِيعَة)

وقد ذكر الدكتور إبراهيم الحاردلو، أن الشاعر الحاردلو، "قضي بعد المهدية أياما أخلد فيها إلى العزلة، وأخلص فيها إلى فنه ... وبقي في البطانة يقرأ سُبعاً من القرآن كل يوم، ويضرب إليه كثير من الناس أكباد الإبل، يسألونه عن شعره، ويعرضون عليه اشعارهم"، فيجيز من أجاز. "وهكذا انقضت أيام الشاعر الأخيرة، بين العبادة والفن، إلى أن لقي ربه راضياً مرضياً عنه، سنة ١٩١٦م في بلدة "ريرة"، في أرض البطانة، عن عمر يناهز ستة وتسعين عاما". انتهى

٨. اللواء إبراهيم فوزي باشا

اللواء إبراهيم فوزي باشا، هو مؤلف كتاب "السودان بين يدي غردون وكتشنر". وكان من كبار الإداريين في آخر الحكم التركي في السودان. وقد وقع أسيراً بعد سقوط الخرطوم في سنة ١٨٨٥م. وعاصر كل حقبة الدولة المهدية، وعايش أحداثها ما بين سجينٍ وطليقٍ مراقبٍ، وإلى حين خلاصه بنهاية دولة المهدية بعد معركة كرري في سنة

١٨٩٨م. وقد حوي كتابه أخباراً كثيرة، وتفاصيل دقيقة، لأحداث كثيرة ومهمة، خلال تلك الحقبة من تاريخ السودان.

٩. ذِكْرُ بعض أحداث مهمة في التاريخ الإسلامي

كتاب "سرح العيون في شرح رسالة إبن زيدون":

كما جاء في صدارة المحقق، فإن هذا الكتاب يعد "من الكتب الفريدة التى جمعت من شتات الفوائد، ومتشعب التراجم، والطرف والنوادر، ومصفى الشعرِ، ومنخولَ الكلام، ما لا يُجْمَعُ في كتاب. ألَّفه ابن نباتة المصري (ت. ٦٨٦هـ) شرحاً لرسالة ابن زيدون الهزلية. وكان ابن زيدون من شعراء الأندلس، (وموسوعة في فنون الأدب العربي، وأخبار العرب، وراوية لأشعارها وأمثالها). وكتب تلك الرسالة بأسلوب تهكمي ساخر (فى حوالي سبع صفحات) على لسان ولَّادة بنت المستكفي، إحدى الأديبات الظريفات من بنات خلفاء الأندلس الأمويين، إلى أحمد بن عبدوس منافسِه في حبها ومكانتِه عندها. وقد غطي شرح الرسالة، ذكر الوقائع والأيام والأحداث، ونصوص الشعر والخطب، والحكم والأمثال في الأدب العربي، لفترة بضعة قرون من بداية العصر الجاهلي وإلى حين سقوط دولة الأندلس.

ووممّا جاء فى ذلك الكتاب من باب ذكر أحداثٍ مهمة في التاريخ الإسلامي، فقد أخمد الأمير خالد بن عبد الله القسري، وهو من أواخر خلفاء بني أمية، أخمد فتنة عظيمة بحكمه بالقضاء على "الجعد بن درهم"، الذى كان أول من تكلم ببدعة "خلق القرآن"، من أمة محمد، بدمشق. فطُفِئَت الفتنة إلى أن أنشأها لاحقاً، في عهد الدولة العباسية، الوزير الشيعي أحمد بن أبي دُوَاد في أيام الخليفة المأمون، رابع خلفاء الدولة العباسية بعد آبائه عبد الله السفاح، مؤسس الدولة العباسية، ثم أبو جعفر المنصور ثم والده هارون الرشيد. وتولي الخلافة من بعد المأمون إخوته المعتصم ثم الواثق ثم المتوكل.

وقد قُتَل بسبب تلك الفتنة عدد كبير من علماء المسلمين، وسُجِن وعُذِّب وجُلِدَ آخرون غيرهم، منهم الإمام أحمد بن حنبل، الذى أُتِيَ به مكبلاً ليُقْتَل. وفي صبيحة اليوم جاءه السجان، وبشره بأن المأمون قد مات من ليلته.

واستمرت الفتنة في عهد المعتصم، ومن بعده في عهد الواثق، ثم أطفئت، كما جاء في خبر يطول ذكره، بعد مناظرة مع الشيخ أبو عبد الرحمن بن محمد بن إسحاق الأزدي، وهو فقيه شامي، هزَمَ فيها بن أبي دُؤاد الذى كان يناظر العلماء، ثم يقتلهم أو ينكل بهم. وكانت تلك المناظرة من أشهر المناظرات في تاريخ الفقه الإسلامي. وصارت من يومها حجة داحضة لكل مبتدع في أمر الدين، كالبدع التى كان الخليفة عبد الله يفتريها، ليبرر بها سفك الدماء والبطش بالناس، بأنه يتلقي أوامره من رسول الله في "الحضرة النبوية"! ولأهمية تلك المناظرة نوردها كاملة في هذا الملحق لتعم الفائدة علي القراء ليقارعوا بها أهل البدع.

ومن غريب أخبار ذلك الأمير خالد بن عبد الله القسري، وما كان بصدد ما عرف بـ "فتنة خلق القرآن"، أنه أهدر دم ذلك المبتدع، الجعد بن درهم، الذى أثار تلك الفتنة الكبري. أهدر دمه يوم عيد الأضحى بالكوفة، وقد أُتِيَ به في الوثاق. فصلَّى الأمير وخطب. ثم قال في آخر خطبته: انصرفوا وضحوا بضحاياكم، فإني أريد اليوم أن أضحي بالجعد بن درهم، فإنه يقول: ما كلم الله موسي تكليماً، ولا اتخذ الله إبراهيم خليلاً...

المناظرة الشهيرة للشيخ الأزدي حول "بدعة خلق القرآن"

أبطل علماء أهل السنة والجماعة بدع المعتزلة العقلية. ووضعوا القواعد التى يردون بها على من قدَّم العقل على النقل، في باب الصفات وسائر الأمور الغيبية. وكان من أبرزهم، الشيخ أبو عبد الرحمن بن محمد بن إسحاق الأزدي، حيث أُدْخِلَ على الخليفة الواثق بن المعتصم وهو مقيد بالسلاسل، وكان قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد قد أمر

بإعتقاله؛ لأنه كان لا يقول بخلق القرآن، فسلم الشيخ على الخليفة غير هائب. فقال له الواثق: يا شيخ، ناظر أحمد بن أبي دؤاد. فقال الشيخ الأزدي: يا أمير المؤمنين هذا لا يقوى على المناظرة. فغضب الواثق وقال له: ابن أبي دؤاد لا يقوى على مناظرتك أنت؟! فقال: هوّن عليك يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في كلامه؟ فقال الواثق: قد أذنت لك. ثم التفت الشيخ الأزدي إلى أحمد بن أبي دؤاد، رأس البدعة، وقال له: يا بن أبي دؤاد أخبرني، أمقالتك في خلق القرآن واجبة في أصول، الدين فلا يكون كاملا إلا بما قلت؟ قال ابن أبي دؤاد: نعم. قال الشيخ أبو عبد الرحمن: هل ستر الرسول صلى الله عليه وسلم شيئا مما أمر الله به المسلمين في أمر دينهم؟ قال: لا. قال الشيخ: أفدعاك إلى مقالتك هذه؟ فسكت بن أبي دؤاد! قال الشيخ الأزدي للخليفة الواثق: يا أمير المؤمنين هذه واحدة.

ثم قال: يا ابن أبي دؤاد أخبرني حين أنزل الله عز وجل: (... اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ...) {المائدة:٣}. فقلت أنت: الدين لا يكون تاما إلا بمقالتك في خلق القرآن، فهل كان الله تعالى الصادق في إكمال دينه؟ أم أنت الصادق في نقصانه؟ فسكت بن أبي دؤاد. قال الشيخ لأمير المؤمنين الواثق: يا أمير المؤمنين اثنتان.

ثم قال الشيخ: يا أحمد مقالتك هذه علمها رسول الله أم جهلها؟ قال: علمها. قال الشيخ: أفدعا الناس إليها؟ فسكت بن أبي دؤاد. قال: يا أمير المؤمنين ثلاث.

ثم قال: أخبرني يا ابن أبي دؤاد، لما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالتك التى دعوت الناس إليها، هل وسعه أن أمسك عنها أم لا؟ قال أحمد بن أبي دؤاد: علمها وسكت عنها. قال الشيخ: وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعلى؟ قال: نعم. فأعرض الشيخ عنه وأقبل على الخليفة وقال: يا أمير المؤمنين إن لم يسعه ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم السكوت عنه، فلا وسّع الله على من لم يسعه ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسكت عنه. قال الواثق: نعم، لا وسّع الله على من لم يسعه ما

وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسكت عنه. فبكى الواثق وأمر بحل قيوده، فجاذب الشيخ الحداد على القيود ليحتفظ بها. قال الواثق: ولم؟ قال: نويت أن تجعل بيني وبين كفني لأخاصم بها هذا الظالم يوم القيامة، وبكى الشيخ أبو عبد الرحمن، وبكى الواثق، وبكى الحاضرون.

وبعد هذه المناظرة التى تعد قاعدة في هدم البدعة، رفع الله المحنة عن العباد. فلما تولى المتوكل الخلافة سنة ٢٣٢هـ، وانتصر لأهل السنة، وانتقم من أهل البدعة، وجعل مذهب الدولة هو اتباع السنة، وإن لم يعد بنقائه المعروف[٧٧].

١٠. الأستاذ الدكتور يوُسُف فضل حسن

كتب الأستاذ د. أحمد إبراهيم أبوشوك، "من مقالته بصحيفة السودان، **٢٩** ديسمبر **٢٠١٤** م، بعنوان "الأستاذ الدكتور يوُسُف فضل حسن وجائزة العز بن عبد السَّلام". مقالاً رائعا وحاويا، نقتبس منه ما يلي:
نال الأستاذ يوُسُف فضل حسن بكالوريوس الشَّرف في تاريخ الشرق الأدنى والشرق الأوسط في معهد الدراسات الشرقيَّة والإفريقيَّة بجامعة لندن عام ١٩٥٩ م، ودرجة دكتوراه الفلسفة في التاريخ الإسلامي في الجامعة نفسها، عام١٩٦٤م، ورُقِّيَ إلى درجة الأستاذيةَّ في التاريخ بجامعة الخرطوم، في أول يوليو ١٩٧٢م".

تدرج الأستاذ يوسف فضل في تقلد الوظائف الإدارية الأكاديمة حتى اصبح مديراً منتخباً لجامعة الخرطوم (١٩٨٥-١٩٩٠م)، ثم مديراً مؤسساً لجامعة الشارقة بدولة الإمارات العربيَّة المتحدة (١٩٩٧-١٩٩٨م).

[٧٧] *(كتاب سهل الرضواني، وكتاب الشريعة للآجري).*

أفسحت هذه الخبرة الإداريَّة الأكاديميَّة المتراكمة المجال للأستاذ يوُسُف أن يتشرفَّ بعضويَّة العديد من المؤسسات، والجمعيات، والمجلات العلميَّة العالميَّة والإقليميَّة والمحليَّة ...

و"نجمع القول بأن القيمة المعرفيَّة التى أرساها الأستاذ الدكتور يوُسُف فضل حسن في مجال علم التاريخ والدراسات السُّودانيَّة والإفريقيَّة والعربيَّة ستظل قيمة إضافيَّة أصيلة ومتميزة، يحفظها التاريخ، ويسجلِّها على صفحات جائزة العز بن عبد السَّلام للثقافة والعلوم والآداب العربيَّة والإسلاميَّة والإفريقيَّة، التى استحقها بجدارة، لتوُضع إلى جانب الجوائز العلميَّة والتقديرية الأخرى التى حصل عليها".

الأستاذ يوسف فضل مؤرخاً ومحققاً

استطاع الأستاذ يوُسُف فضل حسن عبر مسيرته التعليميَّة الطويلة ومؤلفاته التاريخيَّة العديدة، استطاع أن يقدم صورة جديدة للدراسات السُّودانيَّة والإفريقيَّة والإسلاميَّة ...
وأنجز خلال مسيرته الأكاديميَّة، كماً مقدرا من الأبحاث العلميَّة الرصينة، التى نشرها في شكل كتب ومقالات علميَّة في مجال الدراسات السُّودانيَّة والإفريقيَّة والإسلاميَّة ومؤسسات التعليم العالى.

ويعُد كتابه "دراسات في تاريخ السُّودان وإفريقيا وبلاد العرب"، بأجزائه الثلاثة، مرجعاً تاريخياً رائداً في موضوعاته. لأنه يعالج بعض الفترات المهمة من تاريخ سودان وادي النيل، رابطا إياها بالأثر العربي والأثر الإفريقي من حيث التكوين الثقافي والاجتماعي والسياسي للسودان.

وكل الشهادات والجوائز التقديريَّةالتى نالها تدل على تميز عطاء عميد المؤرخين، وتمنحنا الفرصة لنزف إليه التهنئة الصادقة بمناسبة هذا التكريم والتقدي، فتقديره شرف لزملائه في المهنة، ولتلاميذه المنتشرين في أصقاع المعمورة". إنتهى

١١. الدكتور منصور خالد (١٩٣١-٢٠٢٠م)

ولد الدكتور منصور خالد بامدرمان، العاصمة الوطنية للسودان، في يناير من العام ١٩٣١م في حي (الهجرة). وينحدر د. منصور من أسرة أمدرمانية عريقة. تلقى جميع مراحل تعليمه حتى المرحلة الجامعية بالسودان، وتزامن في كلية الحقوق بجامعة الخرطوم، مع الدكتور حسن الترابي، ورئيس القضاء الأسبق خلف الله الرشيد، ووزير العدل الأسبق عبد العزيز شدو، وحصل على الماجستير في القانون من جامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية، والدكتوراه من جامعة باريس. وعمل بالمحاماة، ثم عمل بعد ذلك سكرتيراً لرئيس وزراء السودان، عبد الله بك خليل (١٩٥٦–١٩٥٨م). وأنتقل بعدها للعمل بالأمم المتحدة في نيويورك، ثم بمنظمة إلى ونسكو بباريس. ثم استاذاً للقانون الدولي بجامعة كلورادو بالولايات المتحدة. (مصادر متفرقة – ٢٠١٥م).

١٢. من طرف الأدب العربي

شجرة التنضب، التي ورد ذكرها في مولد السيد ميرغني حمزة البلة، هي شجرة معروفة، تنبت في المناطق شبه الصحراوية. ليس لها صفق ولكن لها سوق (فروع) كثيرة مخضرة ومتشابكة. وثمرها لونه أحمر يانع أشبه بالكرز إلا أنه باهت الطعم. وهي كثيراً ما تعيش فيه السحالى. وكانت العرب، حينما تصف المرء بشدة الحذر، تقول عنه "…. كسحلِ تُنْضُبَةٍ لا يطلق الساق إلا مُمْسِكاً على ساق". والسوق جمع ساق، كما جاء في قوله تعالى في وصف النبي صلَّى الله عليه وسلم وأصحابه "... سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ..." (الفتح ٢٩). وأما "السوق"، مكان التجارة، فكلمة مفردة، وجمعها أسواق، كما ورد في القرآن الكريم. (الفرقان – ٧ و ٢٠).

١٣. كلية غردون التذكارية

أُنشئت كلية غردون التذكارية تخليداً لذكرى الجنرال تشارلز جورج غردون باشا، الذى كان يعده البريطانيون بطلاً شهيداً. وكان ذلك بناء على اقتراح اللورد كتشنر، عند

تسلمه الدرجة الفخرية من جامعة أدنبرة في عام ١٨٩٩م، باعتماد مائة ألف جنيها استرلينياً لتشييد الكلية في الخرطوم. وقد رفضت الحكومة البريطانية آنذاك توفير المبلغ المطلوب من الخزانة العامة. فتلقى كتشنر تبرعات من أغنياء بريطانيا بلغت ١١١ ألف جنيه إسترلينيا لتحقيق هدفه بعد أن وجدت فكرته لخلق أداة لنقل المعرفة الأوروبية وتوفير فرص التعليم لأبناء السودان ترحيباً كبيراً.

إفتتح كتشنر كلية غردون، ورغم إشراف المستعمر البريطانى على إدارة كلية غوردون ومناهجها، التى وضعت بما يتفق مع المصالح البريطانية، إلا أنها أخرجت أجيالاً تولت قيادة الحركة الوطنية وزعزعة الاستعمار، ليس في السودان فقط، ويمثلهم الزعيمان إسماعيل الأزهري ومحمد أحمد محجوب، اللذان رفعا علم السودان المستقل مكان العلم البريطاني، واللواء محمد نجيب الذى حقق جلاء البريطانيين عن وادي النيل، وتحرير مصر من النظام الملكي. وأهدى، وقتها، كثير من العظماءِ والأدباء البريطانيين عدداً كبيرا من الكتب والمخطوطات النادرة للكلية الناشئة حيث لا يزال كثير من هذه الكتب والمخطوطات موجود في مكتبة جامعة الخرطوم.

١٤. الشاعر إبراهيم أحمد بابكر العبادي

ولد إبراهيم أحمد بابكر العبادي بمدينة أم درمان، ويعد أول من استحدث نقل الشعر الغنائي السوداني من "الطنبور" إلى "الرق". بدأ نظم الشعر الغنائي في سنة ١٩١٤م. ثم الدوباي (أو الدوبيت وهو الشعر القومي السوداني) في سنة ١٩١٧م فانشأ قصيدته:

اقتبس البدر من آمنة نوره ودَارْتُه * والخز والذهب عارْ من جِسِيمَها نضارته

كان العبادي مفخرة للأدب الشعبي، إذ كان من قلائل الشعراء القوميين العالمين والحافظين لكثير من الشعر الجاهلي. قرأ للأصفهاني والبارودي وحافظ إبراهيم. وله كثير من الشعر السياسي وأدب المدائح. (صحيفة الانتباهة – أغسطس ٢٠١١م).

١٥. العز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن (١١٨١-١٢٦١م)

كان العز بن عبد السلام من أجل العلماء. ولَقِّبَ بشيخ الإسلام والمسلمين، وسلطان العلماء، وإمام عصره بلا مدافعة. كان له هيبة عظيمة، وجرأة في الحق ولا يُذكر اسمه (رحمه الله) إلا وتُذكر معه الجرأة على كل مخالف لشرع الله، مهما علا وارتفعت بين الناس مكانته، وله مواقف خالدة كثيرة، كان واحد منها السبب في تغيير مجرى التاريخ بدحر جيوش التتار في بلدان العالم الإسلامي.

مواقف خالدة

عاش العز بن عبد السلام، إبان فترة الدولة ألأيوبية (١١٧١-١٢٦٠م). وتوفي بعد نهايتها بعام واحد، وكان له مواقف خالدة وكثيرة، منها: أنه حينما تولى (الصالح إسماعيل الأيوبي) أمارة دمشق، وهو أخو الصالح أيوب الذى كان ملكاً على مصر، تحالف مع الصليبيين لحرب أخيه نجم الدين أيوب في مصر. وكان من شروط تحالفه مع الصليبيين أن يُعْطَي لهم مدينتي صيدا والشقيف، وأن يسمح لهم بشراء السلاح من دمشق، وأن يخرج معهم في جيش واحد لغزو مصر. فقام العز خطيبا على المنابر، وأنكر بشدة، على الصالح إسماعيل الأيوبي، أن المدن الإسلامية ليست ملكاً شخصياً له حتى يتنازل عنها للصليبيين. كما أنه لا يجوز بيع السلاح لهم، لأنهم ما كانوا يشترون السلاح إلا لقتال المسلمين. وقد اضطهد وعذب بسبب ذلك، فارتحل إلى مصر.

ومن مواقفه الشهيرة أيضاً، والتى اصطدم فيها مع الصالح أيوب نفسه، ملك مصر، أنه لما عاش في مصر إكتشف أن الولايات العامة والإمارة والمناصب الكبرى كانت كلها في أيدي المماليك، الذين كان قد اشتراهم نجم الدين أيوب قبل ذلك؛ ولذلك فهم في حكم

الرقيق والعبيد، ولا يجوز لهم الولاية على الأحرار؛ فأصدر مباشرة فتواه بعدم جواز ولايتهم، لأنهم من العبيد. واشتعلت مصر بغضب الأمراء الذين كانوا يتحكمون في كل المناصب الرفيعة، حتى كان نائب السلطان مباشرة من المماليك. فجاءوا إلى الشيخ العز بن عبد السلام، وحاولوا إقناعه بالتخلي عن هذه الفتوى، ثم حاولوا تهديده، ولكنه رفض كل ذلك، مع أنه قد جاء مصر بعد اضطهادٍ شديدٍ في دمشق، وأصرَّ على كلمة الحق. فرُفع الأمر إلى الصالح أيوب، فاستغرب من كلام الشيخ ورفضه، فخلع الشيخ نفسه من منصبه في القضاء، وركب حماره ليرحل من مصر، فخرج خلفه الآلافُ من علماء مصر ومن صالحيها وتجارها ورجالها، بل خرج خلفه النساء والصبيان تأييدًا له، وإنكارًا على مخالفيه. فأسرع الملك الصالح نجم الدين أيوب بنفسه خلف الشيخ العز بن عبد السلام، واسترضاه، وتم بيع الأمراء وعتقهم ورد ثمن بيعهم إلى بيت مال المسلمين. ومن يومها والشيخ العز بن عبد السلام يُعرف بـ (بائع الأمراء).

ومن أشهر وأهم مواقفه فتواه في تمويل الحرب ضد التتار التى كان يُعِدُّ لها في عام١٢٦٠م الأمير قُطُزْ، حاكم مصر آنذاك. وجاء في تدوين د. راغب السرجاني في مقالته "مختصر حرب التتار" ما يلي:

"المشكلة الجديدة التى أمام قطز الآن، هي (المشكلة الاقتصادية) !! ومن جديد جمع قُطُزْ، رحمه الله، مجلسه الاستشاري ودعا إليه – إلى جانب الأمراء والقادة – العلماء والفقهاء، وعلى رأسهم سلطان العلماء الشيخ العزّ بن عبد السلام، رحمه الله. واقترح قطز رحمه الله أن تفرض على الناس ضرائب لدعم الجيش. وهذا قرار يحتاج إلى فتوى شرعية، ولا بد من وجود سند شرعي يبيح ذلك، وإلا صارت الضرائب مكوساً، وفارض الضرائب بغير حق عقابه أليم عند الله. روى الإمام أحمد وأبو داود – رحمهما الله – عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله يقول: "لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ صَاحِبُ مَكْسٍ". ولذلك كان عند الشيخ العز بن عبد السلام تحفظٌ خطيرٌ على هذا القرار، فلم يوافق عليه إلا بشرطين، والشرطان عسيران جدًّا!! قال الشيخ العزّ بن عبد السلام رحمه الله:

إذا طرق العدو البلاد، وجب على العالم كلهم قتالهم (أي العالم الإسلامي)، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهازهم (أي فوق الزكاة) بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء. هذا هو الشرط الأول، أما الشرط الثاني فكان أصعب!! قال الشيخ العزُّ بن عبد السلام، رحمه الله: وأن تبيعوا ما لكم من الممتلكات والآلات (أي يبيع الحكام والأمراء والوزراء ما يمتلكون)، ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه، وتتساووا في ذلك أنتم والعامة؛ وأما أخذ أموال العامة، مع بقاء ما في أيدي قادة الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا!!. فتوى في منتهى الجرأة!! وإن كانت هذه الفتوى عجيبة في جرأتها، فإن استجابة قُطُزْ، رحمه الله، كانت أعجب!! لقد قَبِل قطز، رحمه الله، كلام الشيخ العز بن عبد السلام ببساطة!! وبدأ بنفسه، فباع كل ما يملك، وأمر الوزراء والأمراء أن يفعلوا ذلك!! فانصاع الجميع، وتم تجهيز الجيش المسلم بالطريقة الشرعية. وجاء وقت إعداد الخطة، وقام قطز، رحمه الله، بإلقاء بيانه الذى يوضِح فيه رأيه في الخطة العسكرية، وبمجرَّد أن ألقى برأيه، قام المجلس العسكري ولم يقعد!! لقد أراد قطز، رحمه الله، أن يخرج بجيشه لمقابلة جيش التتار في (فلسطين)!! واعترض أغلب الأمراء. لقد أراد الأمراء أن يبقى قطز في مصر ليدافع عنها، (وبعد جدال طويل) اقتنع الأمراء برأي قطز، وهكذا ترجحت كفة الانتقال إلى فلسطين، واقتنع الحضور في المجلس العسكري الأعلى الذى عقده قطز، رحمه الله، برأيه الموفَّق، وبدأ قطز، رحمه الله، في إعداد الجيش وتجهيزه التجهيز المناسب لعبور سيناء وللقاء التتار.......

وانطلق قطز يحفِّز الناس، ويدعوهم للثبات، ثم أطلق صيحته الخالدة: وإسلاماه، وإسلاماه، وإسلاماه!! قالها ثلاث مرات، ثم قال في تضرُّع: "يا الله! انصر عبدك قطز على التتار" وما إن انتهى من دعائه وطلبه – رحمه الله– إلا وخارت قوى التتار تماماً.

نهاية أسطورة التتار

وبدأ الجنود (التتار) الذين روَّعوا الأرض قبل ذلك يتساقطون كالذباب على أرض بيسان، وقضى المسلمون تمامًا على أسطورة الجيش الذى لا يُقهر، وارتفعت راية

الإسلام وتهاوت راية التتار، وجاءت اللحظة التى ينتظرها المسلمون منذ أربعين سنة أو تزيد. {وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [الروم: ٤، ٥]. لقد أُبِيد جيش التتار بكامله!! لم يبق على قيد الحياة من الجيش أحد بالمرة! لقد فَنِي الجيش الذى اجتاح نصف الكرة الأرضية؛ فَنِيَ الجيش الذى سفك دماء الملايين، وخرَّب مئات المدن، وعاث في الأرض فسادًا. وانتصر الجيش الإسلامي العظيم!!

(وكان لهذا النصر آثاراً مهمة، نختصرها من المقالة فيما يلي):

الأثر الأول: عاد المسلمون إلى الله أثناء التحضير، وأثناء الإعداد لهذا اللقاء، وأثناء المعركة ذاتها، وبعد المعركة، ولمدة طويلة من الزمان.

الأثر الثاني: قتل المسلمون في عين جالوت الهزيمة النفسيَّة البشعة التى كانوا يعانون منها.

الأثر الثالث: عادت الهيبة للأمة الإسلامية بعد غياب دام أكثر من ستين سنة.

الأثر الرابع: فنيت قوة التتار العسكرية في منطقة الشام وتركيا وفلسطين، ولم يُسمع عن التتار في هذه المنطقة لعشرات السنين بعد ذلك. اختفى القهر والظلم، واختفى البطش والتشريد، وأَمِنَ الناس على أرواحهم وأموالهم وأرضهم وأعراضهم، ولم يروِّعْ الناسَ أحدٌ في هذه المناطق إلا بعد عين جالوت بأكثر من مائةٍ وأربعين عامًا، عندما دخل التترى السفَّاح تيمورلنك بلاد الشام، فاجتاح حلب ودمشق سنة ٨٠٤هـ/ ١٤٠٢م، بعد أن اجتاح بلاد العالم الإسلامي الشرقية.

الأثر الخامس: عادت الوَحْدة العظيمة بين مصر والشام، وكوَّنا معاً التحالف الاستراتيجي الصُّلب، الذى يمثل حاجز صدٍّ رائعٍ ضد الهجمات الأجنبية.

الأثر السادس: وهو من أعجب الآثار، وأعظمها!! فقد رأى كثير من التتار دين الإسلام عن قرب، وقرءوا عن أصوله وقواعده وقوانينه، وعلموا آدابه وفضائله، ورأوا أخلاقه ومبادئه، فأعجبوا به إعجابًا شديدًا، وخاصَّةً أنهم – كعامة البشر– يعانون من فراغ

ديني هائل، فليس هناك تشريع يقترب أو يحاول الاقتراب من دين الإسلام، ومن اقترب منه وبحث فيه لا بد أن يرتبط به، إن كان صادقًا في بحثه، وطالبًا للحقيقة فعلاً.

لقد بدأ بعض التتار يؤمنون بدين الإسلام، ثم شاء الله أن يدخل الإيمان في قلب أحد زعماء القبيلة الذهبية – وهي أحد الفروع الكبيرة جدًّا في قبائل التتار، وهو الزعيم ابن عم هولاكو مباشرة، وأخو (باتو) القائد التتري المشهور، وتسمَّى هذا الزعيم بإسم (بركة)، وكان إسلامه في سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م. ثم تولى (بركة) زعامة القبيلة الذهبية سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م، وأصبح اسمه (بركة خان). وكانت هذه القبيلة شبه مستقلة عن دولة التتار، وتحكم المنطقة التى تقع شمال بحر قزوين، والمعروفة في الكتب الإسلامية القديمة باسم (بلاد القبجاق). وهي تقع الآن في روسيا، وبإسلام هذا الزعيم دخلت أعداد كبيرة من قبيلته في الإسلام.

كانت تلك أحداث دامية في تاريخ الأمة الإسلامية دفعت فيها ثمن الابتعاد عن تطبيق شرع الله، ولكنها من خلال تلك المحن عرفت سبيل النصر، وسلكت سبيل الرُّشد مرَّة أخرى".

أورد د. راغب السرجاني أكثر من أربعين مصدراً تاريخيا لتوثيق تلك الأحداث – انظر موقعه المسمي "التاريخ الإسلامي – دون تشويه وتزوير" وهو موقع "يعنى بتوثيق التاريخ من مصادره الصحيحة، بمنهجية علمية، وعرضه في صورة معاصرة دون تشويه أو تزوير، وتحليل أحداثه وربطها بالواقع".



الملحق الثالث

أصل قبيلة الجعليين ونسبهم التاريخ – البطولات

محمد علي فايز – ٢٨ يوليو ٢٠١٦م

https://mohammedfayez.files.wordpress.com

تنتسب قبيلة الجعليين، المعروفة، الي ثلاث مجموعات من المجموعة الجعلية الكبري التى تضم البطاحين والشايقية والرباطاب والبديرية. وهذه المجموعات الثلاث سكنت نهر النيل ما بين شمال الخرطوم جنوبا وشرق مدينة مروي، وأُطْلِقَ عليها إسم (قبيلة الجعليين) نسبة الي اشتراكهم في جد واحد وسكنهم في منطقة واحدة.

هذه المجموعات سكنت نهر النيل وتنقسم الي مكوكيتين وهما:

- مكوكية الميرفاب من نهر عطبرة وحتى بربر.
- مكوكية السعداب من الجيلي وحتى نهر عطبرة.

تنتسب قبيلة الجعليين الي الجد غانم وهو شقيق شايق جد الشايقية بن حميدان الجعلي العباسي، وهي ثلاثة فروع رئيسية:

- ذرية ضواب بن غانم بن حميدان.
- ذرية ضياب بن غانم بن حميدان.
- ذرية رباط بن غانم بن حميدان.
- عوض جد العوضية وهم أكثر فروع الجعليين عددا ويسكنون قري شندي والمتمة مثل الحميراب والمسيكتاب والبشراب والخواضاب والنوراب والبادراب.
- قريش جد القريشاب ويسكنون منطقة ود الحبشي غرب المتمة.
- محمد جد التراجمة ويسكنون منطقة التراجمة محلية شندي.

ذرية ضياب بن غانم:

- بشارة جد الميرفاب ملوك بربر وهم اهل مكوكية بربر ويسكن الميرفاب من نهر عطبرة وحتى العبيدية وفروعهم كثيرة منها الرحماب والنعيماب والصايماب والسويكتاب ومن ابناء بشارة ايضا سريح جد السريحاب وهم يسكنون المكايلاب وهم اهل الشيخ الجعلي المثني تور كدباس.
- أشهر ملوك الميرفاب هو الملك نصر الدين بن الصادق بن ايوب بن الصائم بن رحمة ابو ختام بن سويكيت بن رحمة البخيت جد الرحماب بن ادريس بن محمد الميرف (جد الميرفاب) بن علي بن ادريس بن بشارة بن ضياب بن غانم.
- فاضل اليسر جد الفاضلاب ويسكنون الفاضلاب غرب عطبرة.
- حسب النبي الضرير جد السناهير ويسكنون المتمة وهم اهل مشيخة.

ذرية ضواب بن غانم:

- عبد الله وذرية عبد الله هم الكتياب ويسكن الكتياب جنوب الدامر ومنهم الشاعر التيجاني يوسف بشير.
- والحريراب ويسكنون غرب شندي.

الملك عرمان

- هو جد الجعليين العرامنة وهم أغزر فروع الجعليين الثلاث ويسكنون في القري الواقعة بين حجر العسل وحتى نهر عطبرة.

وابناء الملك عرمان هم:

- المسلماب ويسكنون منطقة العقيدة وام الطيور ومنهم المك بشير ود عقيد.
- مكابر جد المكابراب ويسكنون منطقة المكابراب في الدامر.
- جبل جد الجبلاب ويسكنون منطقة الجبلاب غرب شندي.
- جبر جد الجابراب ويسكنون منطقة الجابراب في المحمية.

- شاع الدين جد الشعديناب ويسكنون الدامر والحصايا.
- زيد جد الزيداب ويسكنون منطقة الزيداب جنوب الدامر.
- نصر الله جد النصرلاب ويسكنون شندي.
- سعيد جد الحداحيد ويسكنون غرب شندي.

عبد العلي وانقسم نسله لعدة مطارق وهم:

- جبارة جد الجباراب ويسكنون جنوب الدامر.
- جاد الله جد الجودلاب ويسكنون الكمير غرب شندي.
- تمير جد التميراب ويسكنون غرب الدامر.
- احمد جد العشانيق ويسكنون ابو سليم غرب الدامر.
- عمر جد العمراب ويسكنون نهر عطبرة.
- محمد جد العمراب وبسكنون كبوشية وجبل ام علي.
- النجيض جد النجاضة ويسكنون البطانة.
- عبد الرافع جد الرافعاب.
- خضر جد الخضراب.
- موسي جد الموسياب ويسكنون جنوب الدامر.
- حسب الله جد الحسبلاب ويسكنون ام الطيور.
- حيدر جد الكالياب ويسكنون غرب شندي.

حمد وهو جد:

- المجاذيب في الدامر.
- القنديلاب في الدامر.
- الرزقلاب في نهر عطبرة ومنهم الطيب محمد الطيب صاحب البرنامج التلفزيونى "صور شعبية".

عدلان بن عرمان وانقسم نسله لعدة مطارق:

- نافع جد النافعاب ويسكنون البطانة.
- نفيع جد النفيعاب ويسكنون المتمة.
- محمد جد المحمداب ويسكنون شندي.
- علي شقل جد الشقالوة ويسكنون شندي.
- إبراهيم جد الكراكسة ويسكنون ديم القراي.
- محمود جد الستناب ويسكنون شندي.
- عبود جد العبوداب ويسكنون المتمة.
- عبد الماجد جد العبدوتاب ويسكنون غرب شندي.
- صلوع جد الصلوعاب ويسكنون الصلوعاب غرب الميمة.
- شقرد جد الشقرديناب ويسكنون قري شندي.
- كنه جد الكناويين ويسكنون المتمة.
- وهيب جد الوهاهيب ويسكنون بربر.

عبد الدائم جد:

- العالياب ويسكنون العالياب وام علي.
- العبدايماب ويسكنون البسلي بنهر عطبرة.
- الضريواب ويسكنون أم الطيور.

عبد المعبود هو جد:

- السعداب ويسكنون حجر العسل والهوبجي بالمتمة وهم أهل المك نمر.
- العدلاناب ويسكنون شندي.
- الصفر ويسكنون غرب شندي.



رقم الإيداع: ٢٠١٨/٢٢٩
ردمك ١-٢٢٣-١-٩٩٩٤٢-٩٧٨ ISBN

من تاريخ السودان

الجَّعَلِيُّون (أحداث ومناقب)

يحوي هذا الكتاب سردا وتحليلا لوقائع وأحداث مهمة في تاريخ قبائل الجعليين، أكبر قبائل السودان وأكثرها انتشارا، وذلك خلال فترتي الحكم التركي وحكم المهدية (١٨٢١-١٨٩٩م). وفيه لمحات عن فترة الحكم الثنائي (١٨٩٩-١٩٥٦م).

ويهدف الكتاب، بجانب ذلك، إلى تصحيح كثير من الأخطاء في المعلومات التاريخية عن تلك الأحداث. كما يحوي ذكرى لبعض أفذاذ الجعليين، الذين ساهموا في نهضة السودان الحديث.

وتشـمل بعض الفصـول مقتطفات وطرف أدبية وذكر مواقف مهمة في تاريخ الامة الإسلامية، وبعض ذكريات أتت في سياق الحديث.



خريطة السودان علي عهد المهدي

This book gives a brief record of significant incidents in the history of Aljaaliyoon, the largest community in central Sudan, during the nineteenth century (1821 – 1899), together with a brief record of the outstanding achievements of prominent members of that community in the making of modern Sudan. The book also gives a brief history and review of the colonial period of the Sudan up to its independence in 1st January 1956.


ISBN 9781986603232
90000 >
9 781986 603232